بلاد العرب

في التاريخ القديم

الأستاذ الدكتور
عبد الله أبو الغيث
أستاذ تاريخ الجزيرة العربية والحضارات السامية القديمة
قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة صنعاء

الطبعة الرابعة
طبعة مزيدة ومنقحة
١٤٣٥هـ/٢٠١٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

بلاد العرب في التاريخ القديم

* المـــــؤلف : **الأستاذ الدكتور /** عبد الله أبو الغيث
* عنوان الكتاب : **بلاد العرب في التاريخ القديم**
*الصف الطباعي : بإشراف المؤلف
* تصميم الغلاف : معتصم عبدالله أبوالغيث
*الطبــــعة : الرابعة ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م

مقـــدمـــة

تواجه الباحث في تاريخ العرب القديم (قبل الإسلام) صعوبات جمة ، لعل أهمها هو قلة المصادر التي تتحدث عن ذلك التاريخ ، وتتراوح هذه المصادر بين مصادر خارجيـــة ، أمدتنا بها الشعوب المجاورة للعرب ، ومصادر داخلية ، خاصـــة بأبنـــاء الجزيـــرة العربيـــة أنفسهم . وتتميز هذه الأخيرة بكونها إما أنها قليلة وشحيحة (النقوش مثلاً) ، أو أنها غـــير موثوقة ، مثل المصادر العربية التي دونت في صدر الإسلام (كتب أهل الأخبار) ، والـــتي خلطت فيها الحقيقة بالأسطورة إلى حد بعيد . وذلك بسبب تناقل أحداثها عـــبر الروايـــة الشفهية لأزمان طويلة ، الأمر الذي جعلها تورد لنا روايات متباينة ومتناقضـــة في أحيـــان كثيرة .

وفي محاولة منا للخروج من تلك الإشكاليات ، فإننا سنعمل ــ ما أمكننا ذلـــك ــ على الإتيان بالرواية التي نرجح صحتها مباشرة ، من غير ذكر الروايات الأخرى ، اختصاراً للموضوع وتخفيفاً على القارئ ، الذي قد لا يهمه إيراد الروايات جميعها ، بل قد يصـــيبه بالملل والتشتت الذهني . وعلى كلٍ فالروايات الأخرى موجودة في مصادرها ، وبإمكان أي منا الرجوع إليها في مظانها الأصلية . إلى جانب ذلك ، فإننا قد استبعدنا طريقة السرد المملة

لكل الأحداث ، وحرصنا بدلاً من ذلك أن نأتي بالمختصر المفيد ؛ لكنه ذلك الاختصار الذي لا يؤثر على المعلومات التي نريد إيصالها من خلال هذا الكتاب ، ولا ينقص منها .

وقد اختلف الباحثون حول مسمى " بلاد العرب " والمقصود به ، حيث عده بعضهم اسماً لشبه الجزيرة العربية فقط ، بينما أدخل بعضهم بادية الشام ضمن ذلك المسمى ، وقد اقتصرت تسمية بلاد العرب لدى بعضهم الآخر على منطقة شمال الجزيرة العربية ووسطها فقط ، أي أن جنوب الجزيرة (اليمن) لا تدخل ضمن مسمى بلاد العرب حسب تحديدهم[1] .

وبغض النظر عن هذه الاختلافات ، وأي منها هو الأصح ، فإننا قد استأنسنا بالرأي الأخير ــ الذي يقصر اسم بلاد العرب على مناطق شمال الجزيرة ووسطها ــ عند اختيارنا لاسم هذا الكتاب الذي بين أيدينا ، وذلك لأننا سنقتصر فيه على دراسة منطقة شمال الجزيرة العربية ووسطها ــ لأسباب منهجية ــ ولن نتطرق فيه إلى دراسة منطقة جنوب الجزيرة التي نؤمل تناول تاريخها في كتاب مستقل ، وذلك إن مد الله في عمرنا وقوى من عزيمتنا .

وإذا كنا سنقتصر على تاريخ شمال الجزيرة العربية ووسطها من الناحية المكانية ، فإننا سنقتصر عند دراسة هذا المكان على عصر ما قبل الإسلام من الناحية الزمنية ، وهو التاريخ الذي اصطلح المؤرخون على تسميته بتاريخ العرب القديم .

---

[1] عن هذه الآراء انظر الفصل الثاني من الباب الأول في هذا الكتاب .

وسوف ينقسم الكتاب إلى خمسة أبواب ، وسينقسم كل باب إلى ثلاثة فصول ، وستتفرع من تلك الفصول مباحث وفقرات عديدة .

أخيراً نسأل الله أن يجزي عنا خير الجزاء كل من قدم لنا عوناً خلال تأليف هذا الكتاب وأن يعفو عن زلاتنا وهفواتنا التي لا ندعي أن هذا الكتاب قد خلا منها ، فإن أصبنا منه وحده ﷺ ، وإن أخطأنا فمن أنفسنا والشيطان .

والحمد لله رب العالمين .

صنعاء

٢٠٠٤م

مقدمة الطبعة الثالثة

سيلاحظ القارئ أننا قد أدخلنا تعديلاً طفيفاً على عنوان الكتاب في طبعته الثالثة، ليصبح (بلاد العرب في التاريخ القديم)، وذلك بدلاً عن العنوان السابق الذي وسم به الكتاب في طبعتيه الأولى والثانية، وهو (تاريخ بلاد العرب القديم).

ويعود ذلك إلى كوننا قد أضفنا باباً سادساً إلى أبواب الكتاب الخمسة السابقة، وهو الباب الثاني في هذه الطبعة، فأردنا أن يميز القارئ هذه الطبعة وما يليها عن الطبعتين السابقتين، نظراً لاحتوائها على الزيادة المذكورة.

أخيراً نشير إلى أن الطبعة الأولى كانت قد شابتها بعض الأخطاء المنهجية والمطبعية، ومع الأسف فإننا لم نتمكن من تصحيحها في الطبعة الثانية للكتاب لظروف خاصة رافقت ذلك، ولذلك فقد تم تلافي تلك الأخطاء وتنقيحها في هذه الطبعة، وكل ما نرجوه هو المعذرة من القراء الأعزاء، والله الموفق.

صنعاء

٢٠٠٧م

الباب الأول

مدخل إلى تاريخ العرب قبل الإسلام

مدخل إلى تاريخ العرب قبل الإسلام

تمهيد :

كان من الضروري إدخال هذا الباب ، ليكون بمثابة فرشة نقدم بها لدراسة الكيانات السياسية ، التي شهدتها منطقة شمال الجزيرة العربية ووسطها قبل الإسلام ؛ لأنه من الضروري على من يدرس تاريخ أي أمة من الأمم ــ في أي زمان وأي مكان ــ أن يبدأ بمعرفة مصادره التي سوف يعتمد عليها في دراسته لذلك التاريخ ، ليعرف ما هي المصادر الموثوقة التي يمكنه الاعتماد عليها ، وما هي المصادر التي تحتاج إلى تمحيص ، حتى يكون بإمكانه الاعتماد عليها .

أما تقديمنا للمحة عن جغرافية الجزيرة العربية ، فذلك أمر يسهل لنا متابعة الأحداث التي شهدتها هذه الجزيرة ، والتي كانت بمثابة المسرح الجغرافي الذي دارت فيه الأحداث التاريخية التي تضمنها كتابنا هذا .

وكان لزاماً علينا ــ أيضاً قبل دراستنا للدول والدويلات التي أقامها العرب في جزيرتهم ــ أن نعرف متى كان ظهور العرب على مسرح الأحداث التاريخية ، وما هو أصل تسميتهم ، وهل بالفعل انقسم العرب إلى قحطانية وعدنانية . وذلك سوف يسهل علينا متابعة الأحداث التي شهدتها جزيرة العرب بعد ذلك ، والتي كان أبطالها وصناعها هم سكانها العرب .

الفصل الأول

مصادر تاريخ العرب القديم

لا تزال كثير من حلقات التاريخ العربي القديم مفقودة بالنسبة لنا ، أو على الأقل شبه مفقودة . ولا تزال كثير من مفرداته وتواريخه يشوبها الكثير من اللغط والاختلاف ، لذلك فإننا قبل أن ندخل في دراسة ذلك التاريخ ، لابد أن نقدم استعراضاً موجزاً لمصادر تاريخ العرب القديم ، حتى تتضح لنا هذه المصادر بغثها وسمينها ، لعلنا نستطيع بعد ذلك أن نخرج من هذه المصادر بصورة تاريخية مقاربة لما كان قائماً بالفعل .

وأهم هذه المصادر هي :

أولاً : الآثار والكتابات العربية القديمة

تُعد آثار وكتابات الجزيرة العربية أهم مصدر لدراسة تاريخ العرب القديم ، وذلك لأنها معاصرة لأحداث ذلك التاريخ ، بل ووضعت من قبل صناع أحداث ذلك التاريخ أنفسهم . وهي تنفرد بالمزية الأخيرة ، وتتفوق بها على غيرها من المصادر ، الأمر الذي أعطاها الأهمية التي أشرنا إليها .

أ ـ الآثار :

سوف نركز هنا على آثار منطقة شمال الجزيرة العربية ووسطها بدرجة أساسية ؛ لأن هذه المنطقة هي موضوع كتابنا ، كما أسلفت الإشارة .

وتنقسم الآثار إلى قسمين أساسيين هما : الآثار الثابتة ، والآثار المنقولة . والآثار الثابتة هي تلك الآثار التي يصعب نقلها من مواقعها ، إلى أماكن أخرى . وأبرز مثال عليها هي المعابد والقصور والبنايات السكنية ، وكذلك السدود والمنحوتات الصخرية وغيرها .

أما الآثار المنقولة فتتمثل في التحف المعدنية والخشبية والخزفية ، وأدوات الزينة ، والأدوات المنزلية ، وكذلك قطع الأسلحة ، وغير ذلك من المواد التي يسهل حملها ونقلها إلى المتاحف ومخازن الآثار .

وتنتشر هذه الآثار بشقيها ، في كثير من المواقع المبثوثة في مناطق شمال الجزيرة العربية ووسطها ، خصوصاً في عواصم الدول التي قامت هناك مثل : البتراء ، وتدمر ، والحضر ، والحيرة ، وقرية الفاو. إلى جانب بعض المواقع الأخرى مثل: بصرى الشام ، والجابية ، وتيماء ، ودومة الجندل ، والعلاء ، ومدائن صالح ، وغيرها من المواقع الأثرية الأخرى .وهذه الآثار يمكن أن تفيدنا في معرفة تاريخ العرب قبل الإسلام ، في هذه المنطقة ، بعد محاولة تحديد الزمن الذي تعود إليه ، وذلك بالطرق العلمية الحديثة[1] .

[1] عن هذه الطرق انظر : حسن . علي ، الموجز في علم الآثار ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص١٠١-١٠٧ .

ب ـ الكتابات :

تنقسم الكتابات العربية القديمة إلى قسمين أساسيين هما :

١) الكتابات العربية المسندية :

ونقصد بهذه الكتابات ، تلك الكتابات التي دونت بخط المسند العربي الجنوبي ، سواء في منطقة جنوب الجزيرة العربية أو شمالها . وفيما يخص الكتابات المسندية الجنوبية ، التي تطرقت إلى تاريخ شمال الجزيرة العربية ، فإن الكتابات السبئية تأتي في مقدمتها ، حيث تحدثت هذه الكتابات عن طريق اللبان ، الذي يخترق الجزيرة العربية من جنوبها إلى شمالها . وكذلك تحدثت هذه النقوش عن الحملات التي شنها ملوك الدولة السبئية الحميرية ، نحو مناطق شمال الجزيرة العربية[١] .

وكذلك النقوش المعينية التي أشارت إلى مستوطنات الدولة المعينية في منطقة شمال الجزيرة العربية ، خصوصاً مدينة العلا (ديدان) ، وأيضاً النقوش الحضرمية ، التي أشارت إلى الأعراب الذين استوطنوا أراضي الدولة الحضرمية ، وتقلدوا المناصب الرفيعة فيها[٢] .

وكذلك تشير الكتابات المسندية التي تعود إلى الدول التي قامت في جنوب الجزيرة العربية (سبأ ، معين ، حضرموت ، قتبان) إلى كثير من أسماء المعبودات الوثنية ، التي كان

---

(١) عن تفاصيل هذه الحملات . انظر : أبو الغيث . عبد الله ، علاقة جنوب الجزيرة العربية بشمالها خلال القرنين الثالث والرابع للميلاد ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة صنعاء ، ص٥١-١٠٥ - العلاقات بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة صنعاء ، ص٦-٦٧ .

(٢) تقلد أحد الأعراب منصب مقتوي (قائد) للجيوش الحضرمية (أبو الغيث ، الماجستير ، ص٦٣) .

يعبدها أهلها ، وكان لها شبيه في مناطق ودول شمال الجزيرة العربية المختلفة . ويفيدنا ذلك في معرفة وجود علاقة وثيقة ـــ سياسية وحضارية ـــ بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها .

أما الكتابات المسندية التي تعود إلى أهل شمال الجزيرة العربية أنفسهم ، فتتمثـــل في الكتابات اللحيانية ، والثمودية ، والصفوية . ويلاحظ تشابه الخطين الثمودي والصـــفوي ، وابتعادهما قليلاً عن الأصل الجنوبي (اليمني) وقرب الخط اللحياني الشديد منه[١] .

وقد أُسميت الكتابات اللحيانية بهذا الاسم ، نسبة إلى دولة لحيان ، التي ورد ذكـــر أسماء عدد من ملوكها في هذه النقوش ، وكانت عاصمتها مدينة ديدان (العلا) ، ويعتقـــد أن هذه الدولة كانت امتداداً لإمارة ديدان ، التي حكمت في القرن السادس قبل المـــيلاد ، ثم خلفتها لحيان من القرن الخامس إلى بداية القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم تلاهـــا المعينيـــون الذين استوطنوا عاصمتها ، وظلوا فيها حتى انتهى حكمهم على يد الأنباط[٢] .

وبخصوص الكتابات الثمودية ، فقد اعتاد المهتمون بهذه النوعية من الكتابات تسميتها بتلك التسمية ، استناداً إلى ظهور لفظة (ث م د) في بعض نقوشها .وسيأتي الحديث عنها بصورة مفصلة في الفصل المخصص لحضارة ثمود.

---

(١) هبو . الأبجدية ، اللاذقية ، ١٩٨٤م ، ص٩١ .

(٢) الأنصاري . لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غـــرب الجزيـــرة العربيـــة ، مجلـــة الـــدارة ، العـــدد الأول ، ١٩٧٥م ، ص٧٩ ، ٨٠ ـــ أبو الحسن ، قراءة لكتابات لحيانية ، الرياض ، ١٩٩٧م ، ص٣٢-٣٩ .

أما الكتابات الصفوية فقد أسميت بهذا الاسم نسبة إلى منطقة الصفا في حوران جنوب دمشق ، ويعود تاريخها إلى الحقبة الواقعة بين القرنين الأول والرابع الميلاديين ، ووجدت آثار لهذه الكتابات أيضاً في شمال سوريا وعلى نهر الفرات[1].

وأخيراً نذكر أنه من خلال الكتابات اللحيانية والثمودية والصفوية ، يمكننا أن نعرف بعضاً من أحوال العرب الشماليين ، خلال العصور القديمة ، وفي مختلف مناحي الحياة[2].

٢) الكتابات العربية الآرامية :

نقصد بالكتابات العربية الآرامية تلك الكتابات التي كتبت بها الدول العربية المبكرة (الأنباط ، تدمر ، الحضر) والتي تُعد مصدراً أساسياً لكتابة تاريخ هذه الدول .

وتنتمي اللغة الآرامية إلى مجموعة اللغات السامية (القسم الشمالي الغربي) ، ودعيت بالآرامية نسبة إلى متكلميها من القبائل الآرامية . وقد انصرف معظم الآراميين إلى التجارة وسيطروا عليها في كل منطقة الشرق الأدنى القديم ، حتى استطاعوا أن يجعلوا من لغتهم بمثابة اللغة الدولية لعصرهم ، ابتداءً من القرن السادس قبل الميلاد ، حتى ظهور العرب المسلمين على مسرح الأحداث في النصف الأول من القرن السابع الميلادي . وقد انقسمت

(١) هبو ، الأبجدية ، ص٩١ .

(٢) عن مواضيع هذه النقوش ، انظر : نقوش ثمودية من سكاكا ، الرياض ، ٢٠٠٢م ، ص٩-١٣ .

اللغة الآرامية إلى قسمين : شرقي وغربي ، وإلى القسم الغربي تنتمي آرامية الدول العربية المبكرة السالفة الذكر[1] .

وبالنسبة للكتابات النبطية المشتقة من الآرامية ، فقد عثر عليها منتشرة بين دمشق وشمال الجزيرة العربية وسيناء ، ومعظمها يحمل تاريخاً دقيقاً ، ويتناول موضوعات مختلفة[2] . وتظل الكتابات النبطية التي خلفها لنا الأنباط والسكان المحليين في مدينة الحجر (مدائن صالح) المصدر الوحيد الذي نستقي منه معلوماتنا عن الوجود النبطي هناك[3] .

أما الخط التدمري ، فقد ازدهر بدءاً من ميلاد المسيح إلى سقوط تدمر في يد الرومان وخرابها في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي . ويتميز الخط التدمري ــ المطور عن الآرامي ــ بمظهره المنمق والمزخرف ، وقد استخدم التدمريون خطهم ولغتهم الآرامية في معاملاتهم الرسمية[4] .

أما في الحضر فقد كانت الكتابات التي عثر عليها فيها – في معظمها – كتابات آرامية ، مما يدل على أن الآرامية كانت أيضاً هي لغة هذه الدولة مثلها مثل دولتي الأنباط وتدمر[5] .

---

(1) هبو . المدخل إلى اللغة السريانية ، حلب ، ١٩٨٧م ، ص٣٣ ، ٣٥ .

(2) هبو . الأبجدية ، ص٨٤ .

(3) الذيب ، نقوش الحجر النبطية ، الرياض ، ١٩٩٨م ، ص٣ .

(4) هبو . الأبجدية ، ص٨٣ .

(5) سفر . فؤاد ، مصطفى . محمد علي ، الحضر مدينة الشمس ، بغداد ، ١٩٧٤م ، ص٢٠ .

ويعتقد أن العرب الشماليين قد اشتقوا خطهم العربي المعروف لنا في الوقت الحاضر ، من الخط النبطي المتطور عن الآرامي ، علماً بأن الآثار الكتابية العربية قبل الإسلام تُعد نادرة ، حيث يعود أول ظهورها إلى القرنين الثالث والرابع للميلاد ، والمرجح أن كتابة (أم الجمال) ذات اللغتين اليونانية والأرامية التي يعود تاريخها إلى عام (٢٥٠م) تمثل آخر صورة للخط النبطي عند انتقاله لتدوين اللغة العربية . ويأتي بعدها نقش (النمارة) الشهير ، المؤرخ بعام (٣٢٨م) ، الذي كتب بحروف نبطية متصلة ، وبلغة عربية فصيحة ، ويعد أقدم أثر كتابي للغة العربية الفصحى . أما نقش (حران) الذي يعود تاريخه إلى عام (٥٦٨م) فيبدو لنا أقرب الخطوط ــ التي عثر عليها ــ إلى الخط العربي المعروف[1] .

[1] الأبجدية ، ص٨٦ ، ٨٧ .

ثانياً : الكتابات المسمارية :

المقصود بالكتابات المسمارية هي تلك الكتابات التي كتبت بها شعوب بلاد الرافدين، وبالنسبة للكتابات المسمارية التي ذكرت العرب يمكن تقسيمها إلى قسمين :

أ. كتابات العصر الآشوري :

وردت كلمة (عرب) في الكتابات المسمارية الأشورية كاسم دال على بلاد أو على قوم أو على نسب ، وذلك خلال العصر الآشوري الحديث ، ابتداء من عهد الملك الآشوري شلمنصر الثالث (٨٥٩-٨٢٤ ق . م)[١] حيث تحدثت تلك الكتابات عن الحملات العسكرية التي أرسلتها الدولة الآشورية ، ضد مناطق وقبائل شمال غرب الجزيرة العربية ، خصوصاً مدينة دومة الجندل ، وقبيلة قيدار . كما تحدثت عن تدخل الآشوريين في تنصيب الزعماء العرب الذين يثقون في ولائهم ، على هذه المدن والتجمعات القبلية[٢] .

ويمكننا أن نستفيد من هذه الكتابات ، العديد من المعلومات التاريخية عن العرب بصفة عامة ، وعرب شمال غرب الجزيرة العربية بصفة خاصة ، من مثل أسماء الزعماء العرب من ملوك وملكات وقادة ، إلى جانب أسماء المدن والقبائل العربية التي كان يحكمها هؤلاء الزعماء .

أما الكتابات الآشورية التي تتحدث عن الغنائم التي غنمها الملوك الآشوريون من بلاد العرب ، أو تلك الهدايا والجزية التي سلمت من ملوكها لملوك الدولة الآشورية ، فتمكننا من

(١) إسماعيل . عارف . العلاقات بين العراق و شبه الجزيرة العربية ، صنعاء ، ١٩٩٨م ، ص١٢٦ ، ١٢٧ .

(٢) يحيى . لطفي عبد الوهاب . العرب في العصور القديمة ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص٤٠١ .

معرفة نوع الثروات التي كان يمتلكها عرب تلك المنطقة آنذاك ، سواء كانت حيوانية (جمال ، بغال ، بهائم ، أغنام ، طيور) أو غيرها (ذهب ، فضة ، حديد ، رصاص ، عاج)[1].

وأيضاً يمكن أن نعرف من خلال هذه الكتابات أن عرب المنطقة خلال هذه الفترة ، كانوا ينقسمون إلى عرب مستقرين في المدن ، وقبائل بدوية مترحلة ، وأن هذه القبائل كانت تحظى بحق الرعي في بعض الأراضي الآشورية ، خصوصاً عندما يحل الجدب في أراضي العرب[2] .

ب ـ كتابات العصر البابلي الحديث (الكلداني) :

سقطت الدولة الآشورية عام (٦١٢ ق . م) ، وقامت على إثرها الدولة البابلية الحديثة (الكلدية / الكلدانية) ، وقد أتاح سقوط الدولة الآشورية فرصة ذهبية أمام عدد من القبائل العربية ، للسيطرة على عدد من المواقع الحيوية ، على الطريق التجارية التي كانت تربط بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها[3] .

وتواصل الكتابات المسمارية حديثها عن الحملات التي شنها الملك الكلداني نبوخذ نصر (بخت نصر عند العرب) نحو بلاد العرب ، بل إن آخر ملوك الكلدانيين (نبونئيد) قد نقل مقر حكمه إلى مدينة تيماء في بلاد العرب عام (٥٤٩ ق . م) وأقام

---

(١) عن هذه الثروات ، انظر : إسماعيل ، العلاقات ، ص١٣١ – ١٣٣ .

(٢) المرجع نفسه ، ص١٣٥ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) يحيى . العرب في العصور القديمة ، ص٤١٤ ، ٤١٥ .

فيها نحو عشر سنوات قبل أن يعود إلى بابل عام (٥٣٩ ق . م) وهي السنة التي سقطت فيها بابل في أيدي الفرس الأخمينيين . ويفهم من نقوش نبونئيد هذا أن سلطته قد امتدت لتشمل العديد من المدن والواحات الواقعة إلى جنوب تيماء ، بما فيها مدينة يثرب ، التي شكلت آخر عمق وصل إليه ملوك دول بلاد الرافدين في جزيرة العرب[1] .

ثالثاً : المؤلفات الكلاسيكية والسريانية :

أ ـ المؤلفات الكلاسيكية :

نقصد بالمؤلفات الكلاسيكية ، مؤلفات الكتاب اليونان والرومان ، الذين امتدت كتاباتهم ــ عن بلاد العرب ــ خلال العصر اليوناني المبكر ، وامتداده الطبيعي المعروف بالعصر المتأغرق (الهلنستي) . ثم انتقلت لتشمل العصر الروماني بمرحلتيه اللاتينية والبيزنطية .

وبالرغم من الأخطاء التي وردت في هذه المؤلفات ، إلاّ أنها تمدنا بمعلومات جغرافية وتاريخية عن بلاد العرب لم تعرف إلاّ منها . وقد استقى كتاب هذه المؤلفات معلوماتهم تلك، من رجال الحملات اليونانية والرومانية ، التي حاولت الاستيلاء على بلاد العرب ، وأيضاً من السياح والتجار والملاحين ، الذين جابوا هذه البلاد ، إلى جانب المشاهدات الشخصية لبعضهم . وقد تحدثت هذه المؤلفات عن وجود علاقات قديمة بين بلاد العرب

(١) يحيى . العرب في العصور القديمة ، ص٤١٧ .

وبلاد اليونان والرومان والفرس ، وتحدثت كذلك عن تسرب المسيحية إلى شبه جزيرة العرب[1] .

أما أشهر كتاب تلك المؤلفات فهم : (هيرودوت) الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، والذي استحق لقب (أبو التاريخ) عن جدارة ، وكذلك (ثيوفراست) الذي عاش في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، وألف كتاباً عن النبات ، ذكر فيه اللبان والبخور العربي . ثم الجغرافي (إسترابون) الذي أفرد فصلاً خاصاً لبلاد العرب في كتابه الذي يتحدث عن الجغرافيا ، وأشار فيه إلى مدن العرب وقبائلهم ، ووصف أحوالهم الاجتماعية والتجارية ، وتحدث كذلك عن الحملة الرومانية على جنوب الجزيرة العربية (اليمن) عام (٢٤ ق . م) والتي كان مشتركاً فيها . وكذلك الجغرافي المشهور (بطليميوس) الذي عاش في الاسكندرية في القرن الثاني الميلادي ، وتكلم عن المدن والقبائل العربية وأحوالها[2] .

أما مؤلفات المرحلة البيزنطية المسيحية ، فأهميتها ترجع إلى كونها قد أرخت لانتشار المسيحية في بلاد العرب ، ولأحوال القبائل العربية نفسها ، فضلاً عن علاقة العرب بالفرس والبيزنطيين ، كما أنها تربط الأحداث التي ذكرتها عن بلاد العرب بالمجامع الكنسية وبتاريخ القديسين ، ومن ثم فقد حصلنا على تواريخ ثابتة ، الأمر الذي افتقدناه ـــ بدرجة كبيرة ـــ

---

(١) برو . توفيق . تاريخ العرب القديم ، دمشق ، ١٩٨٢م ، ص١٨ .

(٢) هبو . تاريخ العرب قبل الإسلام ، دمشق ، ١٩٩٠م ، ص٢٢ ، ٢٣ .

في المصادر الكلاسيكية السابقة . على أنه من الضروري ملاحظة أن هذه المؤلفات دينية أكثر منها تاريخية ، ومن هنا فقد غلبت عليها الصبغة النصرانية[1] .

ولعل أشهر كتاب هذه الفترة هو (يوسبيوس) الذي ساعدته صلاته بالامبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م) وبكبار رجال الدولة ، إلى أن يعرف الكثير من الأسرار التي أفاد منها في مؤلفاته التاريخية .

وكذلك (برو كوبيوس) (٥٢٧-٥٦٥م) الذي استقى أغلب معلوماته من مشاهداته الخاصة ، وقد تحدث في كتابه " تاريخ الحروب " عن المعارك التي دارت بين الغساسنة والمناذرة ، وعن الغزو الحبشي لليمن عام (٥٢٥م)[2] .

ب ـ المؤلفات السريانية :

تتمثل المؤلفات السريانية في تلك الكتب التي ألفت باللغة السريانية . واللغة السريانية هي لهجة من اللغة الأرامية ، وهي أهم اللهجات الأرامية على الاطلاق . والسريان اسم أطلقه اليونان على متكلمي هذه اللغة ، الذين كانوا يسمون أنفسهم أراميين ، ولكنهم ما لبثوا أن تخلوا عن هذه التسمية ، واتخذوا (السريان) اسماً لهم ، وذلك بعد أن تنصروا ، ونبذوا الوثنية ، فصارت هذه التسمية اسماً للأراميين المسيحيين وحدهم[3] .

---

(1) علي . جواد . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج١ ، بيروت ـ بغداد ، ١٩٧٦م ، ص٤١٧ .

(2) مهران . محمد بيومي ، دراسات في تاريخ العرب القديم ، الاسكندرية ، ١٩٨٠م ، ص٣٦ ، ٣٧ .

(3) هبو . اللغة السريانية ، ص٣٧ .

وتمتاز المؤلفات السريانية ــ التي تذكر أخبار العرب قبل الإسلام ــ بأنها تستقي مادتها من روايات متواترة بواسطة السماع ، وهي ضاربة بجذورها في أعماق الوسط العربي . وقد حفظت لنا هذه المؤلفات كثيراً من الحقائق عن تاريخ العرب قبل الإسلام ، وقدمت لنا مادة تسمح بإعطاء فكرة واضحة عن أسس الحياة الاجتماعية والاقتصادية للعرب ، وذلك لمعرفة مؤلفيها الوثيقة بالعرب وبأحوالهم[١] .

ويأتي (شمعون الأرشامي) في مقدمة الكتاب السريان هنا ، وهو صاحب رسائل الشهداء الحميريين . وكذلك (يوشع العمودي) الذي قدم لنا ملاحظات عديدة ، وتفاصيل غير مباشرة عن اللخميين .

ثم (زكريا الملطي) الذي تنتشر أخبار العرب في جميع زوايا كتابه . وأخيراً (يوحنا الأفسوسي) الذي ترد في مؤلفاته أخبار الدولة الغسانية في حقبتها الأخيرة[٢] .

---

[١] خربوطلي . شكران ، تاريخ الوطن العربي القديم ، دمشق ، ٢٠٠٣م ، ص٣٦ ، ٣٩ .
[٢] المرجع نفسه ، ص٣٧ ، ٣٨ .

رابعاً : الكتب الدينيـــة :

أ – التوراة والتلمود :

التوراة كلمة عبرية ، تعني الهداية والارشاد ، ويقصد بها الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم (التكوين ، الخروج ، اللاويين ، العدد ، التثنية) ، والتي تنسب إلى موســى ﷺ ، وهي جزء من العهد القديم ، الذي يطلق عليه تجاوزاً اسم (التوراة) من باب اطلاق الجزء على الكل ، ولأهمية التوراة ونسبتها إلى موسى . وتضم التوراة أو العهد القديم عقائد اليهود وشرائعهم ، وكذلك تاريخهم وتاريخ الشعوب المجاورة لهم[1] .

أما التلمود فهو عبارة عن تكملة للتوراة ، ويشمل مجموعة الأحكــام والشــروح والروايات المتصلة بها ، والتي تواترت شفاهاً ــ لبعض الوقت ــ قبل أن يدونها بعض أحبار اليهود في فترة لاحقة[2] .

وتتمثل قيمة التوراة والتلمود بصفتهما مصدراً من مصادر تــاريخ العــرب قبــل الإسلام ، في كونهما يتحدثان عن علاقة العبرانيين بالعرب ، إلى جانب معاصرتهما لأحداث هذه الفترة . وتجدر الإشارة هنا إلى أننا يجب أن ندخل في اعتبارنا الرواية الشفهية التي مرت بها أحكام التلمود ، وبعض أسفار التوراة ، وذلك قبل أن نعتمد على ما جــاء بهمــا مــن أخبار[3].

---

(1) مهران ، دراسات في تاريخ العرب ، ص٢٩ .

(2) يحيى ، العرب في العصور القديمة ، ص١٨٢ .

(3) المرجع نفسه ، ص١٨٢ ، ١٨٣ .

وأخيراً فإن كلمة " العرب " في التوراة (العهد القديم) ، وفي التلمود ، إنما تعني البدو أو عرب الصحراء أساساً ، أما السكان الحضر في شبه جزيرة العرب ، فإن هذين المصدرين يشيران إليهما بأسماء مناطقهما ، كأن يقال " أهل سبأ " و " سكان أرض تيماء " ... الخ .

ب ـ القرآن الكريم :

القرآن الكريم ، هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولا يرقى الشك إليه ، ولم يتعرض لأي تحريف أو تبديل على مر العصور ، كالتحريف والتبديل الذي أصاب الكتب السماوية السابقة له ، وذلك لأن الله ﷻ قد تكفل بحفظه : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر / ٩](١).

وقد يعترض البعض على إدخال القرآن الكريم مصدراً من مصادر التاريخ على أساس أن ما يرويه من أحداث ومواقف تاريخية ليس الهدف منها تسجيل تاريخ المجتمعات القديمة في حد ذاتها ، وإنما الهدف منها هو إرساء القيم الروحية التي تربط الإنسان بخالقه ، ومن ثم فإن الأحداث التي يرويها لا تعدو أن تكون أمثلة ، هدفها الحقيقي هو إظهار العظة والعبرة ، إلى جانب أن الإشارات التاريخية التي وردت فيه ، إنما جاءت مقتضبة وعابرة ، وجاء تصويرها بشكل يمتزج فيه تسجيل الحدث أو الموقف بالعرض الوجداني له(٢).

(١) مهران ، دراسات في تاريخ العرب ، ص٣٨ ، ٣٩ .

(٢) مثلاً : الشيبه . عبد الله حسن ، محاضرات في تاريخ العرب القديم ، صنعاء ، ١٩٩٢م ، ص٨ .

ورداً على هؤلاء نقول بأن الإشارات المقتضبة أو العابرة ــ التي وردت في القــرآن الكريم ــ إلى بعض الأحداث أو المواقف ، لا ينقص من قيمتها في شيء ، فالمصادر جميعهــا وحدة متكاملة ، تتساند فيما بينها لاستكمال الحقيقة التاريخية . إلى جانب ذلك فإن القرآن الكريم يشير إلى عدد من الأحداث والمواقف الخاصة بمجتمع الجزيرة العربية ، سواء تلــك المعاصرة لنزوله ، أو التي سبقت ذلك بوقت قصير أو طويل ، وكانت لا تزال موجــودة في وعي سكان الجزيرة العربية بدرجات متفاوتة . كذلك فإن القرآن الكريم في محاولته تصحيح عدد من الأوضاع والممارسات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي عند نزولــه ، يعطينــا فكرة واضحة عن هذه الأوضاع والممارسات ، وعن الدوافع التي أدت بهــذا المجتمــع إلى اتخاذها طريقاً ، والتمسك بها أو المجادلة عنها ، والتعنت في سبيل المحافظة عليها ، ومــن ثم يحصل الباحث على صورة تاريخية حية للصراع الذي شهده هذا المجتمع في نهايــة العصــر الجاهلي ، بين أسلوبين للحياة ، أحدهما هو ما كان سائداً ، والآخر هو ما كانت الــدعوة الإسلامية بسبيل تقديمه[1] .

أما الأمثلة على الإشارات التاريخية التي وردت في القرآن الكريم عن تاريخ العــرب قبل الإسلام فهي كثيرة ، ولعل أبرزها هي تلك الإشارات إلى دولة سبأ ، وأهلها الأثرياء ، وإلى سدهم وملكتهم ، إلى جانب الحديث عن قوم تبع ، وعن قصة أصحاب الأخدود . يأتي إلى جانب ذلك الإشارات إلى الأقوام العربية التي كذبت الأنبياء والرسل مثل عــاد قــوم هود ، وثمود قوم صالح ، ومدين قوم شعيب . وأيضاً الحديث عن بناء الكعبة وفريضة الحج المرتبطة بها ، وبالتالي الحديث عن حياة الشرك ، التي كان يعيشها عرب الجزيرة قبل ظهور

(1) يحيى .العرب في العصور القديمة ، ص١٦٠ ، ١٦١ .

الإسلام ، بأصنامها المتعددة التي ذكرها القرآن الكريم ، سواء التي كانت في مكة ، أو التي كانت خارجها ، مع الحديث عن أحوال مكة وتعرضها لحملة أصحاب الفيل ، وكذلك الحديث عن الوضع التجاري لقريش وإيلافها الشهير . ولا ننسى تلك الإشارات المتفرقة إلى حياة أعراب الجزيرة بطبيعتهم الجلفة القاسية الجامدة[1].

ولا يقتصر القرآن الكريم على هذه الجوانب السابقة ، وإنما يتجاوزها ليعطي لنا فكرة محددة عن المنطقة ، فيما يتعلق بعدد من الجوانب ؛ فالكتابة معروفة ، وكذلك القلم والصحف والورق الذي يكتب عليه ، كذلك فإن مجتمع شبه الجزيرة العربية لا يجهل عدداً من جوانب اللهو ؛ كالصيد واستخدام الخيل لأغراض الزينة التي قد تشير إلى السباق وبعض الألعاب الأخرى .

ج ـ الكتب المرتبطة بالقرآن :

١) كتب الحديث الشريف :

يأتي الحديث الشريف في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم ، ويُعد مصدراً هاماً من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام ؛ لأن الأحاديث النبوية الشريفة كثيراً ما تتعرض لما كان قائماً في الجاهلية ، من حياة دينية واجتماعية واقتصادية ، فتصفها لنا وتكشف مكنونها ، وتطلعنا ولو بشكل غير مباشر على بعض جوانبها . وعلى الرغم من أن تدوينه لم يبدأ إلاّ في

[1] لتفاصيل أكثر عن هذه المواضيع يمكن العودة إلى : مهران . دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ج١ ، بلاد العرب ، الاسكندرية ، ١٩٩٥م .

أواخر القرن الثاني الهجري ، إلاّ أنه يمثل أقدم الروايات الشفهية وأدقها لاعتماده على الاسناد[1].

٢) كتب التفسير :

نشأ علم التفسير لفهم القرآن الكريم وتدبره ، ولتبيان ما أوجز فيه ، أو ما أشير إليه إشارات غامضة . وتحتوي كتب التفسير على ثروة تاريخية قيمة ، تفيد المؤرخ في تدوين التاريخ العربي القديم[٢] فهي تفصل في شرح القصص التاريخية التي ذكرت في القرآن الكريم ، والتي أشرنا إليها عند الحديث عن القرآن الكريم ، وإن كنا ننبه هنا إلى إن كثيراً من كتب التفسير قد احتوت على كثير من الأوهام، التي نقلها مؤلفيها عن (الإسرائيليات) وقد نبهت بعض الكتب إلى مثل تلك الأوهام[٣] .

خامساً : كتب أهل الأخبار (المصادر العربية) :

قبل الحديث عن هذه الكتب ، علينا أن ننبه أن هناك صعوبات عدة تعترض الباحث في حال اعتماد هذه الكتب مصدراً لتاريخ العرب قبل الإسلام . وأول هذه الصعوبات هي عدم معاصرة أصحاب هذه الكتب لما كانوا يكتبون عنه ، خصوصاً أنهم لم يقتصروا على التأريخ للعرب منذ ظهورهم على مسرح الأحداث التاريخية ، بل تخطوا ذلك ليتحدثوا عن العرب منذ عهد سام بن نوح ، أي أنهم دفعوا بالحديث في أغوار الماضي إلى عهود لا

(١) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٤٥ .

(٢) مهران . تاريخ العرب القديم ، ص٤٣ ، ٤٤ .

(٣) انظر مثلاً: الذهبي ، الإسرائيليات في التفسير والحديث – ابو شهبة ، الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير.

يعرفون في الحقيقة شيئاً عنها . أما ثاني هذه الصعوبات فتتمثل في المصادر التي اعتمدوا عليها ، فهم إما لا يذكرونها على الاطلاق ، أو أنهم يذكرون بعض المصادر الفارسية والبيزطنية ، ولكن في مجال الحديث عن ملوك الفرس والبيزنطيين ، وليس عن أحوال بلاد العرب ، أو أن يتخذوا من الإخباريين السابقين لهم مصدراً لهم ، وهؤلاء لم يعاصروا ما كتبوا عنه[1] .

وتأسيساً على ذلك فإن المصادر العربية رغم أنها تعد المصدر الأول والأساسي للتاريخ الإسلامي ، إلاَّ أنها تفقد في عمومها القيمة التاريخية اللازمة للاعتماد عليها مصدراً من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام ، وإن كان هناك استثناءات لهذا التعميم[2] .

أ- كتب السيرة والمغازي :

السيرة اصطلاح لعلم نشأ جنباً إلى جنب مع علم الحديث ، ويتناول وصف حياة الرسول ﷺ منذ ولادته وحتى وفاته ، وما يتصل بها من أخبار الجاهلية القريبة من الإسلام . أما المغازي فمهمتها الحديث عن غزوات الرسول ﷺ وحروبه . وقد أصبح التعبيران بعد ذلك يدلان على شيء واحد ، إذ أن كل واحد منهما يتداخل في موضوعات الثاني ، فأصبح يقال السيرة أو المغازي[3].

---

(1) يحيى . العرب في العصور القديمة ، ص٢٢٩-٢٣١ .

(2) المرجع نفسه ، ص٢٣٥-٢٣٧ .

(3) هبو ، العرب قبل الإسلام ، ص٤٥ ، ٤٦ .

ب . كتب الشعر و اللغة :

يُعد الشعر العربي الجاهلي من المصادر الهامة لتاريخ العرب وحضارتهم قبل الإسلام ، فهو يصور لنا كثيراً من أحوالهم الاجتماعية والدينية والاقتصادية ، كما أنه يصور لنا طباع العرب وأخلاقهم وعاداتهم ودياناتهم وعقليتهم وأنسابهم ، وفيه ذكر لأيام العرب ووقائعهم الحربية[1]. ويندرج ضمن كتب الشعر تلك الكتب التي وضعت ترجمات للشعراء العرب ، وأشهرها كتاب الأغاني للأصفهاني ، الذي احتوى على خمسمائة ترجمة لشعراء جاهليين[2].

أما كتب اللغة فهي مصدراً من مصادر تاريخ العرب قبل الإسلام ، لأن اللغة العربية هي من نتاج ذلك العصر ، فمفرداتها لا تزال تدل على أوجه الحياة والحضارة العربية القديمة . هذا فضلاً عن أن القاموس العربي يحوي إلى جانب المفردات اللغوية مفردات تدل على المعارف الجغرافية والتاريخية والعلمية والفنية ، ومن ثم فقد كانت كتب اللغة ــ ومعاجمها بصفة خاصة ــ مصادر مهمة للحياة العربية قبل الإسلام[3].

ج . كتب التاريخ والجغرافيا :

تجدر الإشارة هنا إلى أن التنبيه الذي أشرنا إليه في مطلع حديثنا عن كتب أهل الأخبار ، ينطبق على هذا النوع من الكتب أكثر من غيرها ، والتاريخية منها على وجه الخصوص ، وذلك لا يعني عدم الاعتماد على هذه الكتب ، بقدر ما يعني غربلتها ، وتحديد

(1) سالم . السيد عبد العزيز ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، الاسكندرية (د . ت) ، ص٣٨ .

(2) خربوطلي . تاريخ الوطن العربي ، ص٣٥ .

(3) مهران . تاريخ العرب القديم ، ص٥٢ ، ٥٣ .

الصحيح فيها ، بالمقارنة مع ما جاء في المصادر التاريخية الأخرى ، خصوصاً الآثار والكتابات القديمة ، التي ما فتئ المنقبون الأثاريون يكشفون عنها بين الفينة والأخرى .

وتتمثل أهم الكتب التاريخية التي تندرج ضمن هذا المجال في الكتب التالية : كتاب (أخبار اليمن) لعبيد بن شريه الجرهمي ، وكتاب (التيجان في ملوك حمير) لوهب بن منبه ، وكتاب (الاكليل) للحسن الهمداني ، وكتاب (سني ملوك الأرض والأنبياء) لحمزة الأصفهاني ، وكتاب (ملوك حمير وأقيال اليمن) لنشوان الحميري ، وكتاب (الأخبار الطوال) للدينوري ، وكتاب (التاريخ الكبير) لليعقوبي ، وكتاب (تاريخ الرسل و الملوك) للطبري ، وكتاب (مروج الذهب) للمسعودي ، وكتاب (الكامل في التاريخ) لابن الأثير ، وكتاب (العبر) لابن خلدون .

أما الكتب الجغرافية فيأتي في مقدمتها كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني ، وكتاب (معجم ما استعجم) للبكري ، وكتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي .

الفصل الثاني

جغرافية الجزيرة العربية

أولاً : موقع الجزيرة العربية وحدودها :

تقع الجزيرة العربية في الركن الجنوبي الغربي لقارة آسيا ، على خط العرض الصحراوي ، ويعتبر وسطها (الربع الخالي) امتداداً للحزام الصحراوي المقابل في القارة الافريقية . ويحدها من الغرب البحر الأحمر (القلزم) ، ومن الشرق الخليج العربي (الفارسي) ، وخليج عُمان ، ومن الجنوب المحيط الهندي (بحر العرب) . أما الحد الشمالي فهو يتغير مع مرور الزمن ، وما يستجد من أحداث .

ونظراً لذلك التغير في الحد الشمالي ، فقد اختلف الدارسون ــ قديماً وحديثاً ــ حول تعيين ذلك الحد بدقة . فاليونان والرومان أطلقوا اسم العربية على كل بلاد العرب ، التي تشمل الجزيرة العربية وبادية الشام ، بل وأدخلوا فيها الأراضي الواقعة إلى الشرق من نهر النيل ، حيث أطلقوا اسم العربية على المنطقة التي يعتقدون أن البداوة هي الغالبة

عليها[١]. أي أننا نستطيع القول إن اليونان والرومان قد جعلوا الحد الشمالي لمنطقة العربية ينتهي حيث تبدأ المناطق الحضرية في سوريا وبلاد الرافدين .

أما المصادر العربية ، فقد أطلقت على بلاد العرب اسم الجزيرة العربيـــة . حيـــث وصفتها بالجزيرة ، على الرغم من كونها شبه جزيرة على اعتبار أن نهر الفرات يحدها مـــن الشمال . وقد أسمتها بالعربية نظراً لأن اللسان العربي ينتشر فيها[٢].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العرب قد اعتادوا تسمية أشباه الجزر بالجزر ، مثل جزيرة الأندلس (إيبيريا) ، والجزيرة الفراتية (أقور)[٣]. وهناك من يقول بأن العرب قد أصابوا في تسمية بلادهم بالجزيرة ، نظراً لأن المياه تحيط بها من ثلاث جهات ، وتحيط بها الرمال من جهتها الرابعة[٤] .

وقد اختلف الدارسون المحدثون في تحديد مصطلح الجزيرة العربية ، والمنـــاطق الـــتي يشملها ، وحدها الشمالي . فبعضهم عد أن بادية الشام لا تدخل ضمن مســـمى الجزيـــرة العربية ، وأن تسمية بلاد العرب هي التسمية الجامعة للجزيرة العربية ، وبادية الشـــام[٥].

(١) علي . المفصل ، ج١ ، ص٢١ ــ يحيى . لطفي . الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج١ ، الرياض ، ١٣٩٩هـ ، ص٥٦ .

(٢) الهمداني . صفة جزيرة العرب ، صنعاء ، ١٩٩٠م ، ص٣٩ ، ٨٤ .

(٣) سالم . العرب قبل الإسلام ، ص٣٥ .

(٤) حتي . فيليب . تاريخ العرب ، بيروت ، ١٩٧٤م ، ص٣٥ .

(٥) علي . المفصل ، ج١ ، ص٢١ .

بينما اقتصر مصطلح بلاد العرب لدى الآخرين على شمال الجزيرة فقط ، أي أن اليمن ليست من بلاد العرب لديهم[1] .

ويقدم لنا أحد الجغرافيين المحدثين[2] عرضاً للحدود الشمالية لجزيرة العرب حيث يذكر أن هذه الحدود تختلف وفقاً للأساس الذي يُتخذ في تحديدها . فهناك حدود طبيعية ، وحدود صحراوية ، وحدود تاريخية ، وحدود سياسية .

وتتمثل الحدود الطبيعية عنده بجبال زاجروس في الشمال الشرقي ، إلى جانب السفوح الجنوبية لهضبة كردستان والأناضول في الشمال ، ويذكر أنه في إطار هذه الحدود تنتشر القبائل العربية ذات الثقافة السامية منذ أقدم العصور .

وعلى أساس أن كلمة العرب لفظ سامي معناه ساكن البادية ، يذكر المؤلف أن الحدود الصحراوية للجزيرة العربية تمتد شمالاً لتنتظم كل المناطق الصحراوية المحاذية لها ، الواقعة إلى الجنوب من بلاد الشام والعراق .

أما الحدود التاريخية فإنه ينقل عن قدماء الجغرافيين العرب ما ذكرناه عنهم . ويرى أن هذه الحدود لا تختلف كثيراً مع الحدود الطبيعية ، لأن الجغرافيين العرب قد أدركوا الصورة الصحيحة لجزيرة العرب ، ومدى امتدادها .

(1) وافي . علي عبد الواحد . فقه اللغة ، القاهرة ، ١٩٧٢م ، ص١٢٨ .

(2) أبو العلاء . محمود طه ، جغرافية شبه الجزيرة العربية ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٧٣م ، ص٧-١١ .

وفي الأخير يشير إلى أن الحدود السياسية الشمالية المعاصرة للجزيرة العربية ، تتمثل بخط الحدود الفاصل بين الكويت والسعودية من جهة ، وبين العراق والأردن من جهة أخرى .

وهكذا نرى أن الاختلاف واضح بين الدارسين القدماء والمحدثين حول تحديد الحد الشمالي للجزيرة العربية ، فبعضهم يُدخل العراق وسوريا (الشام) في إطار الجزيرة العربية ، وبعضهم يخرجهما من حدود الجزيرة ، ولا يبقى إلاَّ البوادي التابعة لهما ، ثم يأتي من يُخرج تلك البوادي من الجزيرة ، ولا يبقى إلاَّ على الأرض الواقعة إلى جنوب تلك البادية ، والتي تمتد بين الخليج العربي (الفارسي) شرقاً ، والبحر الأحمر (القلزم) غرباً .

وإزاء تلك الاختلافات ، فإن الباحث سوف يعتد خلال بحثه هذا بالتعريف العام الذي يعد الجزيرة العربية بأنها الأرض التي عاشت فيها ـــ قبل الإسلام ـــ تلك الأقوام التي وصفت نفسها أو وُصِفَت ـــ فيما بعد ـــ بأنها عربية . والتي يعد من ضمنها الأنباط ، والتدمريون ، والحضر ، ثم المناذرة والغساسنة ، إلى جانب قبائل وشعوب وسط الجزيرة العربية وجنوبها . إذ من المتعارف عليه بين المؤرخين المحدثين أن تاريخ العرب قبل الإسلام يشمل تلك المنطقة وسكانها .

أي أن الحد الشمالي للجزيرة العربية ـــ بموجب ذلك ـــ سوف يمر في الأطراف الشمالية للبوادي العربية ، محاذياً للمناطق الحضرية في سوريا وبلاد الرافدين ، وذلك يتفق ـــ إلى حد كبير ـــ مع الحدود التي وضعها الجغرافيون العرب لجزيرتهم بما فيها بوادي الشام والعراق .

ثانياً : الجغرافيا التاريخية للجزيرة العربية :

تباينت الآراء حول تقسيم الجزيرة العربية من عصر إلى آخر . فبالنسبة للجغرافيين اليونان والرومان ، تُعد الدراسة التي قام بها كلاوديوس بطليميوس ــ الذي عرفه العرب باسم بطليميوس القلوذي ــ أهم الدراسات اليونانية والرومانية حول الموضوع . ففي الدراسة التي قدمها تحت اسم الدليل الجغرافي ، نجد أول محاولة لضبط الحدود والتقسيمات والأماكن عن طريق خطوط الطول والعرض ، رغم ما شابها من خطأ وتحريف على يد النساخ المتعاقبين[١].

وقد قسم بطليميوس الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام هي : العربية الصحراوية ، والعربية الصخرية أو الحجرية ، والعربية الميمونة أو السعيدة .

وهذا التقسيم يتفق مع الوضع السياسي في المنطقة ، إبان القرن الثاني الميلادي الذي عاش فيه بطليميوس ، فالقسم الأول كان تابعاً ــ إلى حد ما ــ للسيادة الفارسية ، وكان الثاني خاضعاً للدولة الرومانية ، بينما كان القسم الأخير مستقلاً . وقد اشتملت العربية الصحراوية على بادية الشام (السماوة والحماد) ، بينما اشتملت العربية الصخرية على سيناء وبلاد الأنباط ، أما العربية السعيدة فقد اشتملت على بقية أراضي الجزيرة العربية[٢] حيث تمتد حدودها الشمالية من رأس خليج العقبة غرباً إلى رأس الخليج العربي (الفارسي) شرقاً ، مخترقة صحراء النفود التي تقع على مشارف الحدود الجنوبية لكل من العربية

---

(١) الشيبه . تاريخ العرب القديم ، ص١٩ .

(٢) Sprenger . Die Alj Geographie Arabiens, Amsterdam, 1865, P8 .

الصحراوية والعربية الصخرية . وتصل حدود العربية السعيدة جنوباً إلى البحـر العـربي ، حيث تشمل بذلك معظم جزيرة العرب[١] .

ذلك تقسيم الجزيرة العربية عند الجغرافيين اليونان والرومان ، أما تقسيمها عند الجغرافيين العرب ، فنجد أن بعضهم قد قصر الجزيرة العربية على القسم الذي سماه اليونان والرومان بالعربية السعيدة . فالهمداني[٢] وعلى الرغم من أنه يجعل حد الجزيرة الشمالي عند نهر الفرات ، إلاّ أنه عند تقسيمه لمناطق الجزيرة ، يذكر لنا أنها تنقسم إلى خمسة أقاسم هي : (تهامة ، والحجاز ، ونجد ، والعروض ، واليمن) ويجعل الحدود الشمالية لهذه المناطق تنتهي عند الأطراف الجنوبية لبوادي الشام والعراق ، أي أنه لا يعد تلك البـوادي مـن ضـمن الجزيرة العربية ، رغم أنها تدخل فيها بموجب تحديده السابق لأراضي الجزيرة .

بينما نجد البعض الآخر ، قد التزم عند تقسيمه للجزيرة العربية بالمصطلح الأوسـع المطابق ــ بشكل كبير ــ لمنطقة العربية عند اليونان والرومان . حيث نجد الأصـطخري[٣] مثلاً ، يعد بادية الشام ، وبادية العراق ، وبادية الجزيرة الفراتية ، من ضمن مناطق الجزيرة العربية . وذلك يعني أننا نستطيع أن نضيف قسماً سادساً إلى الأقسام الخمسة السابقة التي

---

(١) نامي . خليل يحيى . العرب قبل الإسلام ، القاهرة ، ١٩٨٦م ، ص١٠ .

(٢) الهمداني ، الصفة ، ص٨٤ ، ٨٥ .

(٣) الأصطخري . مسالك الممالك ، ليدن ، ١٩٦٧م ، ص١٤ ، ١٥ .

ذكرها الهمداني ، يمكن تسميته ببادية الشام على أساس أن هذا الاسم يمثل اسماً جامعاً لبوادي الشام والعراق الواقعة شمال الجزيرة العربية[1].

والملاحظ أن الحدود بين هذه المناطق كانت غير واضحة المعالم تماماً ، حيث نرى أن هناك بعض الاختلافات في تحديد حدودها من مؤلف إلى آخر . فنرى على سبيل المثال أن هناك من يعد المدينة (يثرب) نجدية[2]، ومكة تهامية أو يمانية[3] . على الرغم من كون المدينتين أهم مدن الحجاز ، وكذلك قول البعض[4] أن اليمامة جزء من نجد ، مما يجعل البحرين منطقة منفصلة عنها ، على الرغم من أنهما يشكلان معاً منطقة العروض ، إلى جانب ذلك فهم يختلفون في تحديد الحدود الفاصلة بين اليمن وباقي مناطق الجزيرة ، حيث تراوح ذلك الاختلاف في المساحة الممتدة بين مكة شمالاً ، ونجران جنوباً . أي أنه قد شمل ـــ تقريباً ـــ كل منطقة عسير بمفهومها الواسع .

---

(1) حول شمول تسمية بادية الشام لكل هذه البوادي ، انظر : بروكلمان . تاريخ الشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ص١٣ .

(2) الأصطخري . مسالك الممالك ، ص١٥ .

(3) ابن المجاور ، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ، ليدن ، ١٩٥٤م ، ص٣٩ .

(4) الحموي . ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧م ، باب اليمامة .

ثالثاً : تضاريس الجزيرة العربية :

تنقسم الجزيرة العربية من الناحية الجغرافية إلى عدة أقسام تضاريسية هي :

أ. المرتفعات والسهول الساحلية :

تُعد المرتفعات الغربية هي أهم مرتفعات الجزيرة العربية ، وهي بمثابة العمود الفقري للجزيرة كلها . وتعرف هذه المرتفعات بصفة عامة باسم السراة ، ويعرف كل قسم منها باسم خاص به ، فهي من الشمال إلى الجنوب : (مرتفعات مدين ، ومرتفعات الحجاز ، ومرتفعات عسير ، ومرتفعات اليمن) . ويتميز القسم الجنوبي من هذه المرتفعات (اليمن وعسير) بهطول الأمطار الصيفية الغزيرة ، التي تحملها الرياح الموسمية القادمة من المحيط الهندي[1].

وتنتهي جبال السراة في جهتها الغربية المطلة على البحر الأحمر بسهل تهامة الساحلي ، الذي يمتد من رأس خليج العقبة شمالاً ، حتى مضيق باب المندب جنوباً . وتنسب أقسام سهل تهامة إلى أقسام سلسلة جبال السراة المحاذية لها من الشرق ، فنقول مثلاً : تهامة الحجاز ، وتهامة اليمن ، ويضيق هذا السهل الساحلي في الشمال حيث تقترب جبال مدين من البحر ولا تترك إلاّ شريطاً ساحلياً ضيقاً ، بينما يبلغ أقصى اتساع له في المسافة الممتدة بين جدة وجيزان[2].

---

(1) جوده . شبه الجزيرة العربية : دراسة في الجغرافية الاقليمية ، الاسكندرية ، ١٩٩٥م ، ص٤٣ ، ٤٤ .

(2) عبده . طلعت أحمد محمد ، الجغرافيا التاريخية لشبه الجزيرة العربية ،الاسكندرية ، ١٩٨٨م ، ص٨٨ ، ٨٩ .

وفي اليمن ــ الطرف الجنوبي لمرتفعات السراة ــ يتحول اتجاه المرتفعات الساحلية نحو الشرق إلى حضرموت وظفار ، بموازاة الساحل الجنوبي للجزيرة العربية ، الذي يفصل بينها وبين البحر العربي[1]، والذي عُرف تاريخياً باسم يمانة والشحر.

وفي الركن الجنوبي الشرقي للجزيرة العربية تقع مرتفعات عُمان التي تمتد على شكل هضبة موازية لساحل خليج عمان ، ويصل أعلى ارتفاع لها في قمة الجبل الأخضر . ويفصل سهل الباطنة الساحلي هذه المرتفعات عن خليج عمان ، وهو سهل ضيق حيث تطل الجبال في بعض أجزائه على البحر مباشرة في انحدار شديد[2].

تمتد بعد ذلك السواحل الشرقية للجزيرة العربية المطلة على الشاطئ الغربي للخليج العربي ، ويتميز القسم الأول من هذا الساحل ، الممتد من رأس مسندم إلى شبه جزيرة قطر ، بأنه ضيق ، وأرضه مجدبة ، تغطيها الرمال البحرية[3]. أما الجزء الأخير من هذا الساحل ، الممتد من شبه جزيرة قطر حتى مصب شط العرب ، فيتميز بكثرة المياه من الآبار والعيون ، وذلك نتيجة لانحدار هضبة نجد التدريجي نحوه . حيث تنتهي إليه بسبب ذلك الانحدار العديد من الأودية ، الأمر الذي أدى إلى ترسب المياه الجوفية فيه ، وقد عرفت هذه المنطقة لأجل ذلك بالبحرين والأحساء[4].

---

(1) أبو العلاء . جغرافية الجزيرة ، ج١ ، ص٤٢ .

(2) خصباك . شاكر . دولة الإمارات العربية المتحدة : دراسة في الجغرافيا الاجتماعية ، بغداد ، ١٩٧٧م ، ص١١-١٤ ــ أبو العلاء . جغرافية الجزيرة ، ج١ ص٤٢ ، ٤٤ .

(3) خصباك . دولة الإمارات ، ص١١ .

(4) بافقيه . في العربية السعيدة ، ج١ ، صنعاء ، ١٩٨٧م ، ص١٦ ، ١٧ .

ب ـ الهضاب والصحارى الداخلية :

تتوسط هضبة نجد الجزيرة العربية . وتمتد هذه الهضبة من مرتفعات السراة غرباً ، حتى صحراء الدهناء شرقاً ، ومن النفود شمالاً ، حتى الربع الخالي جنوباً ، ويبلغ أقصى ارتفاع للهضبة في الغرب ، ويقل ارتفاعها كلما اتجهنا نحو الشرق ، والشمال الشرقي . وتنقسم هذه الهضبة إلى قسمين هما : سافلة نجد ، وعاليتها . فالسافلة ما والى العراق ، والعالية ما والى الحجاز[1]. وهكذا تبدو لنا هذه الهضبة وكأنها شبه جزيرة في بحر من الرمال الصحراوية .

أما صحارى الجزيرة العربية ، فتتمثل في أربع صحارى رئيسية ، يمكن ترتيبها من الجنوب إلى الشمال ابتداء بصحراء الربع الخالي ، التي تشمل المساحة الرملية الواسعة الممتدة من مرتفعات عمان شرقاً ، إلى سفوح مرتفعات السراة غرباً ، ومن هضبة نجد شمالاً إلى هضبة حضرموت جنوباً ، وتبلغ مساحتها الاجمالية (٦٠٠,٠٠٠كم^{٢}) ، وهي بذلك تعد أضخم مساحة رملية على وجه الأرض[2] .

وإلى الشمال الشرقي من الربع الخالي تقع صحراء الدهناء ، وهي عبارة عن مسطح صحراوي يمتد في هيئة قوس كبير بين الربع الخالي جنوباً ، والنفود شمالاً . وتفصل هذه

(١) الأصفهاني . الحسن . بلاد العرب ، الرياض ، ١٩٦٨م ، ص٣٣٦ ـ الألوسي . تاريخ نجد ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ ، ص٧ .

(٢) أبو العلاء . جغرافية الجزيرة ، ج١ ص٤٥ ـ جوده . شبه الجزيرة العربية ، ص٥٢ .

الصحراء بين سواحل الخليج العربي الشمالية الغربية من جهة وبين هضبة نجد من جهة أخرى[1].

ننتقل بعد ذلك إلى صحراء النفود ، التي تمتد على هيئة مثلث رأسه في الشرق وقاعدته في الغرب عند واحة تيماء ، ويمتد عرضها من جوف وادي السرحان شمالاً ، إلى جبل شمر جنوباً[2].

وتنتهي هذه الصحارى ببادية الشام بمفهومها الواسع الذي يشمل بوادي الشام والعراق ، والتي تعد جزءاً من الجزيرة العربية . وتمتد هذه البادية من مستنقعات دجلة والفرات في الشرق ، حتى المرتفعات السورية الفلسطينية في الغرب . وتقع إلى الشمال من بادية النفود[3].

وبذلك نكون قد أوضحنا ــ باختصار ــ الأقسام التضاريسية للجزيرة العربية ، والتي تتداخل فيما بينها لتشكل في نهاية المطاف وحدة جغرافية واحدة ، حتى وإن أصبحت اليوم تنقسم إلى عدة وحدات سياسية .

---

(1) يحيى . الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ، ص٩٣ ــ شريف . إبراهيم . الموقع الجغرافي للعراق ، ج١ ، بغداد ، (د . ت) ، ص١٨٨ .

(2) أبو العلاء ، جغرافية الجزيرة ، ج١ ، ص٤٤ ــ يحيى . الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ، ص٩٣ .

(3) بروكلمان . تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص١٣ .

الفصل الثالث

الظهور التاريخي للعرب وطبقاتهم

أولاً : ظهور العرب على مسرح التاريخ :

إن أقدم ما نعرفه عن العرب ــ بهذه التسمية ــ هو ما ورد في نقش للملك الآشوري شلمنصر الثالث ، ويرجع تاريخه إلى القرن التاسع قبل الميلاد (حوالي عام ٨٥٣ ق . م) ، حيث يذكر الملك الآشوري أنه تمكن في معركة قرقر (شمال حماه) من هزيمة التجمع الذي كونه ملك دمشق ، وكان جندبو العربي من بين القوى المتحالفة مع ملك دمشق ، حيث كان يتزعم ألف عربي من راكبي الجمال . وتجدر الإشارة إلى أن ذلك لا يمثل بداية ظهور العرب على مسرح الأحداث ، أو وجودهم في المنطقة ، بقدر ما يمثل بداية حضور بعض قبائلهم في الوثائق التاريخية المدونة . أي أن العرب كقبائل وممالك كانوا موجودين في مناطق بلاد العرب من قبل ذلك التاريخ[١].

وقد تعددت بعد ذلك الإشارات إلى العرب في نقوش الملوك الآشوريين : تجلا تبليزر الثالث (٧٤٥-٧٢٧ ق . م) ، وسرجون الثاني (٧٢١-٧٠٥ ق . م) ، وسنحاريب

(١) الراوي . فاروق ناصر ، الوطن العربي في العصور القديمة ، بغداد ، ١٩٨٨م ، ص١٥ .

(٧٠٥-٦٨١ ق . م) ، وأسر حدون (٦٨١-٦٦٩ ق . م) ، وأخيراً آشور ناصر بال (٦٦٨-٦٢٦ ق . م) حيث ذكرت هذه النقوش العديد من الحملات التي شنها هؤلاء الملوك على مناطق البادية العربية ، وكذلك تلقيهم الجزية والهدايا من ملوكها . وقد لفتت هذه النقوش الانتباه بحديثها عن عدد من الملكات العربيات ، مثل زبيبي (زبيبة) ، وشمسي (شمسة) ، وباتعي (باتعة) وتلخنو[١] .

وقد تباينت الآراء حول ما تقصده النصوص المسمارية بتسمية بلاد العرب ، حيث ذكر بعضهم[٢] أن المقصود بالتسمية هي البادية الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات ، والممتدة إلى تخوم الشام . وجاء لدى البعض الآخر[٣] أن مادة عرب تختلط بمادة غرب ، بحيث تدل على الجهة الغربية لأن العرب كانوا يقيمون إلى الغرب والجنوب الغربي من سكان بلاد الرافدين ، الذين سموا تلك المناطق أرض الغرب . لكن هناك من ينفي هذا القول قائلاً أنه من غير المعقول أن يطلق قوم من الأقوام على أنفسهم اسماً يعبر عن موقعهم من غيرهم من الشعوب[٤]. ويذكر آخرون[٥] أن اسم العرب كان في بداية أمره يدل على قبيلة أو مجموعة من القبائل ، ثم توسع مدلوله بمرور الزمن حتى أصبح يطلق على البدو عامة .

وعلى كل حال نستطيع القول أن مدلول العرب لدى الآشوريين وبقية سكان بلاد الرافدين لم يتوسع ليشمل كل سكان الجزيرة العربية ، ولكنه اقتصر على أبناء شمال

---

(١) إسماعيل . العلاقات ، ص١٢٨-١٤٩ .

(٢) علي . المفصل ، ج١ ، ص١٨ .

(٣) هبو . العرب والساميون ، مجلة كلية الآداب ، جامعة صنعاء ، العدد ١٤ ، ١٩٩٣م ، ص٢٦ .

(٤) فخري . أحمد ، اليمن ماضيها وحاضرها ، صنعاء ــ بيروت ، ١٩٨٨م ، ص٥٧ .

(٥) محمد . محمد عبد القادر . الساميون في العصور القديمة ، القاهرة ، ١٩٦٨م ، ص١٧٧ .

الجزيرة ، بدليل أن الآشوريين قد فرقوا بين العرب سكان شمال الجزيرة ، وبين السبئيين سكان جنوبها[١] .

أما بالنسبة للمصريين ، فإن نقوشهم طوال عهد الفراعنة ، وحتى الفتح الفارسي لمصر لم ترد فيها لفظة عرب ، أو أي اسم آخر نستطيع أن نقول عنه أنه أصل لهذه الكلمة أو مشتق منها أو مقابل لها[٢] .

أما العبرانيون فقد ورد في العهد القديم ذكر للعرب ، والأعراب ، وبلاد العرب ، وملوك العرب . وكان المقصود بذلك هو البادية العربية وسكانها[٣].

أما النصوص التاريخية الفارسية فقد ذكرت عربابة وأربابة ، للدلالة على مناطق القسم الشمالي من جزيرة العرب[٤] .

أما اليونان والرومان فإن أول ذكر للعرب لديهم يعود إلى اسيخيلوس (٥٢٥-٤٥٦ ق . م) ، ثم هيرودوت (حوالي ٤٨٤-٤٢٥ ق . م) ، وقد أطلق اليونان والرومان اسم العربية على كل جزيرة العرب ، وصارت كلمة عربي لديهم علماً للشخص المقيم في بلاد العربية من بدو وحضر ، لاعتقادهم أن البداوة كانت هي الغالبة على هذه البلاد[٥] .

---

(١) فخري . اليمن ، ص٥٩ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٥٨ .

(٣) حتي . تاريخ العرب ، ص٧٢ .

(٤) الشيبه . تاريخ العرب القديم ، ص١٠ ، ١١ .

(٥) علي . المفصل ، ج١ ، ص٢١ .

وأخيراً نأتي إلى العرب أنفسهم ، حيث نجد أن لفظي العرب (ع ر ب ن) ، والأعراب (أ ع ر ب ن) قد وردا في النقوش العربية الجنوبية للدلالة على الأعراب (البدو) ، ابتداءً بنقش يعود إلى القرن الأول قبل الميلاد ، ثم جاء ذكرهم في نقش آخر يعود إلى عهد الملك السبئي (نشأ كرب يهأمن بن ذمار على ذرح) الذي حكم خلال القرن الأول الميلادي[1].

وقد توالت بعد ذلك النقوش العربية الجنوبية التي تذكر العرب والأعراب حتى أواخر عصر الحضارة اليمنية القديمة ، وكانوا يذكرون فيها بصفتهم قوات مساعدة أو أعداء . ومع مرور الزمن يظهرون في الألقاب الملكية " ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمانة وأعرابهم في الطود وتهامة " وذلك منذ عهد التبع الحميري أبي كرب أسعد ، المعروف في المصادر العربية باسم أسعد الكامل ، والذي حكم في أواخر القرن الرابع مطلع القرن الخامس الميلادي[2] .

هذا في جنوب الجزيرة ، أما في شمالها ، فقد وردت لفظة عرب في العديد من كتابات الحضر ، وكان المقصود بها الأعراب ، ولم ترد علماً على قوم أو جنس[3]. ولم نجد الكلمة بعد ذلك في شمال الجزيرة إلاّ في نقش النمارة الشهير ، الذي يعود إلى عهد الملك اللخمي امرئ القيس بن عمرو (أوائل القرن الرابع الميلادي) وقد وُصف امرؤ القيس في هذا

(1) روبان ـ كرستيان . انتشار العرب البداة في اليمن ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٢٧ ، ١٩٨٧م ، ص٨٦ .

(2) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٢ وما بعدها .

(3) سفر . الحضر ، ص٢٢ ــ علي . المفصل ، ج١ ، ص٢٢ .

النقش بأنه ملك العرب كلها . ويظهر من النص بوضوح أنه يقصد الأعراب ، أي القبائل التي كانت تقطن بادية شمال الجزيرة العربية ووسطها[1] .

وخلاصة القول أننا لا نستطيع الجزم في تحديد الزمن الذي بدأ فيه العرب أنفسهم ـــ بدوهم وحضرهم ـــ استخدام هذه الكلمة علماً يدل على جنسهم المتميز عن باقي الأجناس . والقرآن الكريم هو أول مصدر ترد فيه لفظة العرب للتعبير عن أبناء الجنس العربي من بدو وحضر ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته . ءأعجميٌّ وعربي ﴾ [فصلت / ٤٤] ، وكذلك للغة التي نزل بها القرآن ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر ، لسان الذي يُلحدون إليه أعجمي ، وهذا لسان عربي مبين ﴾ [النحل /١٠٣] ، بينما اقتصر معنى لفظ الأعراب على بدو العرب فقط ﴿ الأعراب أشدُّ كفراً ونفاقاً . وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم ﴾ [التوبة / ٩٧-٩٩] ، وهذه هي المعاني التي لا تزال مستخدمة للفظتي العرب والأعراب حتى يومنا هذا[2].

وعلى الرغم من أن كلمة العرب لم ترد في الشعر الجاهلي القريب من ظهور الإسلام علماً على قومية العرب[3] . إلاّ أن ما جاء في القرآن الكريم يدل على أنه أصبح للعرب

---

[1] بعلبكي . رمزي . الكتابة العربية والسامية ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص٢٤ ـــ علي . المفصل ، ج١ ، ص٢٢ ، ٢٣ .

[2] الملاحظ أن العرب لم تفرق بين اللفظتين عند اطلاقها على الشعوب الأخرى ، كقولهم : القبط والأقباط ، الحبش والأحباش ، النبط والأنباط ، الترك والأتراك .

[3] هيو . العرب والساميون ، ص٢٦ .

كيان قومي خاص بهم قبل نزول القرآن بوقت لا يمكن تحديده ، لأنه من غير المعقـول أن يخاطب القرآن الكريم قوماً بصفة ليس لهم علم سابق بها[1].

وهكذا يتضح لنا أن لفظة العرب تعني التبدي في كل اللغات السامية ، ولم تكن تفهم إلاّ بهذا المعنى ، ثم توسع مدلولها بمرور الزمن ليشمل كل سكان جزيرة العرب[2]، دون أن يكون للفظة علاقة ببيان الكلام ، وفصاحة المنطق ، وذلاقة اللسان ، كما ذكـرت ذلـك المصادر العربية[3] .

---

(1) سالم . العرب قبل الإسلام ، ص٤٤ .

(2) علي . المفصل ، ج١ ، ص٢٥ ، ٢٦ .

(3) انظر على سبيل المثال ، ابن خلدون . العبر ، مج٣ ، بيروت ، ١٩٧٧م ، ص٣٧ . وقد جـاء في المعاجم العربية أن العرب سموا عرباً نسبة إلى بلدهم العربات أو عربة (مكة) التي انتشر العرب منها ، فنسبوا كلهم إلى عربة لأن أباهم إسماعيل عليه السلام قد نشأ فيها (ابن منظور . لسان العرب ، مـج١ ، بيروت ، ١٩٥٥م ، مادة : عرب) .

ثانياً : طبقات العـــــرب

أ- طبقة العرب البائدة وزمنهم :

يقسم أهل الأخبار العرب إلى طبقتين بائدة ، وباقية . وبالنسبة للعرب البائدة ، فإن أشهرها لديهم هي : عاد في أرض اليمن ، وثمود ومدين بين الحجاز والشام ، وطسم بين عمان والبحرين ، وجديس في اليمامة . وقد أسموا هذه الطبقة من العرب بالبائدة لزعمهم أنهم بادوا وانقرضوا عن آخرهم[1] .

وبغض النظر عن القول السابق بخصوص انقراض العرب البائدة ، وفي محاولة سريعة لتحديد الزمن الذي عاشوا فيه نجد أن جواد علي[2] يذكر أن قوم عاد ومن كان على شاكلتهم من العرب البائدة قد عاشوا بعد الميلاد ، وفي عهد غير بعيد عن الإسلام ، بدليل بقاء أخبارهم في ذاكرة أهل الأخبار .

ونحن نرى هنا أن ذلك قد يصدق على طسم وجديس ، نظراً لأن المصادر العربية ذكرت أن التبع اليماني حسان بن أسعد قد قَتل جديس باليمامة ، بسبب قتلهم ملكاً من طسم كان موالياً لحمير . ونحن نعرف من خلال النقوش أن حسان يهأمن ، كان مشتركاً في الحكم مع والده أبي كرب أسعد (أسعد الكامل) خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي[3] .

---

(1) الدينوري . الأخبار الطوال ، القاهرة ، ١٩٦٠م ، ص٣ .

(2) علي . المفصل ، ج١ ، ص٣٠٠ .

(3) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص١٥ .

أما عاد وثمود ومدين فزمنهم يعود الى الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد، وسنوضح ذلك مفصلاً في الباب التالي المخصص لدراسة حضاراتهم.

ب ـ طبقة العرب الباقية وحقيقة انقسامهم إلى قحطانية وعدنانية :

أما العرب الباقية فإن أهل الأخبار يقسمونهم إلى عرب عاربة وعرب مستعربة ، ويذكرون أن العرب العاربة ينتسبون إلى قحطان ، ومنازلهم الأولى في اليمن ، بينما ينتسب العرب المستعربة إلى عدنان ، ومنازلهم الأولى في الحجاز[1] . وبالنظر إلى تقسيم العرب الباقية إلى قحطانية وعدنانية ، فالملاحظ أن ذلك التقسيم لم يرد في النقوش العربية القديمة المعروفة لنا . وقد سبق القول إن كلمة العرب في تلك النقوش كانت تقتصر على بدو الجزيرة العربية[2].

وكذلك لم يرد ذكر للتقسيم في الشعر الجاهلي ، وكل ما ورد فيه لا يعدو أبياتاً قيلت في التفاخر بقحطان وعدنان . وكذلك لم نلحظ أي انقسام للعرب في حياة الرسول

---

(١) الملاحظ أن هناك من يطلق اسم العرب العاربة على العرب البائدة ، بينما يسمى القحطانيين بالعرب المستعربة والعدنانيين بالعرب التابعة (ابن خلدون . العبر ، مج١ ، ص٧٤ ، ٧٥) . وعن أصل القحطانية والعدنانية لدى أهل الأخبار ، انظر : الهمداني . الاكليل ، ج١ ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص١٠٣ ، ١٠٥ .

(٢) يرى البعض أن التصور عن انقسام العرب إلى قحطانية وعدنانية يعكس الاختلاف القديم في نمط المعيشة بين قبائل الجزيرة العربية من بدو في الشمال وحضر في الجنوب . انظر : بيوتروفسكي . ملحمة عن الملك الحميري أسعد الكامل ، صنعاء ، ١٩٨٤م ، ص٢٩ .

الكريم ، وفي عهد خليفتيه أبي بكر وعمر ، ولكنه يظهر بشكل واضح خلال العصر الأموي ، الذي اتسم بتعصب الخلفاء والناس لأحد الفريقين[1] .

وهناك من يرى أن هذا التقسيم قد أخذه النسابة العرب عن التوراة ، التي ورد فيها اسم يقطان واسم قيدار ، حيث أصبح الأول قحطان ، والثاني عدنان[2]. بينما يرى البعض أن المقابلة بين قحطان وعدنان (نزار) تعود في أصلها إلى ذكرى مجد قديم يتمثل في العلاقة بين نزار المملكة القديمة في إقليم البحرين ، وبين قحطان المملكة المجاورة في أسفل اليمامة ، والتي عرفت في بعض مراحلها بمملكة كندة وقحطان[3].

هذا وقد نشب خلاف بين النسابة حول أصل قبيلة قضاعة ، التي عدها البعض قحطانية ، بينما عدها البعض الآخر عدنانية ، وهناك من يرى أنها فرع ثالث إلى جانب الفرعين القحطاني والعدناني[4] .

وإلى جانب ما سبق ذكره من عدم ظهور تقسيم العرب إلى قحطانية وعدنانية خلال عصر ما قبل الإسلام ، فإن هناك من يرفض فكرة الأصل الجنوبي (القحطاني) لبعض قبائل شمال الجزيرة[5] . وحتى إن افترضنا صحة ذلك الأصل فالملاحظ أن تلك القبائل التي قيل

---

[1] فروخ . عمر . تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، بيروت ، ١٩٧٩م ، ص١٩٧ ــ با فقيه . الأنساب والسير اليمانية ، مجلة ريدان ، العدد ٥ ، ١٩٨٨م ، ص١٥ .

[2] زيدان . العرب قبل الإسلام ، ص١٨٦ .

[3] بافقيه . الأنساب والسير ، ص١٠ .

[4] عن ذلك الاختلاف ، انظر : الأندلسي ، جمهرة أنساب العرب ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص٧ ، ٨ – القلقشندي . نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، القاهرة ــ بيروت ، ١٩٨٠م ، ص٤٠٠ .

[5] زيدان ، العرب قبل الإسلام ، ص٢٠٥ ــ علي . المفصل ، ج١ ، ص٢٤٩-٢٥٠ .

أها قحطانية هاجرت إلى الشمال ــ وهي كثيرة ــ قد اختلطت مع جاراتها العدنانية ، وتكلمت اللغة العربية الشمالية ، وكذلك كان حال القبائل العدنانية التي هاجرت نحو الجنوب مثل قبيلة عك[1] .

إذاً فالعرب بقبائلهم المختلفة قد كونوا أمة عربية واحدة ، لا مجال فيها لهذه التصنيفات العرقية . أما استدلال بعض المؤرخين بأيام العرب التي دارت بين قبائل قحطانية وأخرى عدنانية من أجل تأكيد ذلك التقسيم ، فالرد عليهم ليس صعباً ، لأن أشرس أيام العرب ، وأطولها عمراً ، وأبقاها ذكراً ، إنما دارت في إطار الفرع الواحد (قحطاني أو عدناني) ، مثل حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، التي كانت في إطار الفرع القيسي العدناني ، وحرب البسوس بين بكر وتغلب ، وكلا القبيلتين تنتميان إلى قبائل ربيعة العدنانية ، وكذلك حروب المناذرة مع الغساسنة ، والأوس مع الخزرج ، التي كانت كلها في إطار الفرع القحطاني[2] . وسنلاحظ ذلك بوضوح من خلال ثنايا هذا الكتاب الذي بين أيدينا .

ولعله من المفيد أن نختم حديثنا بالقول، بأن الوثائق التاريخية الصحيحة وعلى رأسها الكتابات العربية القديمة ، قد أثبتت بأن الأنساب التي تغنى بها أجدادنا، ويتغنى بها بعضنا اليوم ، ليست في معظمها إلا وهم أسطوري، لا يستند إلى أي أدلة تاريخية موثوقة. وينطبق عليها القول المأثور " الأنساب في أحسن أحوالها توفيقية، وفي أسوئها تلفيقية"، وصدق رسول الله ﷺ القائل " كلكم لآدم وآدم من تراب".

---

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٦٤ – ١٦٦ .

(2) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص١٠٩ .

الباب الثاني

حضارات الأقوام العربية العتيقة

حضارات الأقوام العربية العتيقة[1]

تمهيد :

سندرس في هذا الباب حضارات الأقوام العربية العتيقة، ونقصد بها أقوام الأنبياء العرب (عاد قوم هود، وثمود قوم صالح، ومدين قوم شعيب)، التي وصفت في كتابات بعض أهل الأخبار بأنها من ضمن العرب البائدة. وقد سبق القول أنهم أطلقوا عليهم هذه التسمية لاعتقادهم أنهم بادوا وانقرضوا عن آخرهم، والقول بانقراضهم عن آخرهم أمر فيه مبالغة واضحة، وهو من ابتداع أهل الأخبار، وربما كان المقصود بلفظ البائدة هو عدم وجود أحد من العرب ينتسب إلى قبائلهم أثناء تدوين أهل الأخبار لمؤلفاتهم، حيث كانوا قد ذابوا في غيرهم من الأقوام، لسبب أو لآخر[2] .

وسبق القول في الفصل السابق إن بعض المصادر العربية ترفض تسمية العرب البائدة وتجعل تسميتهم هي العرب العاربة، والقحطانيين العرب المتعربة، والعدنانيين العرب المستعربة، أي أنها تعدهم هم العرب الأصلاء. ولذلك فقد استبعدنا تسمية العرب البائدة ونحن ندرس أقوام الأنبياء العرب المذكورين أعلاه، واستبدلناها بتسمية (الأقوام العربية العتيقة)، وهي تسمية تتوافق مع الواقع، حيث سيتضح لنا من خلال ثنايا الفصول

---

[1] تم إضافة هذا الباب إلى الكتاب ابتداء من طبعته الثالثة (انظر مقدمة الكتاب الخاصة بهذه الطبعة)، وقد اعتمدنا في تأليفه بدرجة أساسية على بحث للمؤلف يحمل عنوان:(فجر الحضارة العربية القديمة: رؤى تاريخية حول حضارات الأقوام العربية العتيقة – عاد، ثمود، مدين) .

[2] مهران، دراسات، ص ٢٣٩- ٢٤٠ .

المخصصة لدراستهم في هذا الباب، بأهم قد عاشوا خلال الألفين الثالثة والثانية قبل الميلاد، أي أن تاريخهم وحضاراتهم تمثل أقدم الحضارات في تاريخ العرب القديم (وفق المصادر التي بين أيدينا)، حيث أن الكيانات السياسية المعروفة لنا، سواء في جنوب الجزيرة العربية أو في شمالها، لم يتعد ذكرها في التاريخ – حتى الآن – الألف الأولى قبل الميلاد، الأمر الذي يسوغ لنا إعتبار فترتهم التاريخية بأنها تمثل الفترة العتيقة للتاريخ العربي القديم.

ولعل ما سيتابعه القارئ في ثنايا هذا الباب، سوف يرد على تلك الدعاوي التي أثارها بعض المستشرقين، من أن تاريخ هذه الأقوام (خصوصاً قومي عاد وثمود) مجـرد تـاريخ أسطوري لا أساس له، لمجرد عدم ورود قصتهم في التوراة، مثل قصة قوم مدين، ربما رغبـة منهم في تكذيب القرآن الكريم. وقد سبق لنا – في الفصل المخصص للمصادر – أن قلنـا بأن القرآن الكريم يعد مصدراً تاريخياً يمكن الاعتماد عليه، أما القول بأن ما ذكر فيه عـن هذه الأقوام وغيرها، لم يكن هدفه التأريخ لحضاراتها، بقدر ما تمثل في تقديم العظة والعـبرة، فذلك من وجهة نظرنا هو خلاصة ما يبغيه دارس التاريخ، وذلك بأن الغاية الحقيقيـة مـن دراسة التاريخ إنما تتمثل في "معرفة الماضي لفهم الحاضر واستشراف المستقبل" ، وبالتالي فإن الهدف الحقيقي من دراسته لا يتمثل في سرد الأحداث وترديد الحكايات المتعلقة بـالأقوام الغابرة، والبحث عنها لذاتها، وإنما هو إستقاء العظات والدروس والعبر من تلك الأحداث، وبمعنى آخر الاستفادة من خبرات الأجداد المتراكمة عبر تاريخنا الطويل، لأنـه إذا لم يكـن

ذلك هو هدفنا من دراسة التاريخ، فإننا لن نكون إلا نباشي قبور، ومقلقين لحياة أولئك الأجداد في قبورهم، من غير هدف يرتجى أو غاية تنشد[1].

ولنا في الأمم الأخرى قدوة ومثال، حيث نرى اليهود وهم يعودون إلى التاريخ ليعتمدون عليه في اختلاق القصص التاريخية، التي تثبت حقهم المزعوم في فلسطين والوطن العربي، وكذلك الأمم الغربية في أوروبا وأمريكا، الذين يعتبرون اليوم بأن إحكام سيطرتهم على مقدرات الأمة العربية والإسلامية إنما هو تكملة للمهمة (المقدسة) التي بدأها أجدادهم في الحروب الصليبية. وصدق الله العظيم القائل ﴿ فَاقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]، و ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾[3].

---

[1] أبو الغيث، عبدالله، الوحدة اليمنية في التاريخ هل كانت الأصل أم الإستثناء ؟، بحث مقدم إلى ندوة الوحدة اليمنية والألفية الثالثة، المنعقدة في جامعة إب، مايو، ٢٠٠٧م، ص ٣ .

[2] (سورة الأعراف/ ١٧٦) .

[3] (سورة يوسف/ ١١١) .

الفصل الأول

حضارة قوم عاد

أولاً : الزمان والمكان:

من الصعوبة بمكان تحديد الزمن الذي عاش فيه قوم عاد، ونعرف من القرآن الكريم أن زمنهم كان قريباً من عهد النبي نوح ﷺ(الأعراف/ ٦٩)، وتذكر المصادر العربية أن الفترة الزمنية الفاصلة بين هلاك عاد وهلاك ثمود تبلغ خمسة قرون تقريباً. وأن مهلك ثمود كان في عهد النبي إبراهيم ﷺ[١] الذي عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد تقريباً[٢] وهذا قد يعني – في حال صحته– أن تاريخ هلاك قوم عاد المذكور في القران الكريم قد كان قريباً من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد تقريباً ، مما يعني أن وجودهم ونشاطهم الحضاري كان سابقاً لذلك التاريخ بقرون عديدة .

أما المكان الذي تواجدوا فيه ومارسوا حياتهم على أرضه فالخلاف كبير بين المؤرخين سواء القدماء منهم أو المحدثين، حيث تراوحت المواطن التي حددها أهل الأخبار لقوم عاد بين اليمن والحجاز والعراق وسوريا وفلسطين ومصر، مع ترجيح كبير لكفة منطقة الأحقاف

---

[١] الدينوري، الأخبار الطوال، ص ٧.

[٢] مهران، دراسات تاريخية، ص ٢٦٠.

في حضرموت اليمن، على أساس أن أهالي هذه المنطقة يجزمون وحتى اليوم بوجود قبر النبي هودعليه السلام في أراضيهم بالقرب من مدينة تريم الحالية(١)، حيث يعد المكان المفترض لقبره مزاراً لكثير من المسلمين من داخل منطقة حضرموت وخارجها حتى أيامنا هذه.

تجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرخين المحدثين يرفضون قول أهل الأخبار بأن ديار عاد كانت في حضرموت اليمن، ويذكرون أنها كانت في شمال الجزيرة العربية مجاورة لديار ثمود، مستندين في ذلك على ما جاء في الخريطة التي رسمها الجغرافي اليوناني بطليموس لجزيرة العرب، وظهر فيها أسم شعب (OadiTae) الذي يعتقد أن المقصود به عاد في منطقة شمال غرب الجزيرة العربية(٢)، إلى جانب قولهم أن الأحقاف- التي ذكرها القرآن الكريم موطناً لقوم عاد(٣) - لا تعني مكاناً محدداً بعينه، وإنما تعني الرمال بعامة، والجزيرة العربية أكثرها صحاري ورمال(٤).

وقد حاول بعض الباحثين التوفيق بين الرأيين بالقول إن عاداً قد انقسمت إلى أولى وثانية حيث عاشت الأولى في جنوب الجزيرة، بينما عاشت الثانية في شمالها، وكان أفرادها عبارة عن جاليات هاجرت من جنوب الجزيرة(٥). ويستند القائلون بوجود عاد أولى وثانية

(١) الصعيدي، حضارات، ص٧٢- ٧٩.

(٢) انظر الخريطة لدى: Sprenger. Pp. 345

(٣) سورة الأحقاف / ٢١.

(٤) هبو، العرب قبل الإسلام، ص٧٦.

(٥) يحيى، العرب في العصور القديمة، ص ١٦٢- ١٦٧.

إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَاداً الأُولَى ﴾ [1]. وربما بناء على ذلك عد أحد الدارسين بأن ما عرف بالكتابات الصفوية في أقصى شمال الجزيرة العربية ما هي إلا نقوش لقوم عاد[2]، إلا أن الفارق الزمني بين التاريخ الذي يضعه الدارسون للنقوش الصفوية (الحقبة الواقعة بين القرنين الأول والرابع الميلاديين)[3]، وبين التاريخ الذي عاش فيه قوم عاد المذكوريين في القرآن الكريم – المشار إليه آنفاً– يقف حائلاً أمام هذا الرأي.

ثانياً : الشعب والحضارة:

يصنف العاديون بأنهم أقدم قبيلة من قبائل العرب البائدة، وقد أسرف أهل الأخبار في وصف عظمة أجسام أبناء قوم عاد إعتماداً على تفسير الآية الكريمة :﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾[4] حيث وصل طول الواحد منهم في بعض الروايات إلى خمسمائة ذراع، ويرجح بعض المؤرخين المحدثين بأن البسطة في الخلق التي ذكرها عنهم القرآن لا تزيد على ما يتميز به بعض الأفراد والعشائر في وقتنا الحاضر من ضخامة الأجسام مقارنة بغيرهم، مستدلين بما كانت توصف به فراعنة مصر من الضخامة والطول، وهو ما كذبه الواقع بعد كشف مومياهم[5].

---

(1) سورة النجم / ٥٠، المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، مروج الذهب، ج٢، تحقيق/ محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، (د، ت)، ص ٤٠.

(2) عبد الله، يوسف، نقوش صفوية، ص ٦٧– ٦٨.

(3) هبو، الأبجدية، ص ٩١.

(4) سورة الأعراف / ٦٩.

(5) مهران، دراسات تاريخية، ص ٢٤٩– ٢٥٠.

وبغض النظر عن حقيقة ضخامتهم تلك، وعلى الرغم مما ذكره القرآن الكريم من بقاء مساكنهم بعد هلاكهم[1]، إلا أننا لا نستطيع أن نحدد المخلفات والبقايا الأثرية التي يمكن نسبتها إليهم، وذلك لما سبق ذكره من اختلاف المؤرخين في تحديد ديارهم التي عاشوا فيها. وينطبق ذلك على مدينتهم إرم، التي جعلتها روايات أهل الأخبار مبنية من الذهب والفضة، وعجزت تلك الروايات عن تحديد موقعها بصورة مؤكدة،حيث أمتدت أماكنها ما بين أبين اليمن جنوباً، ودمشق الشام شمالاً، وإسكندرية مصر غرباً، وأور العراق شرقاً، بل إن بعضهم قد جعل منها مدينة متنقلة تدور في الأرض، فتارة تكون في الشام وأخرى في اليمن وثالثة في الحجاز وهكذا في بقية أصقاع الأرض، ومن الواضح أن تلك الروايات ليست إلا أساطير أضافها المفسرون نقلاً عن الإسرائيليات[2]

أما ما يمكن أن نستشفه عن حضارهم، من خلال سور القرآن الكريم التي تطرقت إلى ذكر قصتهم مع نبيهم هود عليه السلام فيتمثل في التالي:

١ – أنهم قوم عرفوا البناء المتقن، وأقاموا المصانع (القصور والحصون)، ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾[3].

٢ – أنهم قوم عرفوا الزراعة وتربية الحيوان (الأنعام)، وأقاموا البساتين (الجنان)، وأن أرضهم كانت أرض خصبة تنتشر فيها الينابيع والغيول (العيون) وتكثر فيها الأمطار.

(١) سورة الأحقاف / ٢٥.

(٢) ابو شهبة. محمد بن محمد،الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير،ط٥، مكتبة السنة ، القاهرة(د.ت)، ص ٢٨٣.

(٣) سورة الشعراء / ١٢٨– ١٢٩.

﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) ﴾ (١)﴿ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارا ﴾ (٢).

٣- أنهم قوم تميزوا بالقوة، والترف والرخاء في المعيشة، ﴿ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (٣)، ﴿ وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ (٤).

نختتم الحديث عن الجانب الحضاري لقوم عاد بتساؤل حول نظام الحكم الذي كان سائداً بينهم، وبخصوص ذلك نجد أن القرآن الكريم لم يتطرق صراحة إلى هذا الموضوع ، بل ألمح إليه إلماحاً، حيث يمكن أن نفهم من بعض الآيات أن هناك سلطة تزعمت المقاومة لدعوة النبي هود عليه السلام وتمثلت بالملأ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنْ الْكَاذِبِينَ (٦٦) ﴾ (٥) وقد تميزت هذه السلطة بالجبروت والعناد﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ

---

(١) سورة الشعراء / ١٣٣- ١٣٤.

(٢) سورة هود / ٥٢.

(٣) سورة المؤمنون / ٣٣.

(٤) سورة هود / ٥٢.

(٥) سورة الأعراف/ ٦٦ ، وقد قصد القرآن الكريم (بالملاء) أهل الحل والعقد، أو الهيئة الاستشارية في زمن القوم الذين يتحدث عنهم. ومن ذلك ما ذكره عن: ملاء قوم نوح (الأعراف /٦٠)، وملاء ثمود (الأعراف/٧٥)، وملاء مدين (الأعراف/٨٧)، وملاء فرعون يوسف (يوسف/٤٣)، وملاء فرعون موسى (الأعراف/ ١٢٧)، وملاء بني إسرائيل (البقرة /٢٤٦)، وملاء سبأ (النمل/٢٩)، وملاء سليمان (النمل/٣٨)، وملاء قريش(ص /٦).

كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيد ﴾ [1] وإن كان يمكن أن نفهم من آيات أخرى أن صفة الجبروت كانت صفة عامة لجميع أبناء الشعب العادي ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[2].

ثالثاً: إرم عاد وحقيقتها التاريخية[3]:

أختلف المفسرون وأهل الأخبار في المقصود بإرم ذات العماد التي ذكرت في القرآن الكريم ﴿ أَلَمْ تَرَى كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۞ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۞ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴾، وقد أجمل ابن كثير في تفسيره تلك الاختلافات، حيث عدها البعض وصف لقبيلة عاد ويصبح المعنى (عاد إرم) لأن المراد – حسب قول أصحاب هذا الخبر– إنما هو الإخبار عن هلاك القبيلة بدليل قوله تعالى في الآية التالية (التي لم يخلق مثلها في البلاد)، حيث كانت قبيلة عاد قد وصفت بمثل هذه الأوصاف في آيات أخرى: ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾، ﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾، إلى جانب قولهم أنه لو كان المقصود المدينة وليس القبيلة لقال (التي لم يعمل مثلها في البلاد وليس لم يخلق) وبالتالي فإن المقصود بالعماد في الآية إما أن يكون طول قاماتهم، أو الأعمدة الشداد التي ترفع بها بيوتهم المصنوعة من الشعر (الخيام).

وبالمقابل فإن هناك من ذكر أن المقصود بإرم إنما هي مدينة إرم التي كانت بيت المملكة العادية (العاصمة) ويكون المعنى (عاد وإرم ذات العماد)، وتكون صفة ذات العماد هنا وصف لمدينة إرم ويقصد به أبنيتها الضخمة التي ميزت هذه المدينة. وقد بالغ

---

(١) سورة هود / ٥٩.

(٢) سورة الشعراء / ١٣٠.

٣) عن ماورد هنا بخصوص إرم عاد انظر: أبوالغيث. عبدالله ، فجر الحضارة العربية القديمة.. رؤية تاريخية حول حضارات الأقوام العربية العتيقة، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٨٨، ٢٠٠٩م، ص١٥-١٧.

بعض القائلين بهذا الرأي في وصف مدينة إرم وجعلوها مبنية من الذهب والفضة والجوهر، وجعلها بعضهم مدينة تتنقل في الأرض، فتارة تكون في اليمن وتارة في الشام وثالثة في العراق وأخرى في مصر، وهكذا في بقية أصقاع الأرض.

وبغض النظر عن المبالغات المشار إليها – والتي نضم صوتنا إلى صوت ابن كثير في عدها من الخرافات التي وضعها البعض نقلاً عن زنادقة الإسرائيليين – فإننا نميل إلى ترجيح الرأي القائل بأن (إرم) إنما هو اسم لمدينة عادية وليس اسماً مرادف لقبيلة عاد، وقد بينا ترجيحنا هذا اعتماداً على العديد من الملاحظات التي نرى أنها تفند المعطيات التي اعتمد عليها أصحاب الرأي الآخر القائل بأن المقصود بإرم إنما هو قبيلة عاد، وتتمثل هذه الملاحظات في التالي:-

١- بالنسبة لقولهم: أن إرم صفة تميزية لعاد لا ينفي كون إرم مدينة لأن وصف قبيلة عاد بأنها عاد إرم قد يعني أن القبيلة نسبت إلى الإقليم الذي تعيش فيه أو إلى أهم مدنه، ربما تمييزاً لها عن أحد فروعها أو عن قبيلة أخرى تحمل نفس الإسم، كقولهم أزد عمان وأزد السراة.

٢- أما قولهم بأن السياق كان يتحدث عن إهلاك القبيلة فلا ضير من ذكر عاصمتهم وعظمتها في هذا السياق لكونها المكان الذي نزل فيه العذاب، ولكون عظمتها شاهدة على نكرانهم للنعمة التي هم فيها والتي تستحق الشكر وليس الكفران الذي بسببه استحقوا نزول العذاب، ويذكرنا هذا بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾، مع أن المقصود كل قوم ثمود في الحجر وخارجها.

٣- وفيما يخص قولهم أنه لو كانت إرم عبارة عن مدينة وليس قبيلة لما قال في الآية التالية ﴿ التي لم يخلق مثلها في البلاد ﴾ وإنما سيقول (التي لم يعمل مثلها في البلاد)، فذلك ليس كلاماً قطعياً لأن الخلق لا يقتصر إطلاقه على أفعال الله سبحانه وتعالى فقط ويجوز إطلاقه

على ما يفعله البشر، مثل قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً ﴾. وحتى إن كانت صفة الخلق قاصرة على الله فلا مانع أن يكون الضمير في قوله (لم يخلق مثلها) عائداً على قبيلة عاد المذكورة في بداية الكلام وتكون إرم مشمولة بصفتها جزءاً من القبيلة، أو يكون ذكرها عبارة عن جملة اعتراضية لا تمنع عودة الضمير بعدها على ما ذكر قبلها (أي قوم عاد)، خصوصاً أن ذلك يتكرر في العديد من السور القرآنية.

٤ – نصل أخيراً إلى قولهم: إن المقصود بالعماد في الآية هو أعمدة خيامهم، فبالعودة إلى معاجم اللغة وجدناها تذكر أن عمود البيت يجمع على صيغة (أعمدة) و (عمد)، أما (العماد) فالمقصود بها لديهم الأبنية الرفيعة والواحدة منها (عمادة). وهذا يرجح كون (إرم) مدينة ذات أبنية مرتفعة، يؤكد ذلك ما سبق أن ذكرناه من أنهم قد عرفوا البناء وأقاموا القلاع والحصون ﴿ اتبنون بكل ريع آية تعبثون ۞ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴾ إضافة إلى تصريح القرآن الكريم بأن مساكنهم قد بقيت بعد تدميرهم ﴿فَأَصْبَحُوا لا يُرَى إلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾، وذلك رغم الريح الشديدة التي تعرضت لها ﴿ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ ولذلك فهي لم تكن من الخيام بطبيعة الحال. ويدخل ضمن هذا قولهم: بأن ذات العماد ربما يكون المقصود بها طول قامات قوم عاد لأنه لا يتعارض مع ما ذهبنا إليه، على أساس ما سبق ذكره من أن القبيلة ربما تكون قد نسبت إلى عاصمتها أو مدينتها الأشهر ويكون المعنى (قوم عاد– الساكنين مدينة إرم– ذوي القامات الطويلة).

وبناء على ما تقدم ذكره فنحن نرى أن إرم – في الغالب – ما هي إلا مدينة لقوم عاد، وإذا كانت كذلك فلا بد أن تكون عاصمتهم (بيت مملكتهم)، أو على الأقل أهم و أشهر حواضرهم. ويبقى السؤال أين الموقع الحقيقي لهذه المدينة، وهذا سؤال من الصعب الإجابة عليه في الوقت الحاضر ما لم نتمكن من تحديد البقايا الأثرية لهذه المدينة، التي لا يستبعد أن تكون مطمورة تحت الرمال في مكان ما من أرض الجزيرة العربية المترامية الأطراف.

رابعاً : الدعوة والمصير:

يذكر القرآن الكريم صراحة أن شعب عاد كانوا يعبدون آلهة وثنية ﴿ مَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ ﴾[1]، ومع أنه لم يسم لنا الأصنام التي كانوا يعبدونها إلا أن البعض قد سماها وجعلها ثلاثة أصنام (صدا، وصمودا، وهردا)[2]، وفي كل الأحوال فإن كل ما نعرفه عن دعوة النبي هود‌عليه السلام لقومه عاد هو أنه دعاهم لعبادة الله وحده، شكراً للنعم التي منَ بها الله عليهم ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[3] ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾[4]، ولم يرد في القرآن الكريم تفاصيل أخرى عن طبيعة هذه الديانة وتعاليمها، وهل كان لها كتاب سماوي أم لا.

وبغض النظر عن طبيعة الديانة التي أتى بها نبي الله هود‌عليه السلام، إلا أن مصيرها قد تمثل في رفضها من قبل قومه عاد ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾[5]، وتثير كلمة رسله الواردة في الآية السابقة بصيغة الجمع تساؤل عما إذا كان هناك أكثر من رسول قد بعثوا إلى هذا الشعب، ومن الصعب الإجابة عن هذا التساؤل، خصوصاً أن القرآن

---

[1] سورة هود / ٥٣.

[2] الصعيدي، حضارات، ص ٧٢.

[3] سورة هود / ٥٠.

[4] سورة هود / ٥٢.

[5] سورة هود / ٥٩.

الكريم في سوره المختلفة التي تحدثت عن قوم عاد لم يذكر لنا إلا رسول وحيد هو (هودعليه السلام)[1].

وبالعودة إلى تفسير الآية لدى ابن كثير[2]، وجدناه يذكر أن المقصود برسله هنا هم جميع رسل الله، " وذلك أن من كفر بنبي فقد كفر بجميع الأنبياء، لأنه لا فرق بين أحد منهم في وجوب الإيمان به، فعاد كفروا بهودعليه السلام فنزل كفرهم منزلة من كفر بجميع الرسل ".

على كل حال فإن نهاية شعب عاد بموجب ما أخبرنا به القرآن الكريم قد تمثلت بالقضاء عليهم بواسطة ريح شديدة، أرسلت عليهم جزاء كفرهم[3] بعد أن نجى الله نبيه هودعليه السلام ومن معه من المؤمنين به ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾[4]، حيث يرى بعض المؤرخين أنهم شكلوا ما عرف بعاد الثانية كما سبقت الإشارة، وظل فيهم نبيهم هودعليه السلام حتى توفاه الله. وكما اختلف المؤرخون حول موطن عاد ومكان مدينتهم إرم، فقد اختلفوا أيضاً في البقعة التي احتوت رفاة النبي هودعليه السلام، حيث جعلها بعضهم دمشق وبعضهم فلسطين وبعضهم مكة، أما أرجح الآراء فقد جعلتها حضرموت اليمن[5] كما سبق وذكرنا.

---

(1) يتكرر هذا مع قوم صالح(الحجر/٨٠)،وقوم شعيب(الشعراء/١٧٦) .

(2) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج١، دار مصر للطباعة، القاهرة، د.ت،ص٤٦١.

(3) مثلاً سورة فصلت / ١٦، سورة الأحقاف / ٢٤، سورة الذاريات / ٤١، سورة الحاقة / ٦.

(4) سورة هود / ٥٨.

(5) مهران، دراسات تاريخية، ص ٢٥٦، الصعيدي، حضارات، ص ٩١.

الفصل الثاني

حضارة قوم ثمود

أولاً : دهران تاريخيان لثمود :

قبل أن نعمل على تحديد الزمن الذي عاش فيه قوم ثمود، يجب التنبيه إلى أن هنـــاك حضارتين منفصلتين من الناحية الزمنية، عرف أبناء كل منها باسم ثمود. وقد عرفنا الحضارة الأولى من القرآن الكريم وكتب المفسرين والإخباريين العرب، وذلك في سياق إيرادها لقصة نبي الله صالح عليه السلام المرسل إلى قومه ثمود. أما الحضارة الثمودية الثانية فقد عرفناها من خلال نقوش الكتابات المنسوبة إليهم (النقوش الثمودية)، وكذلك من كتابات الشعوب المجاورة لهم. ولذلك، ومن أجل التمييز بين الفترتين التاريخيتين للحضارة الثمودية، فإننا سوف نطلق على ثمود المذكورة في القرآن الكريم إسم (ثمود الدهر الأول)، وعلى ثمود المـــذكورة في النقوش إسم (ثمود الدهر الثاني)، حتى لا يحدث إلتباس لدى القارئ وهو يتـــابع حـــديثنا عنهم.

ثانياً :الزمان والمكان

وبالنسبة لزمن ثمود الدهر الأول فقد جاء في القرآن الكريم أن ثمود هم خلفاء قوم عاد ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ ﴾ [١]، وأن وجود عاد وثمود كان قبل مبعث النبي موسى إلى بني إسرائيل ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾[٢]، الذي كان خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريباً، وأن المصادر العربية قد ذكرت أن مهلك ثمود صالح كان في عهد النبي إبراهيمعليه السلام، الذي عاش في القرن التاسع عشر قبل الميلاد تقريباً، وذلك قد يعني أن ثمود (الدهر الأول) عاشوا في زمن سابق لذلك التاريخ، ربما يمتد إلى النصف الثاني من الألف الثالثة قبل الميلاد.

أما ثمود (الدهر الثاني) فيمكن تحديد زمنهم بناء على التاريخ الذي يضعه الدارسون لكتاباتهم – المدونة بخطهم الثمودي المشتق من خط المسند اليمني القديم – التي يمتد زمنها في الفترة الواقعة بين القرن الثامن ق.م والقرن الرابع الميلادي[٣].

أما فيما يخص المكان الذي عاش فيه قوم ثمود، فالمصادر العربية تجمع على أن ثمود في دهرها الأول كانت تسكن الأرض المعروفة بالحجر الواقعة في وادي القرى بين الحجاز والشام، ويسود الاعتقاد أن حجر ثمود هي الموضع الأثري المسمى (مدائن صالح)، (ربما

---

(١) سور الأعراف / ٧٤.

(٢) سورة إبراهيم / ٨.

(٣) الذييب، نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٩٩م، ص ٣–٤.

سميت بهذا الإسم نتيجة لهذا الاعتقاد)، لكن بعض المؤرخين المحدثين يميلون إلى أن مدائن صالح ليست هي حجر ثمود، بل حجر الأنباط، أما الموقع الحقيقي لحجر ثمود في نظرهم إنما هو موضع الخريبة الحالية، الواقع على بعد عشرة أميال من مدائن صالح، وذلك لأن وصف العذاب الذي أصاب ثمود قوم صالح، كما ذكر في القرآن الكريم (الرجفة = الزلزلة...) لا يتحقق في مدائن صالح الحالية[1].

أما موقع ثمود (في دهرها الثاني)، فهو حسب المواضع التي وجدت فيها نقوشهم، التي تقسم إلى ثلاث حقب هي: (الحقبة المبكرة)، الممتدة من القرن الثامن إلى القرن الثاني قبل الميلاد، وتتمثل بالخط الثمودي التيمائي، والثمودي النجدي، وتليها (الحقبة المتوسطة)، الممتدة من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الثالث الميلادي، ويمثلها الخط الثمودي الحجازي، الذي انحصر استخدامه بعد الميلاد في أواسط الحجاز فقط، أما في (الحقبة المتأخرة)، الممتدة حتى القرن الرابع الميلادي، والمتمثلة بالخط الثمودي التبوكي (الذي يتداخل مع الخط الصفوي)، ويندر وجوده في نجد والحجاز، نظراً لنزوح القبائل العربية الثمودية نحو الشمال،حيث استقرت في المنطقة الممتدة بين تيما جنوباً، والجوف شرقاً، وحوران شمالاً (جنوب دمشق)[2].

---

(1) الذييب، نقوش ثمودية من المملكة، ص ٤،٥ – مهران، دراسات، ص ٢٨٦.

(2) الذييب، نقوش ثمودية من المملكة، ص ٧،٩– نقوش ثمودية جديدة من الجوف، الرياض، ٢٠٠٣، ص ١٤.

ثالثاً:الشعب والحضارة:

اختلف أهل الأخبار حول أصل الشعب الثمودي (في الدهر الأول)، بين قائل أُهم من ذرية المؤمنين الناجين من قوم عاد مع نبيهم هودعليه السلام، وقائل أُهم إنما ينتمون إلى العماليق مثلهم مثل قوم عاد، بينما يرى آخرون أُهم من اليهود، ويذكر غيرهم أن نشأة الثموديين إنما كانت في اليمن قبل أن يغلبهم الحميريون ويجلوهم إلى منطقة الحجر في شمال الجزيرة. ونحن هنا وإن كنا لا نستطيع تأكيد الرأيين الأولين أو نفيهما بصورة أكيدة، نظراً لانعدام المصادر التي تتحدث عن ذلك، إلا أنه بإمكاننا أن ننفي الرأيين الأخيرين، وذلك لأن الزمن الذي عاش فيه الثموديين في دهرهم الأول يعد سابقاً لزمن ظهور اليهود في عهد موسىعليه السلام كما ذكرنا آنفاً، أو لزمن ظهور الحميريين، الذين لا يتعدى ذكرهم في النقوش المسندية القديمة النصف الثاني من الألف الأولى قبل الميلاد.

وعلى الرغم من أن الثموديين (في دهرهم الثاني) قد ذكروا – إلى جانب نقوشهم – في نقوش الآشوريين والسبئيين، وكذلك في المؤلفات اليونانية والرومانية[1]، إلا أننا لا نستطيع القول أن الثموديين المذكورين في النقوش هم أنفسهم الثموديين المذكورين في القرآن الكريم، نظراً للفارق الزمني بين الفترتين[2]،بالإضافة إلى ما تعكسه النصوص

(1) مهران، دراسات، ص ٢٦٨– ٢٧٠.

(2) أبو الخيث، الماجستير، ض ٣٨– ٣٩.

المنسوبة إليهم من صورة مخالفة لما جاء في القرآن الكريم عن ثمود، وإن كان ذلك لا يعني بالضرورة عدم وجود علاقة عرقية بين الطرفين[1].

وفيما يتعلق بالحضارة الثمودية ومظاهرها، فإن كل ما نستطيع ذكره عنها في الدهر الأول، هو تلك الإشارات التي وردت في القرآن الكريم.

وتتمثل في التالي:

١ – البراعة في فن النحت والبناء، حيث كانوا ينحتون بيوهم في الجبال ويبنون القصور في السهول ﴿ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً ﴾[2]. وقد استمر أهل المناطق التي عاشت فيها ثمود صالح عليه السلام يمارسون هذه التقنية الثمودية المبكرة من بعدهم، وكان منهم اللحيانيون والأنباط الذين يعتقد بأن أصولهم ثمودية[3].

٢ – ممارسة الزراعة المتنوعة، وخصوصاً زراعة النخيل، إعتماداً على العيون المائية ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) ﴾[4] وربما يكون من المستبعد الاعتقاد بأن المقصود بالعيون المذكورة في الآية السابقة هي أنهار أو غيول دائمة الجريان ،نقول ذلك مستأنسين بآيات أخرى وردت في قصة قوم ثمود وتتحدث عن قسمة

(١) الذيب، نقوش ثمودية من المملكة، ص ٣– ٤.

(٢) سورة الأعراف / ٧٤.

(٣) مهران، دراسات، ص ٢٦٨.

(٤) سورة الشعراء / ١٤٧_ ١٤٨.

الماء بينهم وبين الناقة ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) ﴾[١]، الأمر الذي يدل على قلة الماء لديهم، حيث تذكر كتب التفسير أن الثموديين في مدينتهم الحجر كان لهم بئر هي التي كانوا يقتسمون ماءها مع الناقة[٢].

ولا زالت منطقة شمال غرب الجزيرة العربية التي عاشوا فيها، تشتهر حتى اليوم بحرائها الخصبة ذات الآبار العذبة، وبتمرها المميز الذي يعد من أجود أنواع التمور، الذي يذكرنا بنخيل ثمود ذات الطلع الهضيم، المذكورة في الآية.

٣ – رغم أن الآيات القرآنية قد سكتت عن نظام الحكم الذي كان سائداً في ثمود عند بعثة صالح عليه السلام، إلا أنها قد تحدثت عن الرفاهية والأمن الذي كان سائداً بينهم[٣]، الأمر الذي يوحي بسلطة تنظم شؤون ذلك المجتمع، وقد تحدث القرآن الكريم عن (ملاء ثمود)، وتحدثت كتب التفسير عن (نادي ثمود)، وهو ما يذكرنا بأنظمة الحكم التي سادت بعد ذلك في بعض المدن العربية خصوصاً مكة التي تميزت بدار الندوة وملائها المذكور في القرآن الكريم، ولعل التسعة الرهط الذين جهزهم ثمود لقتل الناقة ومحاولة قتل صالح عليه السلام يذكرنا بالفتية الذين جهزهم قريش لقتل الرسول محمد ﷺ قبل هجرته إلى يثرب في القصة المعروفة ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ (٤٨) ﴾[٤].

---

(١) سورة الشعراء / ١٥٥.

(٢) ابن كثير، التفسير، ج٢، ص ٢٣٣.

(٣) سورة الشعراء / ١٤٦ ـ ١٤٩.

(٤) سورة النمل / ٤٨.

كان ذلك ما استطعنا قوله عن مظاهر الحضارة الثمودية في الدهر الأول، أما وضعها في الدهر الثاني، فنفهم من نقوشهم ورسوماهم أنهم كانوا يشكلون مجتمعاً حضرياً أكثر منهم بدو، حيث مارسوا الزراعة والصيد وركبوا البحر بسفنهم[١]، وعرفوا الطب والمعالجة[٢].

ويعتقد أن الثموديين كانوا هم أول من قاد القوافل الأولى بين اليمن والشام[٣]، حيث قاموا بدور الوسيط التجاري بين المنطقتين، نظراً لموقع بلادهم المهم في أعالي الجزيرةالعربية، على الطريق التجاري الذي يربط جنوب الجزيرة العربية بالشام ومصر وعالم البحر المتوسط، نستدل على ذلك من وجود النقوش الثمودية في اليمن وسيناء وإيلة (العقبة)، وكلها مراكز تجارية هامة في تلك الفترة. ووجدت عبارات في نقوشهم تفيد أنهم كانوا أهل قوافل أو حماة قوافل، مثل عبارة (أهل عر) أي أهل العير[٤].

رابعاً: حِجْر ثمود وموقعها الحقيقي[٥]:

لم يدر خلاف بين المفسرين وأهل الأخبار حول الحجر المذكورة في القرآن الكريم، مثلما دار حول إرم عاد السالف ذكرها، والأيكة المذكورة في قصة النبي شعيب كما سنوضح ذلك في الفقرة التالية، فقد اتفقت المصادر العربية بأن الحجر كانت من مواطن الثموديين الذين قطنوا فيها وما حولها من الأرض الممتدة بين الحجاز والشام، وربما كان

---

(١) مهران، دراسات، ص ٢٨٤- ٢٨٦.

(٢) الذييب، نقوش ثمودية من الجوف، ص ٢٠.

(٣) بافقيه، السعيدة، ج١،ص ١٩.

(٤) الروسان، القبائل الثمودية والصفوية، الرياض، ١٩٨٧م، ص١٤٧.

٥) ناقشنا ما ورد في هذه الفقرة من خلال العديد من المراجع في بحثنا عن الأقوام العربية العتيقة، ص١٧-١٩.

سبب ذلك الاتفاق عائداً إلى الرواية التي تذكر أن الرسول (ص) قد مر في الحجر أثناء سيره إلى تبوك في السنة التاسعة للهجرة، واخبرهم بأنها ديار قوم ثمود، وحدد لهم الأماكن التي كانت ترتادها الناقة المذكورة في قصة نبي الله صالح المرسل إلى ثمود.

ويسود الاعتقاد أن حجر ثمود هي الموضع الأثري المسمى (مدائن صالح) ، (التي ربما سميت بهذا الاسم نتيجة لذلك الاعتقاد)، لكن بعض المؤرخين المحدثين يميلون إلى أن مدائن صالح ليست هي حجر ثمود، بل حجر الأنباط. أما الموقع الحقيقي لحجر ثمود في نظرهم إنما هو موضع الخريبة، الواقع على بعد عشرة أميال من مدائن صالح، وذلك لأن وصف العذاب الذي أصاب الثموديين قوم النبي صالح، كما ذكر في القرآن الكريم (الرجفة – الزلزلة) لا يتحقق في الموقع المعروف بمدائن صالح، ويتحقق وفق مشاهدة بعضهم في موقع الخريبة وإن كان بعضهم قد وقع في خطأ آخر باعتبارهم أن الخريبة هي مدينة العلا الحالية (ديدان)، وربما كان سبب ذلك هو تقارب المواقع الثلاثة. والصحيح أن الخريبة غير العلا لأن الخريبة تقع إلى الشمال من مدائن صالح، بينما تقع العلا في الجهة الجنوبية منها.

ونحن إذ نميل إلى ترجيح هذا الرأي فإننا نتساءل حول ما إذا كانت الحجر هي عاصمة الثموديين، ولعل الإجابة بنعم هي الإجابة المنطقية على هذا السؤال، وذلك لأن الحجر قد حلت في القرآن الكريم نيابة عن ثمود في قوله تعالى ﴿ ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين ﴾ الأمر الذي يعني أن ملأ ثمود (علية القوم) – الذين وصفوا في آيات أخرى أنهم من تزعموا تكذيب نبيهم صالح – كانوا يعيشون فيها، وفيها دارت قصتهم مع الناقة، وغالباً هي المدينة التي ذكرت في قصة النبي صالح وقومه مع ثمود ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلا يُصْلِحُونَ ﴾. وبالتالي لا يمكن أن تكون لها كل هذه المكانة إلا إذا كانت هي عاصمة الإقليم الثمودي الممتد بين الحجاز والشام حسبما ذكرنا سابقاً، أو على الأقل الحاضرة الأولى لهم في حالة افتراضنا عدم وجود كيان سياسي منظم لهم (دولة، مملكة) كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين.

خامساً : الدعوة والمصير:

ورد في القرآن الكريم أن ثمود في عهد صالح عليه السلام كانوا يعبدون آلهة وثنية من دون الله ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾[1]،وأن ديانتهم الوثنية كانت متوارثة منذ عهد أسلافهم. ﴿ أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[2]، فبعث الله إليهم نبيه صالح عليه السلام، وعندما ألح عليهم في دعوته طلبوا منه آية، فكانت الناقة، ولكنهم لم يستجيبوا له، واستمروا في غيهم، وقاموا بعقر الناقة، بل ومحاولة قتله هو[3].

ورغم أن الآيات القرآنية التي تحدثت عن نبي الله صالح عليه السلام لم تفصل لنا طبيعة دعوته وتعاليم ديانته الجديدة إلا أن الآيات القرآنية قد حدثتنا عن نهي النبي صالح عليه السلام لقومه عن الفساد الذي يمارسونه ﴿ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[4]، من غير أن توضح لنا كنه ذلك الفساد. ونعرف من كتب التفسير أن النساء الثموديات هن من تولى قيادة المقاومة ضد الدين الجديد، وكن المحرضات الرئيسيات على قتل الناقة ومحاولة قتل صالح عليه السلام، وقدمن أنفسهن متعة لمن سينفذ المهمة[5]. والسؤال هنا، هل كان الفساد الأخلاقي هو الذي عناه صالحاً في الآية ؟ وهل كانت المرأة الثمودية تتمتع بحرية مطلقة في ممارسة نزواها ؟ فجاءت ديانة صالح عليه السلام الجديدة لتنهى عن ذلك ؟ ومع أننا لا نملك إجابة مؤكدة عن الأسئلة المطروحة، إلا أننا نكتفي بالإشارة إلا وضع المرأة الثمودية في نقوش الدهر الثاني، حيث دلت مناظر النساء على أن المرأة الثمودية كانت شديدة الرغبة في التزين

---

[1] سورة هود / ٦١.

[2] سورة هود / ٦٢.

[3] سورة الأعراف / ٧٧- سورة النمل / ٤٩.

[4] سورة الأعراف / ٧٤.

[5] ابن كثير، ج٢، ص ٢٣٣- ٢٣٤.

وارتداء الحلي بمختلف أنواعها[1]، ونفهم من بعض نقوشهم أن المرأة اللعوب مع الخمرة كانت من الأشياء المحببة إليهم[2].

وعودة إلى قتل الناقة، تحدثنا الآيات القرآنية أن ذلك كان بداية النهاية لقوم ثمود، حيث أمهلهم نبيهم صالح عليه السلام مدة ثلاثة أيام، ليحل بهم عذاب السماء، وكانت الصيحة والرجفة (ربما الصواعق والزلازل) هي أبرز ملامحه، حيث نجى الله نبيه صالح عليه السلام ومن آمن به ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾[3]. وقد اختلفت كتب المفسرين والآخباريين حول المنطقة التي سكنها أولئك الناجون من العذاب، فجعلوها تارة في فلسطين، وتارة مكة أو اليمن[4].

ولا ندري عن علاقة هؤلاء الناجون من ثمود صالح عليه السلام بثمود (الدهر الثاني)، الذين نعرف من نقوشهم أنهم كانوا على الديانة الوثنية.

وقد سبق أن ذكرنا أن كتابات الثموديين في دهرهم الثاني اختفت في القرن الرابع الميلادي ، واختفى معها ذكر الثموديين، حيث لم يعد لهم وجود عند ظهور الإسلام في مطلع القرن السابع الميلادي؛ اللهم إلا ما ذكره البعض من أن نسب قبيلة ثقيف يمتد إلى ثمود(ربما نكاية بالحجاج بن يوسف الثقفي)، وأن أهل نجد يعتقدون أن قبائل بني هلال ذات أصول ثمودية[5].

---

(1) عن وضع المرأة الثمودية في النقوش، انظر: مهران، دراسات، ص ٢٨٧.

(2) الذييب، نقوش ثمودية من سكاكا، ص ١٠.

(3) سورة هود / ٦٦.

(4) مهران، دراسات، ص ٢٧٨.

(5) مهران، دراسات، ص ٢٧٦.

الفصل الثالث

حضارة قوم مدين

أولاً : الزمان والمكان :

لا يعرف على وجه التحديد الزمن الذي عاش فيه قوم مدين، لكننا نستطيع تحديد ذلك بصورة عامة، من خلال ما ورد عنهم في التوراة والقرآن الكريم. حيث تحكي التوراة أن الذين التقطوا يوسف عليه السلام من البئر الذي تركه فيه إخوته كانوا تجاراً من أهل مدين[1]، وهو ما أشار إليه بعض المفسرين (ربما نقلاً عن التوراة)، عند تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلامٌ ﴾[2]. وفي حال افتراضنا لصحة ذلك فهذا يعني أن قبيلة مدين كانت قد أصبحت موجودة وتسيّر القوافل

---

[1] (سفر التكوين/ ٣٧:٢٨) .

[2] (سورة يوسف/١٩)- السيوطي، جلال الدين والمحلى جلال الدين، تفسير الإمامين الجلالين، بيروت،١٩٨٧م، ص ٣٠٤-٣٠٥ .

التجارية في ذلك العهد، الذي يمكن تحديده بالنصف الثاني من القرن الثامن عشر قبل الميلاد وما بعده، اعتماداً على ما سبق ترجيحه في الفصل الأول من هذا الباب مـــن أن نـــبي الله إبراهيم عليه السلام الجد الثاني ليوسف عليه السلام، قد عاش خلال القرن التاسع عشر قبل الميلاد تقريباً.

وذلك أمر غير مستبعد لأن القرآن الكريم قد ذكر أن مبعث نبي الله شعيب عليه السلام إلى أهل مدين كان قريباً من زمن هلاك قوم لوط عليه السلام، الذي عاصر إبراهيم عليه السلام في آخر عهده ﴿ وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أن يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُـــودٍ أَوْ قَـــوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) ﴾[١]، حيث يـــرجح ثقـــاة المفســـرين أن زمـــن شعيب عليه السلام كان قبل زمن موسى عليه السلام بمدة طويلة، (عاش موسى عليه السلام في القرن الثالث عشر قبل الميلاد تقريباً)، رافضين بذلك الرأي الذي ذهب إليه بعـــض المفســـرين بقـــولهم أن شعيب عليه السلام هو نفسه الشيخ الكبير المعاصر لموسى عليه السلام[٢]، وقد بنوا رفضهم على أساس أنه لو كان ذلك الشيخ هو شعيب عليه السلام لكان القرآن صرح بذلك، خصوصاً أنه قد أورد لنـــا قصة شعيب عليه السلام في مواضع أخرى[٣]، إلى جانب قولهم أنه من غير المعقول أن يسقي أهـــل مدين قطعانهم قبل إبنتي نبيهم، خصوصاً أن ذلك كان بعد مهلك المكذبين منهم ولم يبق معه إلا المؤمنين الناجين[٤].

---

[١] (سورة هود/٨٩) .

[٢] (سورة القصص/٢٣) .

[٣] ابن كثير، التفسير، ج٣، ص ٣٩٨ .

[٤] قطب. سيد، في ظلال القـــرآن، ج٥، ط٢٥، دار الشـــروق، القـــاهرة،١٩٩٦م، ص ٢٦٨٧، هامش(١) .

ونفهم من صريح الآيات القرآنية أن مبعث موسى عليه السلام- كان بعد فترة ربما ليست بالقصيرة – من هلاك قوم شعيب عليه السلام، حيث قرنت قصة قوم شعيب في سورة الأعراف مع قصص قوم نوح وهود وصالح ولوط عليهم السلام (الآيات/ ٥٩ – ٩٣)، ثم بعد ذكر العبر من قصصهم (الآيات/ ٩٤_ ١٠٢) تأتي هذه الآية ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ﴾ (آية/ ١٠٣). الأمر الذي يدل على أن المعاصر لموسى عليه السلام شخص آخر، وهو الذي تشير إليه التوراة بأسماء مختلفة، أبرزها (يثرون)، الذي جعلته كاهناً لمدين من غير أن تحدثنا عن ديانته أو دعوته [١] ، ولذلك رجح بعض المفسرين أن الشيخ المذكور في القرآن قد يكون هو ابن أخي شعيب عليه السلام أو رجل مؤمن من قومه[٢]. تجدر الإشارة إلى أن التوراة ظلت تذكر المديانيين إلى أواخر عصر القضاة في القرن الحادي عشر قبل الميلاد.

أما المكان الذي عاش فيه قوم مدين، فيقع في المنطقة الممتدة شمال غرب الجزيرة العربية من وادي القرى إلى الشام (شمال الحجاز ، وجنوب فلسطين، وشبه جزيرة سيناء)[٣]، وما زال اسم مدين يطلق على المنطقة الجغرافية الواقعة في شمال الحجاز حتى وقتنا الحاضر[٤]. ويفهم من القرآن الكريم أن مدين إسم لقبيلة وإسم للإقليم الذي تعيش فيه، حيث قصدت القبيلة في الآيات التي ذكرت أن الله قد بعث إلى مدين أخاهم

---

[١] (سفر الخروج/ ٢: ١٦،٣ : ١) .

[٢] ابن كثير، ج٣، ص ٣٩٨ .

[٣] سلامة. عواطف، ٢٠٠١، ص ٢٠ – ٧٨ .

[٤] أطلس العالم، المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية، حلب، ٢٠٠٣، خارطة المملكة العربية السعودية، ص ٤٩.

شعيب عليه السلام[١]، بينما قصد الإقليم عندما كان يشير إلى أبناء القبيلة بأهم أصحاب مدين[٢]، وأهل مدين[٣]. وقد ذكرت مدين لدى الجغرافيين المسلمين على أنها بلد (مدينـــة) وقطـــر (إقليم) وقبيلة[٤]، وقد حددنا القطر (الإقليم)، وسنتطرق في الفقرة التاليـــة إلى القبيلـــة والشعب، أما المدينة والمقصود بها فسوف نتناولها في آخر هذا الفصل عند حديثنا عن الأيكة والمقصود بها.

ثانياً : الشعب والحضارة :

ذكرت كتب الأخبار إن قبيلة مدين هي إحدى قبائل العرب البائدة، مثلها مثل عـــاد وثمود، ويرى البعض إن المديانيين، قد سكنوا الحجاز (حول مكة) في بداية أمرهم مع أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، واستعربوا معهم، وعندما انتقلت قبيلة جرهم مـــن الـــيمن إلى الحجاز تحالفت مع بني إسماعيل وقامت بطرد قبيلة مدين إلى شمال الحجاز، الـــتي عرفـــت باسمهم وصارت تدعى أرض مدين[٥]، تدل على ذلك مسمياتهم العربية، وعلى رأسها اسم نبيهم شعيب عليه السلام، الذي يعد اسماً عربياً، تكرر ذكره في النقـــوش الثموديـــة والصـــفوية،

---

[١] (سورة الأعراف/ ٨٥، سورة هود/ ٨٤) .

[٢] (سورة التوبة/ ٧٠، الحج/ ٤٤) .

[٣] (سورة طه/ ٤٠) .

[٤] المقريزي. تقي الدين، الخطط المقريزية، ج١، القاهرة، (د،ت)، ص ١٨٦ .

[٥] بوروتر. هارفي، موسوعة مختصر التاريخ القديم، ط١، القاهرة، ١٩٩١م، ص ١١٤.

وأشارت إليه المصادر العربية بصفته إسم للنبي شعيب، أحد الأنبياء العرب الخمسة، إلى جانب هود وصالح و إسماعيل ومحمد ﷺ[1].

أما فيما يخص الجوانب الحضارية لشعب مدين، فقد أشار القرآن الكريم إلى بعضها على النحو التالي:

١) ممارستهم للتجارة، حيث ركزت الآيات القرآنية على هذا النشاط الذي مارسه المديانيون، وذلك من خلا تكرارها لذكر المكيال والميزان في إطار دعوة نبيهم شعيب عليه السلام لهم بإيفاء الكيل والوزن، وعدم الإحتيال في إنقاصها ﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾[2]، ﴿ وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾[3]، الأمر الذي يشير إلى أن التجارة قد مثلت المهنة الرئيسية لشعب مدين، واعتمدت عليها مقومات حياتهم بدرجة أساسية، وقد سبق القول عن تسيرهم للقوافل التجارية منذ عهد النبي يوسف عليه السلام.

وقد ساعدهم على ذلك وقوع بلادهم على طريق التجارة الرئيسي، الذي يربط جنوب الجزيرة العربية بمصر وبلاد الشام وعالم البحر المتوسط[4]، وقد تمكنوا من جمع ثروات طائلة جراء ذلك، حسب ما نفهم من القرآن الكريم ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾[5]، وهذه صفة ميز بها القرآن الكريم إلى جانبهم قوم ثمود[1]، ونلفت الإنتباه أن

---

[1] سلامة، مدين، ص ٢٣،١٥٤،١٦٦.

[2] (سورة الأعراف/ ٨٥) .

[3] (سورة هود/ ٨٤) .

[4] سلامة، مدين، ص ٢٢ .

[5] (سورة الأعراف/ ٨٥) .

الثموديين قد عاشوا في منطقة شمال غرب الجزيرة العربية، وكان ذلك قبل أن تستوطنها القبائل المديانية (ثمود الدهر الأول)، وبعد أن استوطنتها (ثمود الدهر الثاني)، الأمر الذي يجعلنا نتسائل عن سر هذا التداخل الحضاري بينهما، وعن مدى وجود علاقة عرقية تربطهما.

٢) يتحدث القرآن الكريم عن ملأ مدين، وهو ما يجعلنا نشير إلى نظام الحكم الذي ساد بينهم، حيث يرجح البعض انه قد تمثل في نظام دولة المدنية، اعتمادا على ذكر التوراة لتعاصر خمسة من ملوكهم في الفترة التالية لعصر النبي شعيبعليه السلام[٢]. ويتضح من القرآن الكريم أن مدين كان لها كيانها القوي خلال الفترة التي ألتجأ فيها موسىعليه السلام إليهم هربا من فرعون، وعدم قدرة فرعون على مطاردته في أراضيهم ﴿ قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[٣].

وقد حدثتنا التوراة عن صراع عنيف دار بين اليهود و المديانيين، امتد من عهد موسىعليه السلام بعد خروجه من مصر إلى الفترة التي سبقت ظهور النبي/الملك داودفي القرن الحادي عشر قبل الميلاد. ووفقا لما جاء في التوراة ، فقد كانت الحرب سجالاً بين الطرفين، وسوف نتجاوز هنا عن ذكر هذه الحروب لكون كُتاب التوراة قد أضفوا عليها كثيرا من المبالغة، حيث حدثونا في أكثر من موضع عن إبادة اليهود للشعب المدياني بأكمله (رجالاً

---

[١] (سورة هود/ ٦٨) .

[٢] (سفر العدد/ ٣١:٨)- سلامة، مدين،ص ١١٣-٥٨٥.

[٣] (سورة القصص /٢٥) .

ونساءً وأطفالاً)، لكننا سرعان ما نجدهم يتحدثون عن تجدد الحروب مع المديانيين، من غير أن يحدثونا عن الكيفية التي عاد بها أهل مدين إلى الوجود[1].

٣) نعرف من قصة لجوء موسى عليه السلام إلى مدين بأن أهل مدين قد مارسوا مهنة الرعي ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنْ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ﴾ [2]، ومع أن التوراة قد ذكرت أن القطعان التي سقاها موسى عليه السلام كانت من الغنم[3]، إلا أننا نعتقد بأن كلمة (تذودان) في الآية القرآنية تشير إلى الإبل، ونتكئ في ذلك الاعتقاد على ما ورد في المعاجم العربية من أن (الذود) هو مجموعة من الإبل من الثلاث إلى العشر، والكثير (أذواد)، وفي المثل (الذود إلى الذود إبل)، و (ذاد الإبل) أي ساقها وطردها[4]، وإلى اليوم يسمى راعي الإبل (ذواد)، ونعرف من التوراة مدى اهتمام أهل مدين بتربية الجمال، وكثرتها العددية لديهم، " جمال أهل مدين كالرمل الذي على شاطئ البحر في الكثرة "[5]، وأنهم قد استخدموها في نقل البضائع السبئية إلى بلاد الشام ومصر[6] ، وكذلك استخدموها في حروبهم، حيث اشتهروا في التاريخ كأول أمة تستعمل الجمل في حروبها[7]، وقد استمر ذلك التقليد لدى سكان المنطقة، حيث يحدثنا

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن هذه الحروب، انظر: سلامة، مدين،ص ٥٦٢-٥٨٨.

(٢) (سورة القصص/٢٣) .

(٣) (سفر الخروج/٢:١٦-١٨) .

(٤) الرازي. محمد بن أبي بكر، مختار الصحاح، مكتبة المؤيد، الطائف، ١٩٧١م، مادة (ذود) .

(٥) (سفر القضاة/ ٧: ١٢) .

(٦) (سفر أشعيا/ ٦٠/ ٦) .

(٧) سلامة، مدين، ص ٢٩٨- ٦١٥ .

الملك الآشوري شلمنصر الثالث في القرن التاسع قبل الميلاد، عن مشاركة الزعيم العربي الشمالي (جنديبو العربي) في الحرب التي دارت ضده في معركة قرقر، بألف من راكبي الجمال[1].

٤) رغم سكوت القرآن الكريم عن الإشارة إلى ممارسة أهل مدين للزراعة، التي أشار إليها عند حديثة عن عاد وثمود، إلا أن انتشار الواحات في المنطقة التي سكنوها يؤكد ممارستهم لهذه المهنة، إما اعتماداً على مياه الأمطار، أو على السقي من الآبار، وكان من أهم محاصيلهم التمور والأعناب والحبوب والبقول والخضر والفواكه وغيرها[2]. وقد عرفوا كذلك إستخراج المعادن (ذهب، فضة، نحاس، حديد، قصدير، رصاص)، وأيضاً صناعة الفخار، الذي يعود زمنه في بعض المستوطنات المديانية إلى القرنين الثالث عشر والثاني عشر قبل الميلاد[3].

ثالثاً : الأيكة هل كانت عاصمة مدين ؟

ذكر القرآن الكريم في قصة شعيبﷺ الأيكة (لئيكة) إلى جانب مدين، وقد جعل ذلك بعض المفسرين يفترضون أنها منطقة أخرى منفصلة عن مدين بُعث إليها شعيبﷺ بعد هلاك مدين، مستدلين بما أورده القرآن الكريم من أن العذاب الذي أصابهم هو

(١) إسماعيل. عارف أحمد، دراسات في تاريخ الشرق القديم، ج٢، المنتدى الجامعي، صنعاء، ٢٠٠٢، ص ١١٨ .

(٢) سلامة، مدين، ص ٦١٥ .

(٣) سلامة، مدين، ص ٣٣٦ .

(الظلة)[1]، وليس (الصيحة والرجفة) التي وصف بها عذاب مدين. وقد رفض ثقاة المفسرين ذلك الإفتراض مؤكدين إن الأيكة ما هي إلا جزء من مدين، نظراً لأن شعيبعليه السلام قد أمر أهلها بنفس الأوامر التي أمر بها أصحاب مدين، مثل وفاء المكيال والميزان، أما وصف العذاب المختلف فهو لا يعني تعدد الأماكن والأمم، وإلا لتطلب الأمر أن تكون مدين أمتين لاشتمال عذابها على الصيحة والرجفة، ويخلصون إلى كون الأيكة من مدين، وقد اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها، بحيث ذكر في كل سورة العذاب الذي يناسب سياق القصة فيها[2].

ونذكّر هنا أن عذاب ثمود من قبلهم، قد وصف بالصيحة والرجفة والطاغية، ولم يقل أحد أنهم أكثر من أمة، رغم ذكر الحجر مع ثمود. والراجح أن الأيكة بالنسبة لمدين كانت كالحجر لثمود، أي أنها كانت حاضرتهم الرئيسية خصوصاً لما نراه من تشابه في سياق ذكرهما في القرآن الكريم ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [3]،﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [4]. والسؤال هنا، هل كانت الأيكة هذه هي بلدة مدين التي أشار إليها أهل الأخبار المسلمين وجعلتها بعض المصادر – السابقة لهم – مدينة مدين، عندما ذكرت أن موسىعليه السلام جاء إليها[5] ؟، ويكون إطلاق إسم مدين عليها في هذه الحالة من باب إطلاق

---

[1] (سورة الشعراء/ ١٨٩) .

[2] ابن كثير، ج٢، ص ٤٦٩، ج٣، ص ٣٥٧ .

[3] (سورة الحجر ٨٠) .

[4] (سورة الشعراء/ ١٧٦) .

[5] عن هذه المصادر، انظر: مهران، دراسات، ص ٢٩٨ – ٣٠٠ .

إسم الكل على الجزء الأهم والأشهر فيه، كإطلاق إسم الشام على دمشق، ومصر على القاهرة، ذلك احتمال قوي.

ويقودنا الاحتمال السابق إلى سؤال آخر، وهو أين موقع مدينة الأيكة ؟ وقد تعددت الآراء بخصوص ذلك، حيث يرى البعض أنها ربما تكون (تبوك)، أو أنها (الحوراء) على الساحل الشمالي للحجاز (ساحل منطقة مدين) وأنها هي التي عرفت في المصادر الكلاسيكية بـ (لويكة كومة)[1]. ورغم عدم إعتراضنا على هذه الآراء، إلا أننا نلفت الإنتباه إلى ما ذكرته المصادر العربية من أن موقع مدينة مدين (ربما الأيكة حسب افتراضنا) كان بالقرب من مدينة معان (جنوب الأردن الحالية)، وكذلك قولهم أن الأيكة هي الغيظة من الشجر خصوصاً السدر المثمر (الدوم)[2]، وهو ما ينطبق كثيراً على واحة البدع الحالية، التي تقع بالقرب من وسط الساحل الشرقي لخليج العقبة إلى الناحية الجنوبية من معان، وما زالت تحتفظ بنفس تلك المواصفات حتى وقتنا الحاضر[3]، بل إن إحدى مناطقها ما زالت تحمل إسم (أيكة الدوم)، إلى جانب كونها محطة على طريق التجارة الرئيسي، واحتوائها على كثير من الآثار المديانية، ووجود كهوف جبلية تحمل اسم (مغاير شعيب)[4]، وهو ما يرجح كفتها لأن تكون هي مدينة (أيكة – مدين)، وإن كان ذلك لا يمنعنا من ختم حديثنا عن الأيكة بالإشارة إلى موضع ما زال يحمل اسم (الأيكة– ليكة)، ويقع إلى

(1) سلامة، مدين، ص٨٤– ٨٩ .

(2) المقريزي، الخطط، ج١، ص ١٨٨ .

(3) عن طبيعة واحة البدع أنظر: ابو العلاء، جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج٥، ص ٦٥– ٦٨ .

(4) سلامة، مدين، ص ٨٧– ٨٨ .

الشمال الغربي من مدائن صالح[١]، أي في منطقة مدين، وتذكرنا ثنائية نطق اسمه حالياً بثنائية رسم الإسم في القرآن الكريم، الذي ورد بصيغة (الأيكة) مرتين[٢]، وبصيغة (لئيكة) مرتين أخريين[٣].

رابعاً : الدعوة والمصير :

ذكر القرآن إن قوم مدين كان لهم ملة (ديانة) يعتنقوها من دون الله وهي ديانة ورثوها عن أسلافهم ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [٤]، فأرسل الله إليهم نبيه شعيب عليه السلام، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك معبوداتهم الأخرى، ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [٥]، وترك الإفساد في الأرض، ويبدو أن الفساد المقصود كان هو الفساد الاقتصادي المتمثل بالغش في المكاييل والموازيين، واستخدام كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة من أجل الكسب المادي ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) ﴾ [٦]. واستخدام أموالهم التي يكسبوها من ذلك في العبث، وفق مفهوم خاطئ لحرية استخدامهم لها منطلقين من مبدأ ﴿ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [٧].

---

[١] عن موقع (الأيكة- ليكة) الحالي، انظر: دليل المواقع الجغرافية السعودية/ ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٨م، ص٦٣، ٥٤٤، ٥٦١ .

[٢] (سورة الحجر/ ٧٨، سورة ق/ ١٤) .

[٣] (سورة الشعراء/ ١٧٦، وسورة ص/ ١٣) .

[٤] (سورة هود/ ٨٧) .

[٥] (سورة هود/ ٨٧) .

[٦] (سورة الشعراء/ ١٨١- ١٨٣) .

[٧] (سورة هود/ ٨٧) .

لكن علية القوم (الملأ) استكبروا عن الانصياع لدعوته، وتزعموا تكذيبه، وعملوا على معارضته، والترصد لمن آمن من قومه ومضايقتهم ﴿ وَلا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ (١)، وهددوه بطرده هو وأتباعه المؤمنين من مدين إذا صمموا على اعتناق ديانتهم الجديدة، وعدم العودة إلى ملتهم السابقة ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ (٢)، لكن شعيبعليه السلام رفض الخضوع لتهديداهم ﴿ قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ (٣)، وذكرهم بما حل بأقوام الأنبياء السابقين له(٤)، لكن ذلك لم يزدهم إلا كفراً وعتياً وسخرية منه ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (٥)، عند ذلك شعر شعيبعليه السلام بالوصول معهم إلى طريق مسدود، فتوعدهم بنزول العذاب الذي حل بهم، متمثلاً بعذاب مشابه للعذاب الذي حل بقوم ثمود [الصيحة والرجفة] (٦). ونجى الله نبيه شعيبعليه السلام والذين آمنوا معه(٧).

(١) (سورة الأعراف/ ٨٦) .

(٢) (سورة الأعراف/ ٨٨) .

(٣) (سورة الأعراف/ ٨٩) .

(٤) (سورة التوبة/ ٧٠) .

(٥) (سورة هود/ ٩١) .

(٦) (سورة هود/ ٩٤، سورة الأعراف/ ٩١) .

(٧) (سورة هود/ ٩٤)- يعتقد البعض أن نسب قبيلة جذام العربية يمتد إلى هؤلاء الناجين من قوم مدين. (انظر: القلقشندي، نهاية الأرب، ص ٢٠٦) .

خامساً : إفتراضات حول العذاب والناجين منه :

كعادهم اختلف المفسرون حول المكان الذي عاش فيه شعيب عليه السلام واتباعه الناجون من العذاب، فبعضهم جعله في فلسطين على مقربة من حطين، والبعض الآخر جعله مكة وفق قولهم أنها المكان الذي يحل به كل الأنبياء بعد هلاك قومهم. لكننا قد أسلفنا أن التوراة استمرت في ذكرهم في نفس مواطنهم بعد زمن نبيهم شعيب عليه السلام حتى القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وهو ما أشار إليه القرآن في إطار ذكره لقصة لجؤ موسى عليه السلام إليهم.

وهذا يجعلنا نفترض عدة افتراضات لتفسير ذلك، ويتمثل الأول منها بأن المؤمنين الناجين من قوم شعيب (ومثلهم قوم صالح وهود) قد استمروا في السكن في نفس مناطقهم، حتى وإن اضطروا إلى إقامة مستوطنات جديدة مجاورة لتلك التي أصابها العذاب، وهذا يعني بالضرورة عدم صحة الروايات السابقة التي أشارات إليها كتب التفسير – التي خالطها كثير من الإسرائيليات – من حتمية تركهم لمناطقهم سواء إلى مكة أو إلى غيرها.

أما الافتراض الثاني فيعتمد على ما سبق أن ذكرناه في أن اسم مدين هو اسم مزدوج يشمل القبيلة والإقليم، حيث نفترض أنه بعد الهلاك الذي شمل قبيلة مدين، ورحيل الناجون منهم عن المنطقة حل بدلاً عنهم قوم آخرون قطنوا منطقة مدين، وسموا المديانيين نسبة إلى المنطقة التي قطنوها وليس إلى القبيلة التي حل بها العقاب، لكن هذا الإفتراض يتعارض مع ما سبق قوله عند تناولنا لذكر القرآن الكريم لقصة الشيخ المدياني مع النبي موسى عليه السلام، والترجيح بأنه كان إبن أخي شعيب عليه السلام أو أحد المؤمنين من قومه الناجين.

أما الافتراض الثالث والأخير، مفاده أن العذاب المذكور في القرآن الكريم، ربما كان يقتصر على حاضرة القبيلة، وليس على ديار القبيلة كلها، التي كانت تنتشر في منطقة أوسع حول تلك الحاضرة، ونستأنس في هذا الإفتراض بما ذكره المفسرون عن هلاك (ثمود قوم صالح عليه السلام) حيث نجدهم إنما يتحدثون عن سكان مدينة الحجر الحاضرة الرئيسية لثمود، بينما كانوا قد ذكروا لنا بأن ديار قوم ثمود تشمل منطقة واسعة، تمتد من وادي القرى إلى بلاد الشام. وهذا الإفتراض تقويه الآيات القرآنية، التي تحدثت عن إعراض علية القوم في عاد وثمود ومدين (الملأ) لدعوة أنبيائهم، وبالتالي هم الذين تعرضوا للعذاب الإلهي بصورة أساسية، كما نفهم ذلك من سياق الآيات القرآنية ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) ﴾ [1]. وإذا عرفنا أن الزعماء والقادة في أي مجتمع (الملأ) إنما يتركزون غالباً في الحاضرة الرئيسية لكيانهم السياسي أو القبلي (العاصمة)، فإن ذلك يزيد من قوة هذا الإفتراض بصورة كبيرة، ويجعلنا نتساءل حول ما إذا كانت إرم هي حاضرة عاد، والأيكة حاضرة مدين، أسوة بما عرفناه عن الحجر حاضرة ثمود، وهذا يفسر لنا حلول أحد الأسميين (المنطقة وعاصمتها) نيابة عن الآخر، عند سرد قصص تلك الأقوام في السور القرآنية المختلفة.

[1] (سورة الأعراف/ ٩٠- ٩١).

الباب الثالث

الدول العربية المبكرة

الدول العربية المبكرة

تمهيد :

أطلقنا تسمية الدول العربية المبكرة على الدول العربية الأقدم ظهوراً ، والتي عرفتها الأطراف الشمالية للجزيرة العربية . (الأنباط ، وتدمر ، والحضر) . وتتميز عواصمها بأنها قامت حول مراكز تجارية ، أو عند نقطة توازن بين الدولتين العظميين : الرومانية والفارسية . والصفة المشتركة بين هذه الدول هي أن وجودها كان يتوقف على بقاء أوضاع تجارية مواتية ، أو على بقاء علاقات وظروف دولية معينة بين الدول الكبيرة المتصارعة . كما كان تدهورها واندثارها معلقاً بأي تعديل في مسار الخطوط التجارية ، أو أي تغير في ميزان العلاقات بين الإمبراطوريات المجاورة لها[1] .

ورغم أن هذه الدول لم تكن دول حربية بدرجة أساسية ، إلاّ أننا سنلاحظ ـ من خلال دراستنا لها ـ أنها قد لعبت دوراً مهماً في الأوضاع السياسية والعسكرية للمنطقة ، بل كانت في كثير من الأحيان تقرر مصير العلاقات الدولية ، وترجح كفة إحدى القوى المتصارعة على غيرها[2].

---

(1) يحيى . العرب في العصور القديمة ، ص٣٤٤ ، ٣٤٥ .

(2) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٤٠ .

أخيراً فإن هناك جامع مشترك بين هذه الدول ، وهو استخدامها للكتابة الآرامية في تدوين لغاها ، وذلك للانتشار الواسع للغة الآرامية آنذاك ، حيث كانت اللغة الآرامية قد أصبحت لغة العلاقات الدولية ، ابتداء من القرن السادس قبل الميلاد وحتى مطلع القرن السابع الميلادي ، إلى جانب سهولة حروفها الأبجدية ، ورقي آدابها . حيث كتب الأنباط لغتهم بالأحرف الآرامية ، ثم عملوا على تطوير تلك الحروف فاستقلوا بخط خاص بهم عرفت به كتاباتهم ، وهو الخط الذي تطور منه خط النسخ في لغة العرب الفصيحة . وكذلك فعل التدمريون حيث طوروا الخط الآرامي المربع إلى خط خاص بهم عُرِفَ باسم الخط التدمري . ولم تشذ دولة الحضر عن شقيقاتها حيث أثبتت التنقيبات في مدينة الحضر أن الكتابات فيها كانت مدونة بالخط الآرامي[1] .

---

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٤٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ـــ سفر . الحضر ، ص٢٠ .

الفصل الأول

دولة الأنباط

أولاً : موقعهـا :

تقع مدينة البتراء عاصمة الدولة النبطية في المنطقة الواقعة إلى الشمال الشرقي من خليج العقبة ، غير بعيدة عنه ، في وادي موسى الواقع إلى الشرق من وادي عربة ، الذي يمتد من جنوب البحر الميت إلى شمال خليج العقبة .

وتمتاز البتراء بكونها مدينة صخرية تحيط بها الصخور من نواحيها الشرقية والغربية والجنوبية . واسم البتراء مأخوذ من كلمة بترا (**Patra**) اليونانية ، التي تعني الصخر . أما العبرانيون فقد اسموها (سلاع) ، ويعني الحجر في لغتهم . كما عرفها العرب باسم (الرقيم) ، وهو الذي كان الأنباط يطلقونه على مدينتهم[1].

---

[1] برو . تاريخ العرب القديم ، ص٩٩ ، ١٠٠ .

وقد عرفت منطقة وادي موسى ـــ التي تقع فيها البتراء ـــ بوفرة مياهها ، الأمر الذي ساعدها على جذب القوافل التجارية ، حيث أصبحت محطة مهمة على الطريق التجاري الذي يربط بين الجزيرة العربية جنوباً ، وبلاد الشام شمالاً ، وبين الخليج العربي والعراق شرقاً ، والبحر المتوسط ومصر غرباً[1].

أما حدود الدولة النبطية فقد امتدت في أوج اتساعها من بصرى شمالاً إلى مدائن صالح جنوباً ، ومن وادي السرحان شرقاً إلى شبه جزيرة سيناء غرباً ، بل إن أراضيها قد امتدت ـــ في فترة من تاريخها ـــ لتشمل مدينة دمشق ، وسهل البقاع ، وحوران ، والأقسام الجنوبية والشرقية من فلسطين[2].

ثانياً : نشأتها :

الأنباط عرب رحل ، لا يعرف على وجه الدقة الموطن الذي أتوا منه ، وربما كان مجيئهم من وسط الجزيرة العربية أو من غرب العراق . وقد استوطنوا مدينة البتراء في أواخر القرن السادس قبل الميلاد تقريباً ، وذلك بعد أن انتزعوها من يد الأدوميين .

ويبدو أن الأنباط لم يألفوا حياة الحضارة إلاَّ بعد قرنين من الزمان من قدومهم إلى البتراء ، إذ وجدوا فيما تتطلبه القوافل من خدمة ، وما تأتي بها من سلع تجارية يسهمون في تصريفها ، وسيلة مجدية للربح ، وكسب العيش . فاستقروا ، وما لبثوا أن أقاموا دولة

(1) المرجع نفسه ، ص١٠٤ ، ١٠٥ .

(2) خربوطلي . تاريخ الوطن العربي ، ص١٠٥ .

منظمة ، وحكموا بلادهم على أساس النظام الملكي ، وضربوا النقود ، واستوزروا الوزراء[1].

وقد استثمر الأنباط النزاع الذي دار بين خلفاء الاسكندر المقدوني : السلوقيين في سوريا ، والبطالمة في مصر ، من أجل تقوية مركزهم ، وأغلب الظن أهم صاروا دولة عظيمة إبان هذه الفترة[2].

ثالثاً : ملوكها

لا نعرف ــ حتى الآن ــ متى انتقل الأنباط من نظام الحكم القبلي ، إلى نظام الحكم الملكي ، ولا من هو مؤسس مملكة الأنباط ، ولا الزمن الذي أسست فيه . أما أقدم ملك نبطي نعرف اسمه فهو حارثة الأول (١٦٩-١٤٦ ق . م) ، وقد اختفت أسماء الملوك الأنباط من بعده لمدة تزيد على الثلاثين سنة (١٤٦-١١٠ ق . م) حتى ظهر لنا اسم الملك النبطي حارثة الثاني (١١٠-٩٥ ق . م) ، وقد تسلسل الملوك من بعده ، وكان آخرهم هو رب إيل الثاني الذي سقطت في عهده الدولة النبطية في يد الرومان عام (١٠٦م)[3] ، وأشهر هؤلاء الملوك هم :

---

(١) برو . تاريخ العرب القديم ، ص١٠٠ .

(٢) خربوطلي . تاريخ الوطن العربي ، ص١٠٨ .

(٣) الشيبه . تاريخ العرب القديم ، ص٩٩ ، ١٠٠ .

أ ـ حارثة الثالث (٨٧-٦٢ ق . م) :

هو خامس ملوك الأنباط المعروفين لنا ، وقد حكم بينه وبين حارثة الثاني ملكين هما : عبادة الأول (٩٥-٨٨ ق . م) ، ورب إيل الأول (٨٨-٨٧ ق . م) وتميز عهده بالازدهار ، حيث استطاع أن يستفيد من الظروف الدولية في عهده ، ومضى قدماً في السياسة التوسعية التي انتهجها أسلافه . وقد سنحت له الفرصة حين عرض عليه أهل دمشق أن تصبح مدينتهم تابعة له ، حيث تمكن من انتزاع المدينة من أيدي السلوقيين ، وقد استغل ضعف هذه الدولة وبسط نفوذه على المناطق المجاورة ، ومنها سهل البقاع . ثم التفت إلى المكابيين اليهود واشتبك معهم ، وبدأ يتدخل في شئونهم الداخلية[1].

وفي أواخر عهد هذا الملك ظهر الرومان في سوريا بقيادة القائد بومبي ، الأمر الذي أدى إلى قلب الأوضاع في المنطقة ضد الدولة النبطية وملكها حارثة الثالث ، ذلك أن خصومه اليهود المكابيين قد استعانوا بالرومان ضده ، وقد أدرك حارثة أن جيشه لا يستطيع الوقوف أمام جيوش الرومان فآثر الانسحاب والعودة للدفاع عن مملكته ، ولعل تلك النكسة التي وقعت قد أثرت فيه وعجلت في منيته[2].

ب ـ مالك الأول (٤٧-٣٠ ق . م) :

هو سابع ملك نبطي معروف ، وقد حكم بينه وبين حارثة الثالث الملك عبادة الثاني (٦٢-٤٧ ق . م) . أما عهده فإنه قد شهد أحداثاً جسيمة ، كان أهمها الحروب التي

---

[1] خربوطلي . تاريخ الوطن العربي ، ص١١١.

[2] خربوطلي ، ص١١١ ، ١١٢ .

دارت بينه وبين الهيروديين اليهود ، الذين أناهم الرومان في محاربة مالك الأول ، وذلك بعد أن نفض الأنباط ولاءهم للرومان ، وانضموا إلى صف أعدائهم الفرس الفرثيين ، حين حاول الفرس الاستيلاء على فلسطين وانتزاعها من أيدي الرومان . ولسوء حظ الأنباط فإن هذه الحرب قد انتهت بهزيمة الفرس أمام الرومان ، وأيضاً هزيمة الأنباط أمام الهيروديين ، واضطر الأنباط لدفع الجزية للرومان.

ولما قدّم القائد الروماني انطونيوس بلاد الأنباط هدية لصديقته كليوباترا حاكمة مصر البطلمية ، فإن مالك الأول قد رفض أن يدفع الجزية لكليوباترا ، فشكته إلى انطونيوس الذي عهد بحربه إلى الهيروديين ، حيث قامت بين الطرفين حروباً كثيرة ، كان النصر فيها سجالاً ، إلاّ أن النصر كان حليف الهيروديين في آخر الأمر ، ولم يعمر مالك الأول بعد الخسائر التي حلت بالأنباط في هذه الحرب إلاّ قليلاً[1].

ج ـ عبادة الثالث (٣٠-٩ ق . م) :

تولى عبادة الثالث العرش النبطي خليفة لمالك الأول ، وقد وصفته الروايات التاريخية بالكسل ، وتراخي الهمة ، وبأنه لم يعر الشؤون العامة الاهتمام الكافي ، بينما وصفت وزيره سليوس (صالح) بالقدرة والكفاية وأنه كان المتصرف الفعلي في أمور الدولة والمدير لشؤونها[2] .

(١) عاقل . نبيه ، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص١١٦ .
(٢) هاردنج . لانكستر . آثار الأردن ، عمان ، (د . ت) ص١٥٣ .

وتعود أهمية عهد هذا الملك إلى أنه في عهده أسهم الأنباط في الحملة الرومانية التي توجهت إلى اليمن عام (٢٤ ق . م) والتي كان دليلها الوزير النبطي صالح ، وعندما باءت الحملة بالفشل ألقي اللوم على الدليل النبطي ، الذي اتهم بخيانة الرومان ، لأنه قاد جيشهم في طرق وعرة ليس فيها ماء ، الأمر الذي أنهك الجيش الروماني وأدى إلى فشله[1] . وفي حقيقة الأمر فإن الحملة فشلت لأسباب أخرى تتعلق بالمقاومة وسوء الأحوال الطبيعية[2] .

د ـ حارثة الرابع (٩ ق . م ـ ٤٠ م) :

بعد وفاة عبادة الثالث خلفه على العرش النبطي حارثة الرابع ، الذي يعد عهده أزهى عصور الدولة النبطية ، حيث تميز عهده بالازدهار العمراني في حواضر الدولة : (البتراء) ، (مدائن صالح) ، و (بصرى) . ويبدو أن حارثة كان يخشى أن يسيطر الرومان على عاصمته البتراء ، وذلك يفسر لنا انكفاء الأنباط في عهده جنوباً نحو مدائن صالح ، التي كانت محطة من محطات الطريق التجاري القادم من جنوب الجزيرة العربية . وقد كان هدف حارثة من وراء ذلك هو تغيير اتجاه ذلك الطريق بحيث يمر مباشرة ـ عبر وادي السرحان ـ إلى بصرى الواقعة في شمال الدولة ، من غير أن يمر في مدينة البتراء التي قد تفكر الدولة الرومانية في السيطرة عليها ذات يوم . ولذلك تم تغيير اتجاه الطريق إلى دروب لا يستطيع التمرس فيها سوى الأنباط أنفسهم[3] .

---

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٤٥ .

(2) عن أسباب فشل الحملة ، انظر : بافقيه . تاريخ اليمن القديم ، بيروت ، ١٩٨٥م ، ص٧٥-٧٧ ـ الشيبه . دراسات في تاريخ اليمن القديم ، تعز ، ٢٠٠٠م ، ص٢٢ .

(3) الشيبه . تاريخ العرب القديم ، ص١١٠-١١٥ ـ خربوطلي . تاريخ الوطن العربي ، ص١١٤ ، ١١٥ .

إلى جانب ذلك فقد اهتم حارثة الرابع بالزراعة ، حيث عمل على حفظ مياه الأمطار ، وجرها إلى الأراضي الصالحة للزراعة ، وسعى حارثة جاهداً أن يوفر لشعبه استقراراً زراعياً يؤمن له وسائل العيش إذا جفت ضروع التجارة ذات يوم . وقد أدرك حارثة أنه ينتقل بأعماله تلك بالدولة النبطية إلى مشارف حضارة جديدة ، لذلك كان يخلد أيام حكمه بتوالي الإصدارات النقدية[1] ، حتى أنه لا تكاد تمر سنة من سنوات حكمه المديد دون أن يصدر نقداً جديداً . وقد كتب على معظم النقود التي أصدرها " حارثة محب النبط ، محب أُمته "[2] .

وهكذا عاش الأنباط في ظل حكم هذا الملك باطمئنان ، وقطفوا ثمار حياة سليمة وادعة ، وضربوا في الثراء بسهم وافر ، ودخلت علاقتهم بروما مرحلة عدم تضارب المصالح ، وبذلك أمنوا استفزازات جيرانهم اليهود[3] ، إلاَّ أن العلاقات السيئة بين حارثة الرابع وعامل الرومان اليهودي على فلسطين قد عادت من جديد ، فوقف الرومان إلى جانب الهيروديين وزحفوا إلى البتراء لاحتلالها . وفي هذه الأثناء مات الامبراطور الروماني (تبيريوس) فتوقفت المعارك ، وارتد الجيش عن البتراء[4].

---

(1) يعتقد أن حارثة الثاني هو أول من سك النقود في الدولة النبطية .

(2) خربوطلي . تاريخ الوطن العربي ، ص١١٥ .

(3) علي . المفصل ، ج٣ ، ص٤٣ ، ٤٤ .

(4) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٤٥ ، ١٤٦ .

الجدير بالذكر أن النقوش الكثيرة لهذا الملك تتحدث عن أمور مختلفة : دينية وشخصية ، وترد فيها أسماء بعض الأفراد والآلهة التي تؤكد عروبة الأنباط وانتمائهم العربي الواضح[1] .

رابعاً : نهايتها

حكم بعد الملك حارثة الرابع آخر ملكين نبطيين هما: مالك الثاني (٤٠-٧١م) ، ورب إيل الثاني (٧١-١٠٦م) . وفي عهديهما ازداد الضغط الروماني على دولة الأنباط ، الأمر الذي أدى إلى سقوط عاصمتها البتراء في عام (١٠٦م) .

وبالعودة إلى العلاقات التي كانت قد ربطت الأنباط بالدولة الرومانية ، نعرف أن الأنباط لم يحاولوا مقاومة الرومان بعد ظهورهم في سوريا مثلما قاوموا السلوقيين والبطالمة من قبلهم ، خصوصاً بعد أن رأوهم وقد سيطروا على آسيا الصغرى وسوريا ومصر وموانئ البحر المتوسط ، فاضطروا إلى إقامة علاقات طيبة معهم ، والخضوع لنفوذهم . وقد أسهموا في حروبهم ، حيث اشتركوا في حملة وجهها الرومان إلى الاسكندرية عام (٤٧ ق . م). كما ساهموا في الحملة الرومانية الموجهة إلى اليمن عام (٢٤ ق . م) ، وكذلك شاركوا الرومان في إخماد ثورة اليهود ضد الحكم الروماني عام (٦٩م)[2] .

---

(1) علي . المفصل ، ج٣ ، ص٤١ - ٤٣ .

(2) برو . تاريخ العرب القديم ، ص١٠٤ .

غير أن العلاقات بين الطرفين بدأت تسوء بعد ذلك ، حيث حاصرت الجيوش الرومانية الأنباط عدة مرات فقاوموها ، وقد استغل الامبراطور الروماني تراجان موت آخر ملك نبطي (رب إيل الثاني) ، فوجه إليهم حملة كبيرة تمكنت من إخضاعهم ، ودخول عاصمتهم البتراء عام (١٠٦م) . وقطع بذلك الطريق على الأنباط الذين كانوا يعتزمون تعيين خلف للملك المتوفي . وقد ألحقت بلاد الأنباط بالولاية العربية الرومانية ، وأصبحت بصرى مقراً لحكم هذه الولاية . ومع ذلك فقد ظلت البتراء محتفظة بمركزها التجاري في عهد الاحتلال الروماني ، غير أن ازدياد غارات البدو عليها ، وارتفاع شأن الدولة الفارسية (الفرثية) في الشرق ، وسيادة السلم بينها وبين الدولة الرومانية ، قد أعاد النشاط التجاري إلى الطريق المار بالعراق ، على حساب الطريق المار بغرب جزيرة العرب والذي يمر بالبتراء ، حيث بدأ في الانحطاط ، لينتقل مركز الثقل التجاري إلى مدينة تدمر التي أخذت تستقطب التجارة ، بينما أخذ التدهور سبيله إلى البتراء[1].

أما الأنباط فإنهم قد هاجروا إلى مواطن أخرى طلباً للرزق ، وامتزجوا بالسريان ، وانتشروا على حدود سوريا الحالية وفلسطين مما يلي البادية بين سيناء والفرات ، ولم تقم لهم قائمة منذ ذلك الحين .

---

[1] باشميل . محمد أحمد . العرب في الشام قبل الإسلام ، دار الفكر ، ١٩٨٧م ، ص٣٥ .

الفصل الثاني

دولة تدمر

أولاً : موقعها :

تقع مدينة تدمر على واحة في البادية التي تفصل الشام عن العراق ، وتحيط بها مناطق صحراوية . وتقع في منتصف المسافة تقريباً بين الفرات في الشرق ودمشق وحمص في الجنوب والغرب ، وتبعد (١٥٠كم) تقريباً عن كل من تلك المواقع المذكورة[١] . أما تسميتها بتدمر ، وأصل ذلك ، فلا يزال ذلك أمراً مجهولاً بالنسبة للمؤرخين ، على الرغم من الأبحاث التي قام بها بعضهم في هذا السبيل[٢] ويرى البعض أن أصل هذه التسمية يعود للغة الآرامية وتعني المعجزة. أما الرومان فقد أطلقوا عليها تسمية (بالميرا) نسبة إلى النخيل الذي يكثر في واحاتها الوافرة .

(١) برو . تاريخ العرب القديم ، ص١١١ – هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٥١ .

(٢) سالم . العرب قبل الإسلام ، ص١٧١ .

ويعود الفضل في وجود الواحة التي قامت عليها مدينة تدمر إلى نبع ماء غزير ، مياهه صالحه للشرب ، ويوجد بجانبه نبع كبريتي دافئ يستشفي به الناس ، كما يصح لسقي بعض الأشجار مثل : الزيتون والنخيل والرمان[1] .

وقد مكنها موقعها المهم لأن تصبح ملتقى للطرق التجارية المارة بها ، حيث كانت القوافل تتوافد إليها من سوريا ومصر والعراق وساحل الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية.

أما حدود الدولة التدمرية ، فإنها في البداية قد اقتصرت على مدينة تدمر والقرى والقبائل الواقعة بقربها . ولكنها توسعت بعد ذلك حتى شملت الدولة في عهد ملكتها الزباء ، كل من : بلاد الشام ، وآسيا الصغرى ، ومصر ، وغرب العراق ، وشمال غرب الجزيرة العربية[2] .

ثانياً : نشأتها :

يعود أقدم ذكر لمدينة تدمر إلى نقشين من مدينة ماري (تل الحريري) ، يرجعان إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وذكرت بعد ذلك في نقوش الملوك الآشوريين العائدة إلى القرن الثامن قبل الميلاد ، بصفتها موقع من المواقع التي اجتاحوها في طريقهم إلى بلاد الشام[3] . وفي الثلث الأخير من القرن الرابع قبل الميلاد صارت تدمر من جملة البلاد التي أخضعها الاسكندر المقدوني لحكمه . وقد أشار إليها الكاتب الروماني بليني في القرن الأول

(1) خربوطلي ، ص١٢٥ .

(2) يحيى . العرب في العصور القديمة ، ص٣٤٨ ـــ الشيبه . تاريخ العرب القديم ، ص١٤٢ ، ١٤٣ .

(3) هبو . ص١٥١ ـــ خربوطلي ، ص١٢٥ ، ١٢٦ .

الميلادي ، وهو أول كاتب كلاسيكي يتعرض لها ، كما ورد اسمها في كتب الكلاسيكيين الذين عاشوا من بعده ، مما يدل على ازدياد شهرتها خلال هذه الفترة[1].

وقد احتفظت مدينة تدمر بمكانتها خلال السيطرة السلوقية عليها ، وذلك لأن السلوقيين الذين حكموا سوريا والعراق ، قد شجعوا الطريق التجاري الذي يربط بين المنطقتين ، المار عبر مدينة تدمر[2]. وعندما حل الرومان بدلاً من السلوقيين في بلاد الشام خلال القرن الأول قبل الميلاد ، فإن تدمر ــ على ما يبدو ــ قد اعترفت بسيادتهم عليها ، ودخلت ضمن منطقة نفوذهم ، على أن النفوذ الروماني فيها كان في ذلك الوقت صورياً أكثر منه حقيقياً[3] .

وقد ظلت العلاقة بين تدمر والدولة الرومانية على ما هي عليه ، حتى كان عهد الامبراطور الروماني تراجان الذي ألحقها بالولاية العربية التي أنشأها عام (١٠٦م) على إثر قضائه على دولة الأنباط . وقد منحها خلفه هادريان حقوق أهل روما ، والتي منها : حق الملكية المطلقة ، والحرية الكاملة في إدارة شئونهم ، وحق إعفاء تجارهم من الضرائب . لذلك أخذت تدمر بالإزدهار ، وصار التدمريون يكثرون من تسمية أبنائهم بأسماء رومانية ، واتسع نشاطهم التجاري ، وازدادت ثروتهم ، واتسع العمران لديهم[4] .

[1] علي . المفصل ، ج٣ ، ص٨٥ ــ خربوطلي . تاريخ الوطن العربي ، ص١٢٥ ، ١٢٦ .
[2] العلي . صالح أحمد . محاضرات في تاريخ العرب ، ج١ ، بغداد ، ١٩٦٤م ، ص٤٧ .
[3] بني . عدنان . تدمر و التدمريون ، دمشق ، ١٩٧٨م ، ص٦٩ ، ٧٠ .
[4] خربوطلي . تاريخ الوطن العربي ، ص١٢٧ ، ١٢٨ .

أما على الصعيد السياسي والعسكري فنجد أن الحكومة التدمرية قد قوت علاقاتها مع الأباطرة الرومان ، الذين قدموا لها المعونة العسكرية والمالية للدفاع عن مصالحهما المشتركة[1].

ثالثاً : ملوكها :

على الرغم من معرفة اسم مدينة تدمر عبر هذه المدة الطويلة التي أشرنا إليها ، إلاَّ أن أقدم ملوكها الذين نعرفهم إنما يعودون إلى القرن الثالث الميلادي ، عندما ظهرت لنا أسرة أذينة التي استطاعت أن تفرض سيادتها على المدينة ، نظراً لما كانت تتمتع به هذه الأسرة من نفوذ ؛ مرده الثروة والجاه[2] . أما قبل عصر هذه الأسرة فقد كانت تدمر ـ على ما يبدو ـ تتمتع بحكم شوروي يقوم على أساس مجلس شيوخ ، يضم أصحاب الجاه والثروة من أهل المدينة ، ولكل عشيرة مجلس خاص بها ، يضم أفرادها البالغين . وللمدينة حاكم يسمى (آراخون) ، وموظف للشئون المالية ، وآخر مسؤول عن الأسواق[3] .

---

[1] المرجع نفسه ، ص١٢٨ .

[2] هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٥٣ .

[3] برو . تاريخ العرب القديم ، ص١٢١ .

أما ملوك تدمر الذين تسلسلوا من أسرة أذينة سالفة الذكر فهم :

أ ـ أذينة الأول :

الرأي الراجح أن أذينة هذا هو أذينة بن خيران بن وهب اللات[1] ، الذي توصل إلى منصب عضو في مجلس الشيوخ الروماني . وقد استطاع أن يحكم تدمر حكماً مباشراً على طريقة مجالس الشيوخ ، وألف قوة عسكرية من أبناء تدمر ، ومن أبناء القبائل المجاورة المتحالفة معها . وقد تمثلت مهمة هذه القوة في حفظ النظام والأمن في مدينة تدمر والمناطق الخاضعة لها ، إلى جانب حماية القوافل التجارية وحراسة أموالها . وقد استفاد أذينة من العناصر التدمرية التي كانت تخدم في الجيش الروماني وجعلها نواة لجيشه النظامي ، مما هيأ له تنفيذ خطته الرامية إلى إيجاد شخصية مستقلة لتدمر ، وقد نجح بذلك فأعلن نفسه ملكاً عام (٢٥٠م) . وكان يطمع في أن يستقل بتدمر عن الامبراطورية الرومانية ، ويقيم فيها مُلكاً له ولأفراد أسرته من بعده ، لكن الرومان سرعان ما لبثوا أن تنبهوا إلى خطورة ذلك ، فدبروا مؤامرة ضده قتل على إثرها[2].

ب ـ أذينة الثاني :

تولى بعد أذينة ابنه خيران ، فكان حكمه قصيراً ، ثم آل الحكم إلى ابنه معنو الذي كان طفلاً ، فآل الحكم إلى عمه أذينة الثاني بن أذينة الأول[3] . وقد كان أذينة الثاني على

---

[1] عاقل . تاريخ العرب القديم ، ص١٣٢ .

[2] هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٥٤ ـ عاقل ، ص١٣١ ، ١٣٢ .

[3] هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٥٤ .

درجة من القوة والشجاعة والفروسية فمنحه الامبراطور الروماني فاليريان لقب قنصل ، وقد طلب أذينة من الامبراطور أن يقتص له من قتلة أبيه أذينة الأول ، فلم يستجب الامبراطور لطلبه ، فغضب أذينة وتحين الفرصة المواتية ليأخذ بثأره ، وقد جاءته تلك الفرصة عندما انتصر الفرس الساسانيون بقيادة ملكهم سابور الأول بن اردشير على الجيش الروماني ، حيث وقع الامبراطور الروماني فاليريان أسيراً في قبضة الفرس .

وقد انتهز أذينة الثاني تلك الفرصة ، فأرسل رسله إلى سابور مع كتاب يتودد فيه إليه ، ويظهر له رغبته في موادعته . ويبدو أن سابور قد استهان بأمر أذينة ، فأساء استقبال رسله ، وأمر بإلقاء هداياه في النهر ، وتوعد أذينة بالعقاب الشديد على جسارته في مخاطبته ، فأثار ذلك التصرف أذينة ، حيث جمع فرسان تدمر بقيادة زبدا كبير قواده ، وزباي رئيس القواسين ورماة السهام ، وانضم إلى جيشه فلول الجيش الروماني المنهزم ، واصطدم مع جيش سابور في معركة عنيفة على ضفاف الفرات ، انتهت بهزيمة سابور هزيمة نكراء ، وتتبع أذينة فلول المنهزمين حتى أسوار عاصمتهم طيسفون (المدائن) الواقعة على نهر دجلة ، ولكنه لم يستطع تخليص الامبراطور الروماني من أسره .

ونتيجة لهذا الانتصار فقد كافأه الامبراطور الروماني الجديد ابن الامبراطور الأسير بأن منحه لقب " قائد عام جيوش الشرق " في عام (٢٦٢م) . وبدأ أذينة يسترجع أراضي الامبراطورية من الفرس ، فنجح في استردادها ، وكان لهذه الانتصارات أثرها العميق لدى الرومان ، فكافأه امبراطورهم مرة ثانية بلقب " امبراطور عموم الشرق " عام (٢٦٤م)[1] . وهذا يعني أن أذينة الثاني قد أصبح نائب الامبراطور الروماني المطلق في القسم الشرقي من

[1] سالم . العرب قبل الإسلام ، ص١٧٧ ، ١٧٨ .

الامبراطورية الرومانية . ولم يكتف أذينة بما ناله من تكريم فلقب نفسه بلقب " ملك الملوك"، ومنحه مجلس الشيوخ الروماني لقب " اغسطس " وهو لقب الأباطرة الرومان أنفسهم[١].

ولم ينس أذينة إهانة سابور له ، فعزم على مواصلة الحرب ضد الفرس ، فاتجه لحصار عاصمتهم طيسفون ، ولكنه اضطر لفك ذلك الحصار لرد هجوم القوط على آسيا الصغرى ، حينذاك ولى القوط الأدبار هاربين ، وأراد أذينة العودة لفتح العاصمة الفارسية ، ولكنه لقي حتفه في حمص على يد معنو إبن أخيه خيران في ظروف غامضة ومعقدة عام (٢٦٦-٢٦٧م)[٢] . ولعل روما هي من أوعزت بذلك الاغتيال خشية من نفوذ أذينة المتعاظم ، وريبتها في ولائه لها[٣] .

ج ـ الزباء (زنوبيا) :

أعلن معنو نفسه ملكاً على تدمر بعد اغتيال عمه أذينة الثاني ، ولكن لم يتسن له الجلوس طويلاً على عرش تدمر ، فقد لقي هو الآخر مصرعه على يد أهل حمص بعد أيام من مقتل عمه ، ولأسباب مجهولة أيضاً . وانتقل الملك من بعده إلى وهب اللات بن أذينة الثاني ، ولما كان وهب اللات صغيراً ، فقد جعلت والدته الزباء وصية عليه ، وحكمت باسمه[٤] .

---

[١] خربوطلي . تاريخ الوطن العربي ، ص١٣١ .

[٢] هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٥٥ ــ سالم . العرب قبل الإسلام ، ص١٧٩ .

[٣] خربوطلي . ص١٣١ .

[٤] هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٥٥ .

كانت زنوبيا ذات شخصية قوية ، تتحلى بتربية عالية ، تجيد الآرامية واليونانية ، وتتكلم بهما بمثل الطلاقة التي تتكلم بها العربية ، ولم تكن تجهل اللاتينية ، وكان لها اطلاع على التاريخ ، وكانت تتمتع بعبقرية فذة ، وتتميز بالجرأة والشجاعة ، وكانت ترتدي اللباس العسكري ، وتمتطي الجواد ، وتسير في مقدمة الجيش . ونظراً لتلك الصفات فقد كانت خير عون لزوجها أذينة الثاني الذي كان ينيبها عنه على تدمر أثناء خروجه في حملاته العسكرية[١].

وبعد أن جلست الزباء على عرش تدمر وصية على ابنها شعرت بقوتها ، وذلك بعد أن أصبح تحت تصرفها جيش بلغ من القوة والبأس ما تستطيع أن تتحدى به الامبراطورية الرومانية نفسها . فلم تعد تهتم بالخضوع لها ، واحتقرت مجلس الشيوخ الروماني الذي لم يعترف لها بما كان لزوجها من سلطة ، فآلت على نفسها أن تنتقم لزوجها الذي اعتقدت أن الرومان هم الذين دبروا مؤامرة قتله ، فما كان من الرومان إلاّ أن سيروا إليها حملة تظاهرت باتجاهها لمحاربة الفرس الساسانيين ، لكنها في الواقع كانت موجهة لإخضاع تدمر ، فقابلتها الزباء ، وهزمتها ، وقتلت قائدها . ثم اغتنمت المشاكل الداخلية لروما ، الناتجة عن المنافسة على عرش الامبراطورية ، إلى جانب قيام الجرمان بحركات تمرد في بلاد الغال التابعة لروما ، فوجهت جيشها إلى مصر ، وتمكنت من احتلالها بقيادة قائدها زبدا[٢] عام (٢٧٠م) . ويبدو أن الرومان هادنوا الملكة ، واتفقوا معها على أن تكون مصر تابعة لهم إسمياً ، ويكون الحكم الفعلي فيها لتدمر ، فظهرت صورة وهب اللات إلى جانب صورة

---

[١] برو . ص١١٧ .

[٢] برو . ص١١٧ ، ١١٨ .

الامبراطور الروماني على عملة تدمرية سكت في الاسكندرية ، وهذا يعني أن وهب الـلات قد أصبح يحكم مصر نيابة عن الامبراطور الروماني . وبذلك بلغت الدولـة التدمريـة أوج اتساعها ، حيث أصبحت تشمل كل من سوريا وآسيا الصغرى ومصر وغـرب العـراق وشمال غرب الجزيرة العربية[1] .

شعرت الزباء حينئذ بأنها أصبحت على درجة من القوة تسمح لها بأن تعلن استقلالها التام عن الامبراطورية الرومانية ، فاتخذت لقب " أوغسـطة " ، ولقبـت ابنـها بلقـب " أوغسطس " ، وأقامت المنشآت الضخمة في تدمر ، وزينتها بالأعمدة الضخمة والتماثيل ، وعملت على تقوية حدودها في الشرق ضد الفرس ، وفي الشمال ضد الرومـان ، لأنهـا كانت تتوقع هجومهم في أي وقت[2] .

رابعاً : نهايتهـا :

بعد أن تمكن الامبراطور الروماني أورليان من دحر المتمردين ، وتفـرغ لاخضـاع تدمر ، كان على الزباء أن تواجه ذلك بنقض الاتفاق المعقود مع روما ، وأردفـت ذلـك بإسقاط صورة الامبراطور من على النقود التي تسك في مصر . أما أورليان فلم يبدأ هجومه على تدمر من جهة آسيا الصغرى كما كان المتوقع ، بل بدأ بمصر ، مستغلاً ضعف وسائل الدفاع عنها ، وذلك أن الزباء كانت قد سحبت من مصر معظم قواتها لتعزز بها جبهة آسيا الصغرى ، اعتقاداً منها بأن المصريين الناقمين على الرومان سوف يهبـون للـدفاع عـن

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٥٦ .

(2) المرجع نفسه ، ص١٥٧ .

بلادهم ، وقد خاب ظنها ، حيث تمكن الرومان من استمالة قسم منهم ، فأحرزوا بـذلك انتصاراً ، وتمكنوا من استعادة سيطرتهم على مصر عام (٢٧١م) . ثم التفت أورليان إلى الشرق ، وتقدم لمحاربة الزباء من عدة جهات ؛ فمن البحر أرسل أسطولاً كبيراً لاحتلال أنطاكية ، ومن البر زحف نحو آسيا الصغرى ، فتراجعت الجيوش التدمرية إلى أنطاكية[١] .

هاجم الامبراطور الروماني أنطاكية ، حيث اجتمعت جيوش التدمريين المنسحبة من أمام الرومان ، والتقى الطرفان في معركة فاصلة انهزم فيها التدمريين بعد وقوع فرسانهم في فخ نصبه الرومان لهم ، فانسحبت الملكة زنوبيا بجيشها إلى حمص ، فلحق بها الرومان ، واشتبك الطرفان من جديد في معركة أسفرت عن هزيمة أخرى للجيش التدمري[٢] .

وهكذا أصبح الطريق إلى تدمر مفتوحاً لإخضاعها ، فتقدم أورليان نحو مدينة تدمر ، وحاصرها من جميع الجهات ، فامتنعت عليه . وقد رفضت الزباء تسليم المدينة له مقابل شروط معتدلة ، وكانت تأمل بمساعدة الفرس لها ، لكن هؤلاء كانوا مشغولين بأنفسهم وبمشاكلهم الداخلية . وقد انتظرت الزباء حلول المجاعة بالرومان المحاصرين لها ، ولكن دون جدوى ، ذلك أن الإمدادات العسكرية والغذائية كانت تأتيهم دون انقطاع ، خصوصاً من مصر . حينئذ أدركت الملكة أنها تحارب في معركة خاسرة ، فحاولت الخروج إلى البادية ومن ثم إلى بلاد فارس ، لكن الرومان تمكنوا من القبض عليها وهي تهم بعبور الفرات إلى الضفة الأخرى عام (٢٧٣م) . حيث تمكن الرومان بعدها من دخول تدمر فارضين غرامة على أهلها ، مع تعيين حاكم روماني عليها ، وأخذ النفيس من مصنوعاتها وزخارفها الثمينة ،

---

(١) برو . ص١١٨ .

(٢) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٥٧ .

مع إعدام مستشاري الملكة لتشجيعهم لها على التخلص من وصـاية الرومـان . غـير أن التدمريين لم يركنوا إلى الاستسلام ، فقاموا بثورة أودت بحياة الحاكم الروماني ، وقضت على الحامية التي خلفها أورليان في تدمر ، فعاد أورليان بجيشه إلى تدمر بسرعة مذهلة ــ ولم يَكن قد ابتعد عنها كثيراً ــ أواخر عام (٢٧٣م) . فهدم المدينة وأعمل السيف في أهلها ، واقتاد معه الزبا إلى روما ــ وكان ابنها وهب اللات قد لقي مصرعه وهو يدافع عن المدينة ــ وقد ازدان موكب النصر الامبراطوري بالزباء وهي محملة بالجواهر مقيدة بالسلاسل الذهبية عام (٢٧٤م) ، وقدمت للملكة دار خاصة بها أمضت فيها ما تبقى لها من سني حياتها[1].

أما مدينة تدمر فقد زالت أهميتها من التاريخ ، حيث دخلت تدريجياً في عالم النسيان ، وبدأت الصحراء تطغى عليها ، ولم يبق من آثار مجدها البعيد سوى بعض الآثار العمرانيـة الرائعة التي تذكر بتاريخ المدينة العظيم[2].

---

(١) هبو .العرب قبل الإسلام ، ص١٥٧ ، ١٥٨ ــ عاقل ، ص١٣٩ ، ١٤٠ .

(٢) عاقل ، ص١٤٠ .

الفصل الثالث

دولة الحضر

أولاً : موقعهـــا :

تقع مدينة الحضر إلى الجنوب الغربي من مدينة الموصل ، على وادي الثرثار ، الـــذي يمتد في المساحة الفاصلة بين دجلة والفرات إلى الشمال من بغداد . أما اسم الحضر ، فقـــد يفهم من أول وهلة أن له صلة بالتحضر ، إلاّ أنه من الأسلم القول بأنه مرتبط بالحظْر ، أي المنع ، وذلك لقدسية المكان[١] .

وقد ساعد موقع مدينة الحضر الاستراتيجي في جعلها ملتقى للطرق التجارية ، سواء كانت قادمة من الشرق (بلاد فارس) ، أو من الجنوب (الخليج العربي) ، أو من الغرب (سوريا والبحر المتوسط) ، أو من الشمال (آسيا الصغرى)[٢].

أما حدود دولة الحضر فقد امتدت لتشمل المساحة الواقعة بين دجلة شرقاً ، والفرات غرباً ، وجبل سنجار شمالاً ، ومشارف المدائن (بالقرب من بغداد) جنوباً . وقد تجـــاوزت حدودها من الناحية الشمالية جبل ســـنجار في بعـــض الفتـــرات فوصـــلت إلى الخـــابور ونصيبين[٣] .

---

(١) الشمس . ماجد عبد الله ، الحضر العاصمة العربية ، بغداد ، ١٩٨٨م ، ص١٥٨٤ .

(٢) الشيبه . تاريخ العرب القديم ، ص١٥٨ .

(٣) حربوطلي ، ص١٥٦ .

ثانياً : نشأتها :

من المعتقد أن موقع مدينة الحضر كان في زمن الآشوريين قرية قائمة ، أما بعد سقوط الدولة الآشورية عام (٦١٢ق . م) ، وانهيار تحصيناتها ، وتداعي ثغورها ، فقد أخذت القبائل العربية الجديدة تتدفق على جزيرة بادية العراق الشمالية ــ التي تتوسطها مدينة الحضر ــ وذلك من الغرب والجنوب الغربي ، وكان تدفق القبائل العربية على هذه المنطقة سريعاً وكبيراً ، حتى أن تلك البادية ــ الواقعة بين نهري دجلة والفرات ــ صارت تعرف بعد سقوط الدولة الآشورية بنحو قرن من الزمان باسم عربايا[١] .

وقد أدى تدفق القبائل العربية على مدينة الحضر إلى أن تصبح هذه المدينة موقعاً لأصنام تلك القبائل ، الأمر الذي جعل هذه المدينة تحصل على أموال كثيرة من خلال تقديم الخدمات الدينية للحجاج والزائرين[٢] .

وقد ظلت مدينة الحضر تخضع للدول التي حكمت العراق ــ بعد سقوط الدولة الآشورية ــ بدئاً بالكلدانيين ومن بعدهم الفرس الأخمينيين ، ثم السلوقيين ، وأخيراً الفرس الفرثيون ، وذلك قبل أن تبدأ الأدوار التاريخية الخاصة بمدينة الحضر ودولتها .

---

(١) سفر ، ص٥ .

(٢) الشمس ، ص٧٧ .

ثالثاً : أدوارها التاريخية :

استطاع الباحثون ـ بمساعدة النقوش والمعلومات المتيسرة ـ تقسيم تاريخ الحضر إلى ثلاثة أدوار على النحو التالي :

أ. دور التكوين :

لا يعرف متى بدأ هذا الدور ، إلاّ أن مدينة الحضر أخذت تنمو منذ منتصف القرن الأول قبل الميلاد بصفتها حصناً منيعاً . ويعتقد أن زعماؤها كانوا يستفيدون قبل ذلك من الخلاف الذي كان قائماً بين الفرس الفرثيين وبين اليونان السلوقيين ، حيث استغلوا ذلك الخلاف بذكاء وحنكة ، فحصلوا على أموال من كلا الطرفين ، وذلك لأهمية موقع مدينتهم الاستراتيجي المتوسط بين الجانبين[1]، وقد ساعدهم على ذلك تمرس أهل مدينتهم في شؤون الحروب ، ونزعتهم التواقة إلى الحرية والاستقلال ، ومكانة الحضر الدينية بين القبائل ، إلى جانب موقعها الجغرافي النائي وسط البادية[2] .

والمعتقد أن السلطة في الحضر خلال هذا الدور كانت موزعة بين الشيوخ ، الذين كانوا يعرفون بكلمة (ربا) أي الزعيم ، وبين السدنة الذين يطلق على الواحد منهم (رب ـ بيتا) أي سيد البيت ، والمقصود بالبيت هنا هو المعبد الكبير ، وقد كان سيد البيت هذا مسؤول عن سلامة المعبد ومحتوياته ونظافته ، وعن زيادة كنوزه وأوقافه ، وهي ليست مرتبة دينية ، لأن الأمور الدينية كانت موكلة إلى كهنة آخرين يرأسهم (الأفكل)

---

(1) علي . المفصل ، ج٢ ، ص٦٠٩ ، ٦١٠ .

(2) سفر . ص١٧ ، ١٨ .

أي رئيس الكهنة . وقد كان لهؤلاء الكهنة مع قادة الجيش ، وأرباب القوافل ، دور في تسيير أمور المدينة التي يعتقد أنها كانت تدار في اجتماعات بصورة مجلس هو أشبه بمجلس شورى ، وربما كان المنخفض المدرج في المعبد الكبير مخصصاً لتلك الاجتماعات(١) .

ب ـ دور السادة :

انتهى دور التكوين في منتصف القرن الأول الميلادي تقريباً ، بظهور حكام جدد للحضر ، كان الواحد منهم يتلقب بلقب (مريا) أي السيد ، ويمكن أن نرتب هؤلاء السادة على النحو التالي (٢):

ـ السيد : نشر يهب الأول .

ـ السيد : ورود .

ـ السيد : نصرو .

ـ السيد نشر يهب الثاني .

ـ السيد : معنو .

ـ السيد : ولجش بن نصرو (سيداً).

ويحتمل أن هؤلاء السادة كانوا من عائلة واحدة ، وكانت الحضر في زمنهم تقوم بتصريف شؤونها الخاصة . وقد اشتد الخلاف في مطلع هذا الدور بين الفرثيين والرومان

---

(١) سفر ، ص٢٧ .

(٢) المرجع نفسه ، ص٣٧ ــ شمس ، ص٥٠ .

الذين كانوا قد حلوا بدلاً عن السلوقيين في سوريا (بلاد الشام) . وقد انتهى ذلك الخلاف بعقد معاهدة صلح برغبة صادقة من الطرفين في سلام دائم ، وأصبحت نافذة المفعول منذ عام (٦٥م) . وقد انتعشت الحضر كثيراً في فترة السلم هذه ، وأثرى أهلها[١] .

تجدر الإشارة إلى أن دعائم السلم في المنطقة قد بدأت في التداعي عندما جلس تراجان على العرش الروماني ، فتولدت فكرة تحصين الحضر لتكون خط الدفاع الأول عن العاصمة الفرثية طيسفون (المدائن) . وفي الفترة التي كان فيها عرب الحضر يحصنون مدينتهم كان تراجان يجول في أرجاء الشرق حيث حل في أنطاكية عام (١١٤م) . ثم في ارمينيا التي أخضعها لحكمه . وقد أمضى تراجان زماناً في الرها ، وفي ربيع عام (١١٦م) عبر تراجان الفرات ثم دجلة ، حيث تمكن من إخضاع مملكة حدياب (الواقعة بين الزابين) . ولما رأت الحضر ذلك فضلت مهادنة الرومان ، لذلك توجه تراجان نحو المدائن ، ومنها إلى ميسان ، ثم إلى الخليج العربي[٢] .

لم يدم النصر الخاطف الذي حققه تراجان طويلاً ، ففي السنة نفسها أعلنت عدد من المدن والأقاليم العصيان عليه ، وكان من بينها الحضر . وقد سار تراجان بنفسه إلى الحضر ، وألقى الحصار عليها ، بيد أن مساعيه لاقتحام أسوارها باءت بالفشل ، فتخلى عنها منسحباً إلى أنطاكية ، حيث توفي بعد ذلك بقليل ، عام (١١٧م) . ويعتقد أن السيد نصرو هو الذي قاد الدفاع عن المدينة ، وهو الذي كان من أحفاده ملوك دولة الحضر[٣] .

---

(١) خربوطلي ، ص١٦١ .

(٢) شمس ، ص٥١ .

(٣) الشيبه . تاريخ العرب القديم ، ص١٦٦ ، ١٦٧ .

ج ـ دور الملوك :

بدأ هذا الدور قريباً من منتصف القرن الثاني الميلادي[1] . وقد حكم الحضر خلاله عدداً من الملوك الذين جاءتنا أسماؤهم متفرقة دون تتابع ، إلاّ أنه وجد مؤخراً نقش حضري أمكن من خلاله معرفة تتابع الملوك بشكل ثابت ، وعليه أمكن وضع الترتيب التالي للملوك الحضر[2].

ـ الملك : ولجش بن نصرو (ملكاً) .

ـ الملك : سنطروق الأول بن نصرو .

ـ الملك : عبد سميا بن سنطروق .

ـ الملك : سنطروق الثاني بن عبد سميا .

وعلى الرغم مما كان لعهد الملكية من أهمية بارزة في تاريخ الحضر ، إلا أن ما نعرفه عن أولئك الملوك ينحصر في أعمالهم العمرانية ، أما أعمالهم السياسية فلا نعرفها إلاّ من خلال المقارنة والاستنتاج لما وصلنا من معلومات متناثرة ، ضمن الأحداث التي شهدتها المنطقة ككل[3] . وتجدر الإشارة إلى أن الحضر قد نعمت بقسط وافر من الاستقلال خلال هذا الدور ، وتوسع نفوذها حتى بلغ إلى ما بعد نهر الخابور[4].

---

[1] خربوطلي ، ص١٦٣ .

[2] الشمس ، ص٥١ .

[3] الشمس ، ص٥١ .

[4] خربوطلي ، ص١٦٣ .

وفي هذا الدور خرق الملك الفرثي السلم الذي كان قائماً مع روما منذ الفترة التي تلت عهد تراجان ، وكان ملك الحضر حينئذ هو سنطروق الأول ، الذي اتخذ موقفاً محايداً من الحرب الجديدة ، لا سيما أن البيت المالك في المدائن كان مضعضعاً بسبب الصراع المستمر بين أبنائه . ويعتقد أن سنطروق الأول هو أول من سك النقود في دولة الحضر ، ومن المرجح أن ذلك كان بترخيص من الرومان ، وذلك دليل على أن الملك الحضري قد نال رضى الرومان[1] .

وقد لقب سنطروق الأول نفسه بملك العرب ، وقد يعني ذلك أن نفوذه ربما امتد بعيداً في الجزيرة الفراتية ، وساعده على ذلك فترة السلام والاستقرار التي سادت بلدان الشرق بعد الحرب المشار إليها ، وقد امتدت فترة السلم هذه لمدة ناهزت الثلاثين عاماً[2].

ولما اعتلى عبد سميا العرش خلفاً لأبيه سنطروق ، حاول الامبراطور الروماني سفيروس الاستيلاء على مدينة الحضر عام (١٩٩م) . لكنه فشل مرتين . وقد دافع أهل الحضر عن مدينتهم دفاعاً عنيداً ، حيث استخدموا أقواساً مركبة ترمي سهمين في وقت واحد ، كما قاموا بحرق النفط ، وقذف الجرار المليئة بالحشرات فوق رؤوس المهاجمين ، وقد اضطر ذلك الامبراطور سفيروس لأن يعود من حيث أتى بعد ما دام حصاره للمدينة عشرين يوماً[3].

(١) سفر ، ص٣١ .

(٢) خربوطلي ، ص١٦٣ ، ١٦٤ .

(٣) مجموعة مؤلفين . العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣م ، ص٢٥٨ .

وعندما خلف سنطروق الثاني أباه عبد سميا ، كانت الحضر ما تزال تنعم بمكاسب صمودها ، وقد ذاع صيتها ، وامتد نفوذها بعيداً عبر الفرات ، مما دفعه لأن يلقب نفسه بـ " المظفر ملك البلاد العربية " . ويبدو أن سنطروق الثاني قد اتخذ هذا اللقب لأنه هو الذي تولى الدفاع عن الحضر في عهد أبيه الذي يحتمل أنه كان طاعناً في السن حينذاك . وقد أصبح للحضر في عهد سنطروق الثاني الاستقلال الكامل في تصرفاها ؛ تتصل بمن تشاء وتحالف من تريد[1] .

رابعاً : نهايتها :

ظهر الفرس الساسانيون خلفاء للفرس الفرثيين في إيران في مطلع القرن الثالث الميلادي ، حيث توج اردشير الساساني نفسه ملكاً في المدائن ، لكن الحضر وأقاليم أخرى لم تعترف له بالولاء . ويعتقد أن الحضر قد سمحت بتواجد حامية رومانية فيها ، ابتداء من عام (٢٣٥م) تقريباً . وفي هذه الفترة الصعبة تولى قيادة الجيوش الحضرية عبد سميا بن الملك سنطروق الثاني ، الذي كان ولياً للعهد ، حيث ترك له والده في شيخوخته تصريف أمور الدولة[2] .

وقد تحرك الملك الساساني الجديد ، سابور الأول ، في ابريل (٢٤٠م) لحصار مدينة الحضر حيث صمدت المدينة أمام ذلك الحصار الذي استمر عاماً كاملاً ، حتى اضطرت أخيراً إلى الاستسلام بعد أن فقدت القدرة على الدفاع ، بسبب الحصار ، فدخلها سابور منتصراً ، وعمل على أسر أهلها ، وأخذ كل ما فيها مما يمكن حمله ، وتركها خاوية على

---

[1] الشيبه . تاريخ العرب القديم ، ص١٧٠ ، ١٧١ .

[2] المرجع نفسه ، ص١٧١ ، ١٧٢ .

عروشها[1] . حيث أسدل الستار بذلك على هذه المدينة العربية ودولتها التي أقامتها ، حتى أميط عنها اللثام في العصر الحديث بصفتها موقع أثري يشهد على عظمة العرب في تاريخهم التليد .

وتروي كتب أهل الأخبار أن سقوط المدينة في يد سابور ، كان سببه خيانة الأميرة النضيرة بنت الضيزن ملك الحضر . وذكروا أنها دلت سابور على طريقة دخول المدينة بعد أن أعجبت به وطلبت منه أن يتزوجها مقابل ذلك[2]. بيد أن اسم الأميرة ، واسم والدها الملك لا وجود لهما في كتابات الحضر المعروفة ، وليس هناك من دليل حتى الآن على أنهما شخصيتان تاريخيتان[3] .

(1) خربوطلي ، ص١٦٤ ــ الشمس ، ص٥٦ .
(2) ابن هشام . السيرة النبوية ، مج١ ، ج١ ، القاهرة ، ١٩٩٠م ، ص٤٤ ، ٤٥ .
(3) سفر ، ص٣٤ .

الباب الرابع

الدول العربية المتأخرة

تمہید

الدول العربية المتأخرة

تمهيد :

أطلقنا هذه التسمية على الدول العربية التي ظهرت في عصر متأخر ، مقارنة لها بالدول التي ظهرت في عصر مبكر إلي حد ما والتي درسناها في الباب السابق . وسوف ندرس في هذا الباب دول: المناذرة (الحيرة)، والغساسنة، وكنده .

وقد جمعنا هذه الدول في باب واحد نظراً لتشابه أوضاعها ؛ فسبب قيام كل منها قد تمثل – بدرجة أساسية – في كونها دولة حامية لدولة كبرى مجاورة لها .

وقد كان ذلك عائداً لظروف خارجية وداخلية، وقد تمثل الظرف الخارجي في تدهور أوضاع الإمبراطوريتين المجاورتين للجزيرة العربية (الفارسية والرومانية البيزنطية) ، وزيادة الاصطدامات العسكرية بينهما . أما الظرف الداخلي فقد تمثل في هجرات القبائل العربية القادمة من جنوب الجزيرة نحو الأطراف الشمالية للجزيرة ، وكانت أبرز تلك الهجرات هي هجرة التنوخيين ومنهم اللخميين ، وهجرة الغساسنة . وانتهى الأمر إلى أن أصبح كل من هذين التجمعين القبليين يشكل كياناً أساسياً يمكن أن نسميه دولة أو إمارة ، ثم ما لبثت هاتان الدولتان أن دخلتا في علاقة تبعية كل مع الإمبراطورية المتاخمة لها ؛ حتمتها حاجة هاتين الإمبراطورتين إلى من يدافع عن حدودهما الفاصلة بينهما، أو المتاخمة للجزيرة العربية. حيث دخلت دولة المناذرة في علاقة تبعية مع الإمبراطورية الفارسية (الساسانية) ، ودخلت دولة الغساسنة في علاقة مماثلة مع الدولة الرومانية (البيزنطية) ، وقامت كل دولة بالمهمة الموكلة إليها، وفي بعض الأحيان كان الأمر ينتهي بأن ينحصر الصراع بين هاتين الدولتين نفسهما، دفاعاً عن مصالح القوى الكبرى[1] .

---

[1] يحي . العرب في العصور القديمة ، ص٤٣٥ – ٤٣٧ .

وكان المناذرة والغساسنة يتمتعون بالاستقلال الذاتي في إدارة شؤونهم الداخلية ، مع التزامهم بتبعية سياسة أسيادهم الفرس والبيزنطيين ، ولكن ذلك لا يعني بالضرورة أن ملوك دولتي المناذرة والغساسنة كانوا مجرد دمى في أيدي الأكاسرة والقياصرة يحركونهم كيفما يشاءون[1] ، حيث سنرى من خلال دراستنا لتاريخ هاتين الدولتين كيف استطاع بعض ملوكها تحدى الفرس والبيزنطيين والخروج عن سياساتهم .

أما دولة كنده فقد ربطتها علاقة خاصة بالدولة الحميرية ، تشبه إلى حد بعيد تلك العلاقة التي ربطت المناذرة مع الفرس ، والغساسنة مع البيزنطيين وقد فرض الحميريون بواسطة الدولة الكندية سلطتهم على القبائل المعدية في وسط الجزيرة العربية، وإن كان ذلك لم يمنع الكنديين من إقامة علاقة مباشرة مع الفرس والبيزنطيين، خصوصاً في فترات ضعف الدولة الحميرية ، حيث كان الكنديون يضطرون إلى أن يبحثوا لهم عن حلفاء جدد من الفرس والبيزنطيين ، الذين كانوا بدورهم يرحبون بمثل تلك العلاقة ، نظراً لسيطرة الدولة الكندية – في دهرها الثاني – على منطقة وسط الجزيرة العربية، خصوصاً بعد أن امتدت سيطرتها لتشمل الأراضي الممتدة من حدود الدولة الحميرية جنوباً ، إلى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية شمالاً[2] .

وهناك صفات أخرى تجمع بين هذه الدول وتتمثل بظهور اللغة العربية لدى سكان هذه الدول بوضوح ، حيث نرى شعراء العرب الجاهليين وقد وفدوا إلى قصور ملوك الدولتين : اللخمية والغسانية ، يمدحونهم ويستوهبون عطاياهم . أما دولة كنده فيكفيها أنها أمدتنا بأقدم هؤلاء الشعراء ، وهو الأمير الشاعر امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي.

---

(١) هبو ، العرب قبل الإسلام، ص١٢٩ .

(٢) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص١٠٢ ، ١٠٣ .

الفصل الأول

دولة المناذرة (الحيرة)

أولاً : موقعهـــا :

تقع الحيرة عاصمة دولة المناذرة إلى الجنوب الغربي من مدينة الكوفة ، بالقرب مـــن مدينة النجف الحالية ، التي تقع في الجهة الغربية لنهر الفرات ، ذلك النهر الذي أصبح يمثل الحد الفاصل بين أراضي هذه الدولة وأراضي الإمبراطورية الساسانية .

وقد امتد نفوذ دولة المناذرة في عصور ازدهارها ليشمل جنوب بلاد الشام – قبـــل قيام دولة الغساسنة – إلى جانب مناطق وسط الجزيرة العربية ، خصوصاً في عهـــد ملكهـــا امرؤ القيس بن عمرو، صاحب نقش النمارة الشهير .

ويزعم بعض أهل الأخبار أن الذي بنى مدينة الحيرة ، هو نبوخذ نصر (بختنصـــر) ، وأنها خربت بعد وفاته . بينما يجعلها بعضهم من بناء التبع الحميري أسعد الكامل . ويـــرى بعض المؤرخين المحدثين أنها مدينة فرثية . أما أقدم نقش تاريخي يذكر هذه المدينة فيعـــود إلى عام (١٣٢م) ، ولكن المؤكد أن هذه المدينة لم يكن لها شأن قبل أن تصبح عاصمة لدولـــة المناذرة ، فإليهم يعود الفضل في شهرتها ، وعلو شأنها ابتداءً بالملك عمرو بن عدي . وقـــد اختلف المؤرخون في تفسير معنى اسمها ومصدر اشتقاقه ، والأرجح أن الحيرة كلمة سريانية

تعني المخيم أو المعسكر ، وقد اشتهرت الحيرة عند العرب برقة هوائها وصفاء جوها وعذوبة مائها ، حتى أنهم قالوا ((يوم وليلة في الحيرة ، خير من دواء سنة))[1] .

ثانياً : نشأتها

تسمى دولة المناذرة بذلك نظراً لكثرة من تسمى من ملوكها بالمنذر ، وتسمى كذلك بالدولة اللخمية نسبة إلى قبيلة لخم التي ينتمي إليها ملوك الحيرة ، ويمكن تسميتها أيضاً بدولة الحيرة نسبة إلى عاصمتها .

ولا يعرف على وجه اليقين متى كان نشوء هذه الدولة ، ويعيد المؤرخون ذلك إلى زمن هجرة قبيلة تنوخ وتمصيرها للحيرة ، وقد اختلف النسابة حول هذه القبيلة وأصلها ، حيث يرى بعضهم أنها قبيلة يمنية[2] ، بينما يرى آخرون أنها عبارة عن تحالف مكون من قبائل يمنية ومضرية اجتمعت في البحرين ، ثم تحالفت وتعاقدت على التناصر والتآزر ، فصارت يداً على الناس ، وضمها تنوخ[3] . ويرى بعض المؤرخين أن تنوخ هي المذكورة لدى الكتاب اليونانيين باسم تانويت (**Thanauite**)[4] .

والراجح أن التنوخيين قد نزلوا البحرين (الإحساء) في بداية أمرهم ، ثم انتقلوا إلى منطقة الحيرة في مطلع القرن الثالث الميلادي ، منتهزين فرصة انشغال الفرس بالصراع على

(1) سالم ، ص٢٢٣-٢٢٥ ، هبو . العرب قبل الإسلام ، ص ١١٧ .

(2) القلقشندي / ص١٨٩ . الدنيوري ، ص٥٤ .

(3) الأندلسي ، ص٤٥٣ .

(4) زيدان ، ص١٩٥ .

الحكم بين الفرثيين والساسانيين[1] ، حيث شكلوا القسم الأهم من مجتمع الحيرة الذي شمل إلى جانبهم العباد والأحلاف .

ويرى البعض أن الضيزن الذي أشارت إليه المصادر العربية اسماً لآخر ملوك دولة الحضر ، إنما هو زعيم لتحالف قبائل تنوخ التي جعلت من مدينة الحيرة مركزاً لها ، انتشرت منه في العراق والشام ، وأن سابور الأول أغار عليهم ، فذهب أغلبهم – بعد هزيمتهم – إلى مدينة الحضر بزعامة الضيزن ، ليحتموا بأسوارها برضى من ملكها سنطروق الثاني ، وتحالفوا معه ، حيث حارب الملكان (سنطروق والضيزن) في صف واحد للدفاع عن المدينة ، وذلك يفسر لنا قول كتب أهل الأخبار بأن الضيزن كان ملكاً للحضر[2] .

وتذكر المصادر العربية ملكاً آخر من ملوك الحيرة هو مالك بن فهم ، وأن ملك الحيرة قد انتقل من بعده إلى جذيمة الأبرش ، وتعده حليفاً للساسانيين ، ومعاصراً للمكلة التدمرية الزباء التي فقد حياته على يدها ، ولكن ابن اخته عمرو بن عدي تمكن من الانتقام له ، وأصبح ملكاً للحيرة خليفة لخاله جذيمة[3] . ونحن وإن كنا لا نعرف أي شيء عن جذيمة الأبرش والملوك السابقين له من خلال المصادر التاريخية الأخرى ، إلا أننا نعرف اسم عمرو بن عدي من خلال نقش إيراني يشير إلى أن عمرو هذا قد أصبح ملكاً على الحيرة في أواخر

[1] هبو ، العرب قبل الإسلام ، ص١٩٥ .

[2] خربوطلي ، ص ١٦٥ .

[3] اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، بيروت ، ١٩٦٠م ، ص٢٠٨ .

القرن الثالث الميلادي[1] . وهذا قد يؤكد لنا صدق ما جاء في المصادر العربية عن الملوك الأوائل السابقين لعهد عمرو بن عدي ، الذين لا يبعدون كثيراً عن هذا التاريخ ، فالضيزن كان معاصراً لسقوط الحضر عام (٢٤١م) ، وجذيمة الأبرش كان معاصراً للملكة التدمرية زنوبيا التي سقطت الدولة التدمرية في عهدها عام (٢٧٣م) .

ثالثاً : ملوكها :

يعد عمرو بن عدي المؤسس الحقيقي لدولة المناذرة ، وأول ملوك الحيرة من الأسرة اللخمية التي تنتمي إلى تنوخ[2] . وقد تسلسل ملوك هذه الدولة من سلالة عمرو بن عدي . وسوف نقتصر هنا على تناول أشهر هؤلاء الملوك وأبرزهم ، وهم :

أ – امرؤ القيس بن عمرو :

حكم امرؤ القيس بين عامي (٢٨٨-٣٢٨م) تقريباً ، وقد استفاد من فترة الاضطراب التي رافقت جلوس الملك سابور الثاني على العرش الساساني عام (٣١٠م) ، وكان صبياً ، حيث استغل امرؤ القيس ذلك فوسع سلطانه على القبائل العربية في بادية الشام ، ووسط شبه الجزيرة العربية ، ويتضح لنا ذلك من خلال نقش النمارة ، الذي هو عبارة عن شاهد لقبر هذا الملك[3] . ونص النقش هو على النحو التالي :

---

(١) شهيد ، عرفان ، حملة امرؤ القيس على نجران ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج١ ، الرياض ، ١٣٩٩هـ ، ص٧٤ .

(٢) هبو ، العرب قبل الإسلام ، ص١١٨ .

(٣) برو ، ص١٢٧ .

" هذا قبر امرئ القيس بن عمرو ملك العرب كلها ، الذي تقلد التاج وأخضع قبيلتي أسد ونزار وملوكهم ، وهرّب مذحج إلى اليوم ، وقاد الظفر إلى أسوار نجران مدينة شمّر ، وأخضع معداً ، واستعمل بنيه على القبائل ، وأنابهم عنه لدى الفرس والروم ، فلم يبلغ ملك مبلغه " .

ويسود الاعتقاد بين الدارسين بأن امرأ القيس لم يقم بهذه الحملة لحسابه ، وأن الحملة التي يتحدث عنها نقشه المذكور ما هي إلا نفس الحملة التي تحكي كتب الأخبار أن الملك الفارسي سابور ذو الأكتاف (سابور الثاني) قد قام بها ضد جزيرة العرب والتي شملت البحرين واليمامة حتى وصلت إلى قرب يثرب (المدينة)[1] ، خصوصاً أن الطبري[2] يذكر أن امرأ القيس كان عاملاً لسابور على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر من بادية العراق والحجاز والجزيرة . ولا يستبعد البعض أن يكون امرؤ القيس قد قام بهذه الحملة لصالح الروم نظراً لمهاجمته لمدينة نجران التابعة للملك الحميري شمريهرعش الذي كانت دولته تتمتع بعلاقات حسنة مع الفرس[3] ، ويفسرون ولائه المشترك للفرس والروم في وقت واحد أن حكمه جاء بعد معاهدة السلام بين الفرس والروم عام (٢٩٧م)[4] . بينما يرى آخرون أن ما شهدته الجزيرة العربية خلال هذه الفترة من صراع بين شمريهرعش وامرئ القيس بن عمرو إنما كان بسبب سقوط تدمر على يد الرومان عام (٢٧٣م) ، حيث أحدث ذلك

(١) شهيد ، ص٧٤، ٧٥ ، عبد الله ، يوسف ، أوراق في تاريخ اليمن وآثاره ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص٢٧٥ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك ، ج١ ، بيروت ، ١٩٨٨م ، ص٤٠٠ .

(٣) شهيد ، ص٧٤، ٧٥ ، عبد الله ، أوراق ، ص٢٧٦ .

(٤) Beeston. Nemara and Faw, PP5,6 .

فراغاً في المنطقة ، لعل من آثاره أن أصبحت الجزيرة العربية ميداناً للتسابق بين الملكين القويين[1] .

ب – النعمان (الأول) بن امرؤ القيس :

هناك خلاف حول عدد الملوك الذين حكموا بين امرئ القيس بن عمرو وابنه النعمان الأول ، ويعتقد أن صراع قد دار بين أبناء امرئ القيس ومنافسيهم على عرش الحيرة ، وظل ذلك الصراع حتى تولى الملك النعمان بن امرؤ القيس[2] ، الذي يرى البعض أن حكمه قد بدأ عام (٣٩٠م)[3] بينما يعيده آخرون إلى عام (٤٠٠م)[4] ، وإن كانوا يتفقون أن حكمه قد انتهى عام (٤١٨م) تقريباً .

ويعد النعمان الأول – الذي يلقب بالأعور والسائح – من أشهر ملوك الحيرة ، وهو باني قصري الخورنق والسدير الشهيرين ، وله قصة مشهورة مع المهندس البيزنطي سنمار الذي بنى له قصر الخورنق[5] .

وكانت تحت إمرة النعمان كتيبتان عسكريتان : الأولى فارسية ، وهي : الشهباء (الأشاهب) ، وقد ساعده الفرس في تشكيلها بألف جندي أقاموا لديه . والثانية عربية ، هي : الدوسر ، وقد اشتهرت بقوة بأسها ، وشدة بطشها ، فضربت العرب بها المثل

---

(1) بافقيه . السعيدة ، ج١ ، ص٢٧٣ – علي . المفصل ، ج١ ، ص٥٤٩ .

(2) مهران . تاريخ العرب القديم ، ص٥٨٤ .

(3) مثلاً : سالم ، ص٢٣٠ .

(4) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١١٩ .

(5) برو ، ص١٢٩ .

فقالوا : " ابطش من دوسر " . وذكروا إلى جانبها ثلاث كتائب أخرى غير نظامية ، هي : الرهائن (رهائن من قبائل العرب) ، والصنائع (خواص الملك يصطنعهم لنفسه ولا يبرحون بابه) ، الوضائع (يضعهم الملك في الحيرة نجدة للعرب) . وقد وصفته العرب بكونه رجلاً حازماً قوياً محارباً ، من أشد الناس نكاية بعدوه[1] .

ج - المنذر (الثالث) بن ماء السماء :

حكم بين النعمان الأول والمنذر الثالث أربعة ملوك على أرجح الآراء ، هم : المنذر الأول بن النعمان الأول ، والأسود بن المنذر الأول ، والنعمان الثاني بن الأسود ، ثم أبو يعفر بن علقمة (وهو من غير البيت المالك)[2] . وقد ساعد هؤلاء الملوك الفرس الساسانيين في حروبهم ضد الروم البيزنطيين ، وحاولوا توطيد نفوذهم على قبائل الجزيرة العربية ، واشتبكوا مع بعض هذه القبائل في عدة معارك إثر توطيد علاقتهم بالفرس[3] .

والمنذر الثالث هو ابن النعمان الثاني ، أما ماء السماء فهو لقب أمه ماوية . وقد عاصر المنذر كل من الملك الفارسي قباذ والملك الغساني القوي الحارث بن جبلة ، وكذلك الملك الكندي القوي الحارث بن عمرو . وكان لمعاصرته لهؤلاء الملوك دور في الأحداث التي شهدها عهده .

---

(1) برو ، ص١٢٩ - خربوطلي ، ص١٩٢ .

(2) بيغوليفسكيا . العرب على حدود بيزنطة وإيران ، الكويت ن ١٩٨٥م ، ص١٤٨، ١٤٩ .

(3) الشيبة . العرب القديم ، ص٢٠١ .

كان المنذر الثالث محارباً شجاعاً ، وقد شهد حكمه حروباً طائلة بين المناذرة والغساسنة ، حيث قام المنذر بالغارات المتوالية على المدن السورية الواقعة تحت سيطرة الروم البيزنطيين ، واشتبك معهم وهزمهم في أكثر من موقعة ، ووصل إلى حدود أنطاكية ، واحتل المنطقة بين دولته ودولة الغساسنة التي كان الطرفان يعدانها تابعة لهما . عندئذ نشط الحارث الغساني لحرب المنذر ، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين . ورافق الحرب بينهما حروباً ضارية بين الفرس والروم ، أبلى فيها المنذر بلاء حسناً ، إذ أنه تمكن في هجوماته المتتالية من أسر قائدين بيزنطيين كبيرين ، كما استطاع أسر إبن للحارث الغساني وقدمه قرباناً للآلهة العزى ، وقد تمكن الحارث من رد الصاع للمنذر الثالث في موقعة يوم حليمة التي انتهت بقتل المنذر نفسه عام (٥٥٤م)[١] .

وتروي كتب أهل الأخبار أن المنذر الثالث بعد أن ناصر الملك الساساني قباذ في حروبه مع البيزنطيين ، ساءت علاقته به ، وذلك أنه في عهد قباذ ظهرت الديانة المزدكية التي اعتنقها قباذ ، وحاول فرضها على المنذر الذي رفضها ، فما كان من قباذ إلا أن أعان الحارث بن عمرو ملك كندة على المنذر ، وذلك مقابل موافقة الأخير على اعتناق المزدكية[٢] .

ويبدو أن السبب الحقيقي لتغير موقف الدولة الفارسية من المنذر الثالث هو تعاظم قوته ، وميله إلى الاستقلال عنها . الأمر الذي أثار حفيظة قباذ ، وجعله يميل إلى الحارث

(١) هبو ، العرب قبل الإسلام ، ص١٢٠، ١٢١ .

(٢) برو ، ص١٣٠ .

الكنـــدي عـــدو المنـــذر حيـــث شـــجعه علـــى مهاجمـــة الحـــيرة ودخولهـــا عام (٥٢٥ م) تقريباً ، بهدف إضعاف القوة المتزايدة للدولة اللخمية[١] .

ولكن المنذر سرعان ما أستعاد عرشه بعد وفاة قباذ ، حيث تمكن من طرد الحـــارث الكندي من الحيرة وقتله عام (٥٢٨)[٢] ، ليتفرغ بذلك لقتال الغساسنة حيث انتهت حياته على يد ملكهم الحارث بن جبله كما سبق القول .

د – عمرو بن المنذر الثالث (عمرو بن هند) :

جلس عمرو بن المنذر الثالث على عرش الحيرة خليفة لأبيه ، أما تسميته بعمرو بـــن هند فهي نسبة إلى أمه هند الكندية .

كان عمرو شديد البأس قوي الشكيمة ، مع زهو وكبرياء وغطرسة ، فهابته العرب . وقد استغل ضعف الدولة الكندية بعد مقتل ملكها القوي الحارث بن عمرو ، فعمل علـــى توسيع نفوذه بين قبائل وسط الجزيرة العربية ، وقد حارب قبائل تمـــيم وطـــيىء وتغلـــب فأخضعها ، إلى جانب مواصلة حروب أبيه ضد البيزنطيين والغساسنة[٣] .

اشتهر عمرو بن هند بحبه للشعر ، فقد أدرك ما أدركه غيره من ملـــوك الغساســـنة والمناذرة من أن الشعراء هم زعماء الرأي العام ، يديرون دفة الدعاية كيفما شاءوا ، ولذلك فقد قرب إليه الشعراء، فأم مجلسه أعظمهم من مثل : طرفة بن العبد ، والحارث بن حلزة ،

---

(١) بيغوليفسكيا ، ص٩٧ .

(٢) سوف نتناول ذلك بتفصيل أكثر في الفصل المخصص لدولة كندة .

(٣) برو ، ص ١٣٣ ، ١٣٤ .

وعمرو بن كلثوم – وهم من أصحاب المعلقات السبع – طمعاً في نيل جوائزه وعطاياه ، فأصبحت الحيرة في عهده موئلاً للشعراء العرب . وقد كان مقتله على يد أحدهم وهو عمرو بن كلثوم ، في قصة مشهورة، سببها غرور عمرو بن هند وغطرسته[1] .

رابعاً : نهايتها

حكم بعد عمرو بن هند ابنه قابوس ، ثم ابنه المنذر الرابع لفترات قصيرة[2] ، وكان المنذر الرابع قد توفى من غير أن يولي أحد أبنائه على عرش الحيرة ، وترك ذلك للملك الفارسي كسرى الثاني الذي عين النعمان الثالث بن المنذر ملكاً على الحيرة بتحريض من الشاعر عدي بن زيد الذي كان ذو مكانة لدى كسرى ، وكان هو الذي أشرف على تربية النعمان وتنشئته . ونستنتج من هذا أن سلطة الأمراء اللخميين كانت قد تضعضعت ، وأصابها الضعف بحيث أصبح تنصيب امراء الحيرة أمراً من ضمن اختصاص الملك الفارسي[3] .

وقد ساءت العلاقة بين النعمان وعدي بن زيد ، وانتهت بحبس الأخير ومقتله ، ولم ينس ابن عدي المسمى زيد – الذي توصل إلى مكانة والده عند كسرى – ما فعله النعمان بأبيه ، فما زال يوغر صدر الملك الفارسي عليه ، حتى أمر بقتل النعمان تحت أقدام الفيلة . وكان النعمان قد شعر بما يبيت له ملك الفرس فمضى إلى قبيلة طيء العربية ليمنعوه ، فأبوا عليه ذلك ، خوفاً من بطش كسرى ، وأخيراً نزل بقبيلة بني شيبان البكرية ، فستودع

---

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص ١٢١ ، ١٢٢ .

(2) بغوليفسكيا ، ص ١٤٩ .

(3) سالم ، ص٢٤٣ .

سلاحه وأولاده لدى هانئ بن مسعود ، ومضى إلى مصيرة . وقد راح الفرس – بعد تخلصهم من الأسرة اللخمية – يعينون من يثقون به ، فأوكلوا الأمر إلى إياس بن قبيصة الطائي (٦٠٢ – ٦١١ م) تقريباً . وبعد أن انهزم الفرس في معركة ذي قار عزلوا إياس ، وعدوه المسؤول عن خسارتهم – فقد كان قائداً للجيش الفارسي العربي المشترك – وحكموا الحيرة حكماً مباشراً[١] .

والواقع الذي تؤيده مختلف أحداث تلك الفترة ، أن سبب مقتل النعمان يرجع إلى أن الفرس قد انتبهوا إلى خطر دولة اللخميين العربية وتعاظم قوتها ، فأرادوا الاجهاز عليها طالما أن وجودها لم يعد يخدم الغاية المرجوة ، وهي الوقوف في وجه الغساسنة الذين قل خطرهم ، واضمحلت قوتهم آنذاك[٢] .

أما من تبقى من الأسرة اللخمية ، ومن ظل موالياً لهم ، فأنهم قد ذهبوا ألى جهات البحرين (الأحساء) ، حيث نجح أميراً منهم هو المنذر بن النعمان الثالث في تأليف إمارة عربية مستقلة . ومهما يكن الأمر، فإن نهاية تلك الإمارة اللخمية بل ونهاية الدولة الفارسية أيضاً ، قد كانت على يد جيوش الفتح الإسلامي ، حيث أصبحت المنطقة برمتها جزءاً من الدولة الإسلامية الناشئة[٣] .

---

[١] هبو ، العرب قبل الإسلام ، ص ١٢٣ .

[٢] المرجع نفسه ، ص ١٢٣ – برو ، ص ١٤٠ .

[٣] برو ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

الفصل الثاني

دولة الغساسنة

أولاً : موقعها :

لم يتخذ الغساسنة عاصمة ثابتة لهم ، حيث كان مقرهم في بداية الأمر عبارة عن معسكر متنقل ، ثم اتخذوا من الجابية (الواقعة شمال حوران ، إلى الجنوب من دمشق) مركزاً لهم ، وفي وقت آخر اصبح مقرهم في جلق عند نهر بردي قرب دمشق[١] .

وتعد منطقة الجولان (إلى الشرق من بحيرة طبريا) من أهم مناطق الغساسنة وأشهرها . وقد توسعت حدود دولتهم خارج تلك المنطقة في فترة القوة ، حيث تميزت حدود دولتهم بعدم الثبات على وجه العموم ، بل كانت تتغير حسب الأوضاع الداخلية لدولتهم ، وحسب تغير العلاقة بين الدولتين الكبيرتين البيزنطية والساسانية . ولهذا نجد ملك الغساسنة يتوسع أحياناً فيصل إلى مقربة من دمشق ، وإلى فلسطين ولبنان وتدمر ، بينما يتقلص أحياناً أخرى ويقل عن ذلك بكثير[٢] .

---

(١) برو ، ص ١٤٧ .

(٢) خربوطلي . ص ١٨٢ .

ثانياً : نشأتهـــا

ذكرت لنا المصادر العربية أن الغساسنة هم أصلاً من أزد اليمن ، وأهم رحلوا مـــن اليمن بسبب سيل العرم ، حيث استقر بهم المقام في تهامة اليمن ، في بلاد الاشعريين وعك ، على ماء يقال له غسان ، ما بين زبيد ورمع ، فشربوا من ذلك الماء فسموا بالغساسنة نسبة إليه ، وكان ذلك قبل رحيلهم إلى بلاد الشام[1] .

تجدر الإشارة إلى أن نقوش الملك السبئي إيل شرح يحضب (الثـــاني) (حكـــم في منتصف القرن الثالث الميلادي) قد جاء فيها ذكر لملوك شعوب شامة ، وكان شعب غسان من ضمن تلك الشعوب . ولكن النقش – مع الأسف الشديد – قد أغفل ذكر أسماء أولئك الملوك الذين كانوا يقطنون في منطقة شامة (وهو الاسم الذي أطلقه السبئيون على منـــاطق وسط الجزيرة العربية المحاذية لدولتهم) . والسؤال هنا هل كان شعب غسان المـــذكور في ذلك النقش هم أسلاف الغساسنة المعروفين في بلاد الشام ، وكانوا آنذاك في طريق هجرتهم المرحلية من بلاد اليمن إلى بلاد الشام . ذلك أمر من الصعب تأكيـــده أو نفيـــه في ظـــل المعلومات المتوفرة لنا . وفي حال ثبوت وجود صلة تربط بين الشعبين ، فإن ذلك ســـوف يؤكد لنا صدق ما جاء في المصادر العربية عن أصل هذه الدولة ، وهجرة مؤسســـيها مـــن اليمن[2] .

---

[1] الأصفهاني . حمزة ، تاريخ سني ملوك الألاض والأنبياء ، برلين ، ١٣٤٠هـ ، ص٧٧ .

[2] أبو الغيث . الماجستير ، ص٧٠ ، ٧١ .

وقد جاء في المصادر العربية أن الغساسنة عندما نزلوا بلاد الشام ، كان بها قوم من العرب ، يعرفون بالضجاعمة ، من بني سليح القضاعيين ، الذين كانوا عمالاً للروم . فعاش الغساسنة بجوارهم ، ودفعوا لهم الأتاوة فترة من الزمن . ولما شعروا بقوتهم امتنعوا عن دفع تلك الأتاوة ، وقامت الحرب بين الطرفين ، وكان النصر فيها حليف الغساسنة ، حيث اندحر الضجاعمة ، وهجروا المنطقة التي آلت إلى الغساسنة . أما الدولة البيزنطية فإنها لم تتدخل في تلك الأحداث ، لأنها كانت حينذاك منشغلة بصراعها مع الفرس ، لكن البيزنطين سرعان ما بدأوا يتوددون للغساسنة ، حيث اعترفوا بملكهم على أطراف بلاد الشام ، وعقدوا معهم معاهدة تضمنت قيام حلفاً عسكرياً بين الطرفين[1] .

ثالثاً : ملوكها

تختلف المصادر العربية حول عدد ملوك الغساسنة ، فهناك من يقول إنهم أحد عشر ملكاً ، وآخرون يجعلونهم اثنين وثلاثين ملكاً ، ولا يعرف على وجه التحقيق سوى تاريخ ملوكهم الأواخر ، وأولهم هو جبلة بن الحارث[2] ، الذي جاء ذكره في المصادر البيزنطية في الأعوام الأخيرة من القرن الخامس الميلادي[3] .

أما أهم الملوك الذين تولوا زعامة الدولة الغسانية بعد جبلة بن الحارث هذا فهم:

---

(1) خربوطلي ، ص١٧٢ .

(2) برو ، ص١٤٢، ١٤٣ .

(3) أولندر . ملوك كنده ، بغداد ، ١٩٧٣م ، ص٩٢ – بيغوليفسكيا ، ص١٦٧ .

أ - الحارث بن جبلة :

لا يعرف بالتحديد متى انتقلت زعامة الغساسنة من جبلة بن الحارث إلى ابنه الحارث بن جبلة ، أما التاريخ الذي يضعه بعض المؤرخين لتزعم الحارث لدولة الغساسنة وهو عام (٥٢٩م) ، فهو لا يشكل جلوسه على العرش الغساني ، ولكنه يشكل التاريخ الذي منحت فيه الامبراطورية البيزنطية لقب فيلارخ للحارث ، أي أن الحارث قد أصبح منذ هذا التاريخ زعيماً لكل القبائل العربية التي تتبع الامبراطورية البيزنطية . وقد منحوه ذلك اللقب حتى يتمكن من الوقوف أمام النفوذ المتعاظم للمنذر الثالث ملك الحيرة الموالي للفرس ، خصوصاً بعد أن تمكن الأخير من التخلص من خصمه العنيد الحارث بن عمرو الكندي عام (٥٢٨م) ، الذي كان قد تحالف مع البيزنطيين في أخريات أيامه[1] .

كان الحارث بن جبلة شخصية قوية ومهابة ، وقد قدم للبيزنطيين خدمات كبيرة ، خصوصاً فيما يخص قتاله للمناذرة الموالين للفرس ، وأيضاً إسهامه في إخماد فتنة قامت ضد الامبراطورية البيزنطية في فلسطين ، وكذلك مشاركته في الحرب البيزنطية على الفرس عام (٥٤١م) ، ثم انسحابه منها قبل نهاية المعركة ، بعد أن رأى أن الدائرة ستدور على حلفائه البيزنطيين ، فآثر السلامة قبل أن يزج بجيشه في معركة خاسرة . وقد اثبتت الحوادث التالية صحة رأيه ، حيث انتهت الحرب بهزيمة البيزنطيين ، وزيادة الجزية التي كانوا يدفعونها للفرس . وعندما زار الحارث القسطنطينية عام (٥٦٣م) كان ظهوره فيها مثار اهتمام كبير لدى الحاشية ورجال القصر ، وترك أثراً عميقاً في نفوسهم بوصفه شيخاً بدوياً مهيباً .

---

[1] أبو الغيث ، الدكتوراه ، ص٨٦ .

وأصبح له مقام رفيع لديهم ، فقد كانوا يهابون سطوته ، ويعجبون بشجاعته ، وقد بالغوا في تقريبه ، وترقيته ، والخلع عليه ، خوفاً من أن يعلن استقلاله عنهم . وبلغ من شهرته في الشجاعة والبأس أن كانت النساء البيزنطيات يخوفن أولادهن الصغار باسمه[1] .

ب - المنذر بن الحارث :

خلف المنذر أباه الحارث بن جبلة على عرش الدولة الغسانية عام (٥٦٩م) . وقد غالى المنذر كثيراً في مناصرة مذهبه المسيحي المخالف لمذهب الدولة البيزنطية ، مما أثار عليه حفيظة الامبراطور البيزنطي ، فأوقف الامدادات العسكرية عنه ، فهرب المنذر إلى الصحراء خوفاً من غدر البيزنطيين به ، فانتهز اللخميون تلك الظروف ، وعاثوا فساداً في بلاد الشام كعادتهم ، وأغاروا على الحدود البيزنطية ، فشعر اليزنطيون بخسارتهم ، ولم يروا بداً من مصالحة المنذر واسترضائه عام (٥٧٨م) ، فعاد المنذر إلى أرضه ليقوم بمهمة حمايتها والدفاع عنها[2] ، حيث تصدى للمناذرة وانتصر عليهم ، وتمكن من بلوغ عاصمتهم الحيرة وإحراقها عام (٥٨٠م) . وقد زار المنذر بصحبة ولدان له القسطنطينية في العام نفسه ، فاستقبله الامبراطور البيزنطي بحفاوة كبيرة ، وأنعم عليه بالألقاب ، وكلله بالتاج[3] .

لم يلبث وفاق المنذر مع البيزنطيين أن انقلب إلى جفاء مرة أخرى ، وذلك عندما تمادى المنذر في مساعيه الهادفة إلى إعلاء شأن مذهبه ، الأمر الذي أوغر عليه صدر

---

(١) خربوطلي ، ص١٧٥، ١٧٦ – برو ، ص١٤٣ .

(٢) خربوطلي ، ص١٧٩ .

(٣) برو ، ص١٤٤ .

الكهنوت الرسمي للدولة ، فحرضوا رجال الإمبراطور عليه ، إلى جانب إسهام المنذر مع حاكم سوريا البيزنطي في هجوم على الفرس ، حيث أحجم الحاكم البيزنطي عن متابعة حملته العسكرية بعد أن وجد الجسر الذي سوف يعبر عليه نهر الفرات مهدماً ، وحتى يسوغ إخفاقه أمام الإمبراطور ادعى أن المنذر قد عقد اتفاق سري مع الفرس الساسانيين ،وأنه هو الذي أوعز إليهم بهدم الجسر ، حتى لا تستطيع الجيوش البيزنطية العبور ، وقد أدت هذه الدسيسة إلى غضب الإمبراطور من المنذر . ولكي يبرئ المنذر نفسه من تلك التهمة قام بغزوة على الحيرة ، وأضرم فيها النار ، مخالفاً مقتضيات الهدنة بين الإمبراطوريتين ، فعد البيزنطيون عمل المنذر تحدياً لهم ، ورغبة في الخروج عليهم ، فدبر حاكمهم في سوريا مؤامرة للقبض عليه – بأمر من الإمبراطور – فدعاه لتدشين إحدى الكنائس ، حيث قبض عليه هناك ، وتم إرساله إلى القسطنطينية مقيداً عام (٥٨٢م) ، ومن هناك إلى جزيرة صقلية ، حيث قضى نحبه بعد حين . وقطع البيزنطيون بعد ذلك ونهائياً الإعانة التي كانوا يقدمونها للغساسنة[١] .

رابعاً : نهايتها

غضب أولاد المنذر – وعلى رأسهم ابنه الأكبر النعمان – من تصرف الإمبراطور البيزنطي تجاه والدهم ، فما كان منهم إلى أن غادروا ديارهم ،وأعلنوا الثورة على بيزنطة . وبدأوا في شن غاراتهم على الأراضي البيزنطية في سوريا انطلاقاً من البادية . وقد أوعز الإمبراطور لحاكمه في سوريا بتجهيز حملة عليهم ، فلما رأى الحاكم صعوبة ذلك عمد إلى

---

(١) نولدكه . أمراء غسان ، بيروت ، ١٩٣٣م ، ص٣٠ ، ٣١ – علي . المفصل ، ج٤ ، ص١٣٧ ، ١٣٨ .

المكر والحيلة ، وتمكن من إقناع النعمان بن المنذر بالذهاب إلى القسطنطينية للتفاوض ، وهناك تم القبض عليه عام (٥٨٣م)[١] .

بعد ذلك انقسم الأمراء الغساسنة على أنفسهم ، وتصدع أمرهم ، وأخذت كل قبيلة تغزوا منفردة ، وساد النهب والسلب ، واحتدم التنافس للحصول على الرئاسة والسيادة . وقد شجع ذلك الفرس على مهاجمة سوريا (٦١١-٦١٤م) ، واستولوا على دمشق والقدس ، ولم يستطع هرقل استردادها إلا بجهد عظيم عام (٦٢٩م) ، وربما يكون الروم قد أدركوا قيمة تحالفهم مع الغساسنة ، فأعادوهم إلى إمارتهم ، نستدل على ذلك من قول المصادر العربية أن الأمير الغساني جبلة بن الأيهم قد قاتل في صف الروم البيزنطيين ضد جيوش الفتح الإسلامي[٢] .

وهكذا كان جبلة بن الأيهم آخر ملوك الغساسنة في بلاد الشام ، وكان زوال ملكه عندما تمكنت جيوش الفتح الإسلامي من أن تنتزع من الدولة البيزنطية كل من بلاد الشام ومصر والمغرب العربي ، حيث ضمت كل تلك الأراضي إلى الدولة الإسلامية الناشئة ، ودخلت المنطقة العربية في طور جديد من التاريخ لسنا معنيين هنا بدراسته .

---

(١) نولدكه ، ص٣٠، ٣١ .

(٢) برو ، ص١٤٥، ١٤٦ .

الفصل الثالث

دولة كندة

أولاً : موقعهـا :

مرت دولة كندة بدهرين : أول وثاني ، وقد كانت عاصمة كندة في دهرهـا الأول هي مدينة قرية ذات كهل ، التي تسمى اليوم بقرية الفاو ، وتقع في وسط الجزيرة العربية ، على الحافة الشمالية الغربية للربع الخالي ، بالقرب من ملتقى سلسلة جبال طويق مع وادي الدواسر ، جنوب غرب مدينة الرياض التي تبعد عنها حوالي (٧٠٠كم)[١] .

ويبدو أن قرية هذه كانت في أثناء تلك الفترة بلدة مشهورة ، إلى درجة جعلت اسمها يعم ليصبح اسماً لكل المنطقة التي عرفت بعد ذلك باليمامة[٢] .

أما في الدهر الثاني لهذه الدولة فلم يكن لكندة عاصمة محددة ، على الرغم من اتخاذ الكنديين لبطن عاقل مقراً لهم في بعض الأحيان ، وهو موقع بنجد ، جنوب وادي الرمـة ، بين مكة والبصرة ، أسمي فيما بعد بغمر كندة[٣] .

---

(١) فارسي . الدليل الشامل للمكلة العربية السعودية ، (د.ت) ، ص٢٠ .

(٢) حول تسمية اليمامة بقرية ، انظر : الطبري ، ج١ ، ص٢٧١ .

(٣) برو ، ص١٥٣ .

وقد امتدت حدود هذه الدولة في أوج ازدهارها ، في دهرها الثاني لتشمل منطقة وسط الجزيرة العربية ، حيث امتدت سيطرتها من حدود الدولة الحميرية جنوباً إلى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية شمالاً ، وضمت بذلك مناطق البحرين واليمامة ونجد والحجاز[١] . واستطاعت كندة بذلك أن توحد – لأول مرة في التاريخ – عرب وسط الجزيرة تحت زعامة واحدة[٢] ، وقد مهد ذلك لاجتماع القبائل العربية المختلفة – بعد فترة – في إطار الدولة الإسلامية الناشئة[٣] .

ثانياً : نشأتها

لا نعرف حتى الآن أقدم تاريخ لدولة كندة في دهرها الأول ، أما الشواهد النقشية والأثرية المتوفرة لنا ، فهي تدل فقط على أقدم ما يمكن معرفته من ذلك التاريخ[٤] ، والذي يمكن إعادته إلى القرن الأول الميلادي تقريباً ، اعتماداً على شكل وأسلوب الكتابات التي عثر عليها في مدينة قرية[٥] ، على أن وجود قرية على الفرع الشرقي لطريق اللبان التجاري ، يفترض أنها كانت موجودة هناك منذ زمن بعيد قبل الميلاد كمحطة للقوافل ،

---

(١) عن حدود الدولة الكندية ، انظر : سحاب ، إيلاف قريش ، بيروت – الدرا البيضاء ، ١٩٩٩م ، ص١٦٠ .

(٢) جليان . مجتمع قريش السياسي والديني في عام الفيل ، بيروت ، ١٩٨٧م ، ص١٥ .

(٣) غويدي . محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية ، بيروت ، ١٩٨٦م ، ص٤٣ .

(٤) عبد الله . أوراق ، ص٢٧٧ .

(٥) روبان . انتشار العرب البداة ، ص٩١ .

نظراً لتوفر الشروط الطبيعية نفسها التي جعلت منها بعد الميلاد إحدى مدن القوافل المزدهرة ، وحاضرة لدولة كندة[1] .

ونعرف من النقوش اليمنية القديمة بعض أسماء ملوك كندة في دهرها الأول ، مثل : ربيعة آل ثور ملك كندة وقحطان ، المعاصر للملك السبئي شاعرم أوتر (مطلع القرن الثالث الميلادي) وأيضاً الملك مالك بن بد ملك كندة ومذحج ، الذي عاصر الملك السبئي إيل شرح يحضب الثاني (منتصف القرن الثالث الميلادي)[2] ، حيث أصبحت كندة في هذه الفترة تابعة للدولة السبئية ، وأصبحت العلاقة التي ربطت بين الطرفين مشابهة لتلك العلاقة التي كانت تربط البتراء ، وتدمر ، بالدولة الرومانية ، والعلاقة التي كانت تربط دولة الحضر بالدولة الفرثية (الفارسية)[3] .

ويعتقد أن قبيلة كندة قد طُردت – مع قبيلة مذحج – من منطقة وسط الجزيرة العربية ، في مطلع القرن الرابع الميلادي . على يد الملك اللخمي امرؤ القيس بن عمرو – صاحب نقش النمارة المؤرخ بعام (٣٢٨م) – المعاصر للملك الحميري شمريهرعش ، حيث استقرت في مواطنها الجديدة ، في جنوب الجزيرة العربية ، وكان نصيب كندة

---

(١) عبد الله . أوراق ، ص٢٧٧ .

(٢) أبو الغيث . الماجستير ، ص٥٧، ٥٨ .

(٣) بافقيه . السعيدة ، ج١ ، ص٣٤ – عبد الله . أوراق ، ص٢٨٣ . ولمزيد من التفاصيل عن كندة في دهرها الأول يمكن العودة إلى : الأنصاري . أضواء جديدة على دولة كندة – قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الإسلام .

الاستقرار في حضرموت اليمن ، بين واديي العبر ودوعن ، فيما عرف بعد ذلـــك بـــديار كندة[1] . وأصبحت تمثل أبرز مكونات الجيش البدوي ، التابع للدولة الحميرية[2] .

والملاحظ على المصادر العربية أنها قد أهملت تماماً ذكر كندة في دهرهـــا الأول ، ولم تتحدث عن شيء مما ذكرته النقوش اليمنية القديمة . وبدأت حديثها عن هذه الدولة ، ابتداءً بعهد ملكها حجر بن عمرو (آكل المرار) مؤسس دولة كندة في دهرها الثاني[3] ، ومـــع ذلك فنحن يمكن أن نستشف مما جاء في بعض هذه المصادر إشارات إلى كنـــدة في دهرهـــا الأول . وذلك من خلال حديثها – بصورة مجملة – عن ملوك كنديين حكموا قبل حجر بن عمرو ، وهم : مرتع بن معاوية بن ثور ، وثور بن مرتع ، ومعاوية بن ثور ، الذي خلفه على عرش كندة حجر بن عمرو[4] . حيث نلاحظ أن هؤلاء الملوك يجمعهم الانتساب إلى ثور ، مع الملك ربيعة آل ثور ملك كندة المعاصر للملك السبئي شاعرم أوتر .

ثالثاً : ملوكهـــا

سوف ندرس في هذا المبحث أبرز ملوك كندة في دهرها الثاني . ومعلوماتنا عن هذه الفترة مستقاة – في معظمها – من المصادر العربية ، حيث سكتت عنها المصادر النقشـــية ، وقد أدى ذلك إلى الاضطراب في تدوين التاريخ الكندي ، بسبب تضارب هذه المصادر فيما بينها ، وإيرادها لروايات متباينة ، ومتناقضة في أحيان كثيرة ، وفي محاولة منا للخروج مـــن

---

(1) عبد الله . أوراق ، ص٢٧٤-٢٧٧ .

(2) أبو الغيث . الماجستير ، ص٨٥، ٨٦، ٩٨، ١٠٠ .

(3) ابن الأثير . الكامل في التاريخ ، ج١ ، بيروت ، ١٩٨٣م ، ص٣٣١ .

(4) اليعقوبي ، ج١ ، ص٢١٦ .

تلك الاشكالية فإننا سنعمل – ما أمكن ذلك – على الإتيان بالرويات التي نرجح صحتها مباشرة ، اختصاراً للموضوع ، وتخفيفاً على القارئ[1] . أما الملوك الذين سنتناولهم فهم :

أ – حُجر بن عمرو (آكل المرار) :

يعد هذا الملك المؤسس الفعلي لدولة كندة في دهرها الثاني . وبهذا الخصوص نجد أن المصادر العربية قد ذكرت أن الملوك الحميريين هم الذين أقاموا هذه الدولة بقيادة ملكها حجر بن عمرو[2] . وكان ذلك في عهد الملك الحميري حسان بن تبع (حسان يهأمن بن أبي كرب أسعد) ، الذي حكم خلال النصف الأول من القرن الخامس الميلادي . ويرجح البعض أن دولة كندة في دهرها الثاني قد قامت في أواخر الربع الأول من القرن الخامس الميلادي ، إبان حملة الملك أبي كرب أسعد وابنه حسان يهأمن على منطقة وسط الجزيرة العربية ، المذكورة في النقوش[3] .

وقد ذكرت المصادر العربية ، أن الملك حجر بن عمرو بعد أن نزل في بطن عاقل ، أغار على اللخميين وانتزع منهم ما كان بأيديهم من أراضي قبيلة بكر التابعة له ، إلى جانب قيامه بحملات توسعية في أطراف نجد والحجاز والبحرين واليمامة[4] . وتحدثنا المصادر العربية أيضاً عن صدام مسلح وقع بين آكل المرار وزياد بن الهبولة ملك الشام ، الذي ينتمي إلى قبيلة سليح الضجعمية القضاعية ، في موقعة أطلق عليها يوم البردان ، وقد قتل زياد في هذه

---

(1) لمن أراد معرفة التفاصيل المشار إليها ، يمكنه الرجوع إلى أطروحتنا للدكتوراه ، ص٦٧-١٠٣ .

(2) مثلاً : ابن الأثير ، ج١ ، ص٣٠٤ .

(3) بيغوليفسكيا ، ص١٦٥ – بتروفسيكي . الملك الحميري أسعد الكامل ، ص٦٦ .

(4) ابن الأثير ، ج١ ، ص٣٠٤ .

المعركة بعد هزيمته فيها[1] . ويرى البعض أن السبب الحقيقي لهذا الصدام إنما يعود إلى رغبة الكنديين في تثبيت أقدامهم بمنطقة الحدود الشمالية ، التي لم يكن لها أن تتم إلا على حساب الضجاعمة ، إلا أن الذي وضع حداً للضجاعمة ليس الكنديين ، بل الغساسنة خلفاء الضجاعمة في بلاد الشام[2] .

أما المصادر البيزنطية فتذكر أن الكنديين قد تمكنوا خلال هذه الفترة من انتزاع جزيرة يوتابه (تيران) – المشرفة على مدخل خليج العقبة – من أيدي البيزنطيين عام (٤٧٣م)[3] .

وقد بقي الملك حجر مطاعاً في قومه نظراً لحسن سيرته بين رعاياه حتى توفي بعد أن أصابه الخوف[4] . عام (٤٨٠م) على أرجح الآراء[5] .

---

(١) ابن الأثير ، ج١ ، ص٣٠١-٣٠٣ – جاد المولى بك (وآخرون) ، أيام العرب في الجاهلية ، دار الفكر ، (د،ت) ، ص٤٢-٤٥ .

(٢) بيغوليفسكيا ، ص١٦٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص١٦٧ .

(٤) البغدادي . كتاب المحبر ، بيروت ، (د.ت) ، ص٣٦٩ .

(٥) تجدر الإشارة إلى أن البعض يجعل من هذا التاريخ ، تاريخ لتولي حجر . وذلك خطأ وقعوا فيه . وقد بينا رأينا هذا بناء على معطيات موثوقة . انظر : أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٧١، ٧٢ .

ب – عمرو بن حجر (المقصور) :

لما مات حجر بن عمرو دفن في بطن عاقل ، وصار ابنه عمرو (المعروف بالمقصور) ملكاً من بعده ، وتولى أخوه معاوية بن حجر (المعروف بالجون) على اليمامة[1] .

أما سبب تلقيب عمرو بالمقصور ، فذلك – حسب قول المصادر – لأنه قُصر على ملك أبيه ، ولم ينجح في أن يزيد شيئاً على رقعة الدولة التي ورثها عن أبيه . وغالب الظن أنه أكره على ذلك من قبل قبائل ربيعة ، التي كانت تعيش في هذا الوقت تحت زعامة وائل بن ربيعة (كليب وائل) ، زعيم قبيلة تغلب القوي ، الذي كان ظهوره في عهد الملك الكندي عمرو بن حجر[2] ، وتحديداً في عقد الثمانينات من القرن الخامس الميلادي . على أساس أن كليباً قد عاش قبل اشتعال حرب البسوس التي أشعلها مقتله في العقد الأخير من القرن الخامس الميلادي تقريباً[3] .

ولم يكن أمام عمرو (المقصور) تجاه ذلك الضغط إلى الاحتماء باليمن ، حيث ذكرت بعض الروايات أنه استنجد بمرثد بن عبد ينكف الحميري ، الذي أمده بجيش التقى مع كليب ومن معه من قبائل ربيعة في القنان (جبل في بني أسد) فقتل الملك عمرو المقصور في المعركة[4] . ولا يتضح لنا من هذه الرواية ، ما هي الصفة التي كانت لمرثد الحميري هذا ، وهل كان ملكاً أم زعيماً قبلياً . ونحن لا نستبعد أن يكون المقصود به هو الملك

---

(1) ابن الأثير ، ج١ ، ص٣٠٤ .

(2) ابن الأثير ، ج١ ، ص٣٠٤ – أولندر ، ص٨٦ .

(3) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٨٥ .

(4) أولندر ، ص٨٦ .

الحميري مرثد ألن ينوف ، الذي ورد اسمه في نقوش مؤرخة بين عـــامي (٤٩٩-٥٠٤م) ، والمرجح أن حكم هذا الملك قد بدأ قبل ذلك التاريخ ، وأنه قد عاصر في بداية عهده الملك الكندي عمرو بن حجر ، الذي كان في آخر عهده ، أي أن هذه الفترة التي تعاصر فيهـــا الملكين قد تكون هي الفترة التي قدم فيها الملك الحميري العون للملك الكندي[١] .

وقد كانت علاقة الملك عمرو بن حجر بالدولة اللخمية حسنة على ما يبدو ، وذلك لأنه زوج ابنته للملك اللخمي الأسود بن المنذر ، وهي التي ولدت له ابنه الملك النعمان بن الأسود[٢] . أما عن علاقته مع الغساسنة فقد ذكر اليعقوبي[٣] ، أن عمراً قاد غـــزوة ضـــد الغساسنة في بلاد الشام ، انتهت بمقتله على يد الحارث بن جبلة الغساني . ونحن هنا نميل إلى ترجيح الرأي الذي يجعل مقتل عمرو (المقصور) على يد قبائل ربيعة ولـــيس علـــى يـــد الغساسنة[٤] ، وذلك لأن ظهور الحارث بن جبلة لم يكن إلا في مطلـــع القـــرن الســـادس الميلادي ، أي في وقت متأخر عن عهد عمرو (المقصور) الذي كان مقتله في عام (٤٩٠م) تقريباً[٥] .

---

(١) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٧٤، ٧٥ .

(٢) الشيبة . العرب القديم ، ص٢١٥ .

(٣) اليعقوبي ، ج١ ، ص٢١٦ .

(٤) أولندر ، ص٩١ .

(٥) المرجع نفسه ، ص١٠٠، ١١٥ — بيغوليفسكيا ، ص١٨٣ . ويرى البعض أن مقتل عمرو كان في عام (٤٩٥م) . عاقل ، ص٢١٢ — جليان ، ص١٥ .

ج - الحارث بن عمرو:

اختلفت المصادر العربية في كيفية تولي الملك الحارث بن عمرو لعرش الدولة الكندية[1]، وذلك لخلطها بينه وبين جده حجر بن عمرو ، نظراً لما كان لأحدهما من شأن يماثل شأن الآخر ، فإن كان الجد هو مؤسس الدولة ، فالحفيد هو محي مجدها[2] . وأغلب الظن أن الحارث قد تولى الملك بعد وفاة أبيه ، وأنه وسع ملكه بعد ذلك بما يملك من شخصية قوية ، وبمساعدة الحميريين له[3] .

وكان من الطبيعي أن يعمل الحارث بعد توحيده للقبائل العربية في وسط الجزيرة العربية في إطار مملكته على شغل هذه القبائل – المحبة للحرب ومنافسة بعضها البعض – بغارات على الحدود البيزنطية والفارسية[4] .

وفيما يخص غاراته في بلاد الشام ، فقد ذكرت لنا المصادر البيزنطية أن البيزنطيين قد تمكنوا من استعادة جزيرة يوتابه (تيران) من أيدي الكنديين عام (٤٩٧م) . وكان ذلك إثر تمكنهم من دحر قوات الأمير حجر بن الحارث بن عمرو وأسرهم له[5] . وقد رد الكنديون الصاع للبيزنطيين عام (٥٠١م) عندما تمكن الأمير الكندي معدي كرب بن الحارث من شن غارة عربية جديدة على فينيقية وسورية وفلسطين ، حيث انقض عليها

---

(١) عن هذه الاختلافات ، انظر : أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٧٦، ٧٧ .

(٢) أولندر ، ص٩٦ .

(٣) المرجع نفسه ، ص١٠٠ – علي . المفصل ، ج٣ ، ص٣٣٢ .

(٤) أولندر ، ص١٠١ .

(٥) المرجع نفسه ، ص٩٢ – بيغوليفسكيا ، ص١٦٧ .

فجأة ، ثم ابتعد مسرعاً حاملاً معه الغنائم ، من غير أن تملك بيزنطة وسيلة حاسمــة للــرد عليه[1] .

وقد أجبرت تلك الغارات الامبراطور البيزنطي انستاسيوس على أن يعقد صلحاً مع الملك الحارث بن عمرو ـــ الذي تسميه المصادر البيزنطية بالحــارث الثعلبــاني[2] – عــام (٥٠٢م) ، ذلك الصلح الذي أصبح بموجبه الحارث بن عمرو الكندي عاملاً للبيــزنطيين على جنوب فلسطين ومناطق سيناء[3] .

هذا وقد قطع الحارث الكندي ارتباطه بالبيزنطيين عام (٥٠٦م) ، رغبة منه في إقامة علاقة ودية مع الفرس ، وذلك لأن قبيلتي بكر وتغلب – عماد دولته – كانتا تتحركان في ذلك الوقت نحو الشمال ، لتستقرا في العراق ، تاركتين بذلك مناطقهما القديمة في اليمامــة ونجد[4] .

أما غارات الحارث على الحدود الفارسية فالمصادر العربية تذكر لنا أن الحارث كان قد تمكن من أن ينتزع من أيدي اللخميين بعض أراضيهم في عهد ملكهم النعمان بن الأسود (النعمان الثاني) والد المنذر الثالث[5] ، مستغلاً خروج الملك اللخمي النعمان الثاني لمهاجمة

---

(١) أولندر ، ص٩٣ – سحاب ، ص١٠٣، ١٠٤ .

(٢) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٧٨ .

(٣) سحاب ، ص١٠٤ .

(٤) أولندر . ص١١٤ .

(٥) المحبر . ص٣٦٩ .

أراضي الدولة البيزنطية عام (٥٠٣م) إلى جانب اضطرابات الدولة اللخمية بعد موت ملكها النعمان متأثراً بجروحه في هذه المعركة[١] .

وعندما اعتلى المنذر الثالث عرش الحيرة عام (٥٠٥م) بدأ في تصفية حساباته مع الحارث بن عمرو ، الذي كان ما يزال يسيطر على بعض أراضي الدولة اللخمية . ويبدو أن الرجلين قد دخلا في منافسة من أجل اكتساب ود الفرس[٢] ، ولعل ذلك هو الذي جعل الحارث يقطع ارتباطاته بالبيزنطيين عام (٥٠٦م) . ولكن الكفة ربما رجحت لصالح المنذر ، وقد ساعده ذلك على أن يمارس ضغطه على الدولة الكندية ، حيث تحدثنا النقوش اليمنية القديمة أن المنذر قد شن حملة على وسط الجزيرة العربية (قلب الدولة الكندية) عام (٥١٦م) ، مما دعا كندة وقبائل تلك المنطقة المرتبطة بها لأن تستصرخ الملك الحميري معدي كرب يعفر ، الذي أرسل حملة لمواجهة قوات المنذر ، انتهت بعقد الصلح مع المنذر . خصوصاً أن معدي كرب نفسه كان يعاني من مشاكل داخلية في دولته[٣] .

ويبدو أن تعاظم قوة المنذر ، وميله إلى الاستقلال عن الفرس ، قد أثار حفيظة الملك الساساني قباذ ، وجعله يميل إلى الحارث الكندي العدو التقليدي للمنذر خلال هذه الفترة ،

---

[١] أولندر ، ص١٠٣ ، ١٠٧ .

[٢] المرجع نفسه ، ص١١٤ .

[٣] أبو الغيث . ص٨٣ .

بحيث أعانه على مهاجمة الحيرة ، بهدف إضعاف القوة المتزايدة للدولة اللخمية[١] ، إلى جانب ما أشارت إليه المصادر العربية من رفض المنذر اعتناق المزدكية ، وقبول الحارث لذلك[٢] .

وغالب الظن أن اعتناق الحارث للمزدكية . كان يعبر عن موقفاً اضطرارياً . أكثر مما يعبر عن قناعة دينية ثابتة . بدليل أن المصادر العربية وهي تتحدث عن اعتناقه للمزدكية ، لم تخبرنا عن أي تطبيق لمبادئها من قِبَله ، سواء على مستوى شخصه وعائلته ، أو على مستوى قبيلته ودولته .

وقد تمكن الحارث بالفعل من دخول الحيرة وأخضعها لحكمة ، وذلك في المدة الواقعة بين عامي (٥٢٥ – ٥٢٨ م) تقريباً[٣] . وهو ما ذكرته روايات المصادر العربية ، التي جاء فيها أن الحارث – بعد اعتناقه للمزدكية – قد تمكن من دخول الحيرة ، وظل ملكاً عليها إلى أن توفي قباذ ، وخلفه ابنه كسرى أنو شروان (كسرى الأول) ، الذي قتل مزدك وأصحابه ، وأعاد المنذر إلى زعامة الحيرة ، فهرب الحارث بأولادة وهجائنه ، وتبعه المنذر بجيشه[٤] .

وتذكر المصادر البيزنطية أن الحارث الكندي كان قبل مقتله قد فر إلى البيزنطيين ، هرباً من الفرس ، وأنه أصبح عاملاً للبيزنطيين . ولكن الخلاف سرعان ما نشب بينه وبين

---

(١) بيغوليفسكيا ، ص٩٧ .

(٢) يرى البعض أن سوء العلاقة بين المنذر والفرس تعود أسبابه إلى العلاقة المتنامية بين المنذر والبيزنطيين ، أكثر مما تعود إلى رفضه اعتناق المزدكية (أولندر ، ص١١٤) .

(٣) أولندر ، ص ١١٤ .

(٤) ابن الأثير ، ج ١ ، ص ٣٠٤ ، ٣٠٥ .

القائد البيزنطي في فلسطين ، ذلك الخلاف الذي انتهى بفرار الحارث نحو المناطق الداخلية لشبه الجزيرة العربية ، فما كان من المنذر الثالث – الذي كان يتربص بالحارث – إلا أن اهتبل هذه الفرصة ، وقام بمطاردة الحارث بجيش مكون من ثلاثين ألفاً ، فتمكن من قتله عام (٥٢٨)[١] .

رابعاً : نهايتها

تحكى المصادر العربية أن الحارث الكندي بعد أن دخل الحيرة اشتغل بها عما كان يراعيه من أمور البوادي ، فتفاسدت القبائل التزارية ، ووقع الشر بينها . فأتى أشراف هذه القبائل إلى الحارث ، وطلبوا منه أن يوجه معهم بنيه ليكفوا القبائل بعضها عن بعض ، ففرق الحارث أبناءه ملوكاً على القبائل . فجعل حجراً في بني أسد ، وكنانة ، وغطفان ، وهو أكبر ولده . وجعل شرحبيل في بكر بن وائل ، وبني حنظلة بن تميم ، وبني أسيد بن تميم ، والرباب . وجعل سلمة وهو أصغرهم في بني تغلب بن وائل ، والنمر بن قاسط ، وبني سعد بن تميم . وجعل معدي كرب في قيس عيلان[٢] . وتضيف بعض المصادر ولداً آخر للحارث تسميه قيساً ، وتجعل منه ملكاً سياراً ، فأي قوم نزل بهم فهو ملكهم[٣] .

---

(١) أولند ، ص ١١٥ – بيغوليفسكيا ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن الأثير ، ج ١ ، ص ٣٠٥ ، ٣٣٢ . بتعداد القبائل التي وزعها الحارث على أبنائه ، يتوفر لدينا دليلاً على سعة الرقعة التي امتد إليها سلطان الحارث ، والتي شملت نجد والحجاز واليمامة والبحرين .

(٣) الأندلسي ، ص ٤٢٨ .

" فلما مات الحارث ضبط كل رجل من بنيه مُلكه . فاشتد ملكهم . فأما بنو أسد ، فقتلوا ملكهم حجر ... ووثب شرحبيل وسلمة فاحتربا . فقُتل شرحبيل ... وضرب سلمه بن الحارث الفالج فهلك . وأصاب معدي كرب بن الحارث الوسواس على أخيه شرحبيل ، فخرج يهيم على وجهه فمات "[1] .

وتنهي المصادر العربية حديثها عن تاريخ الدولة الكندية بالأمير الكندي الشاعر امرئ القيس بن حجر بن الحارث ، وقصته المشهورة في الانتقام من قبيلة بني أسد الـذين قـاموا بقتل أبيه عام (٥٣٠م) تقريباً[2] .

أما المصادر البيزنطية فإنها تحدثنا عن أمير كندي تسميه قيس من غير أن تحدد لنا من هو أبوه ، وتجعله ملكاً على كنده ومعد ، وتذكر أن الإمبراطور البيزنطي جستنيان قد طلب من الملك الحميري سميفع أشوع (صنيعة الأحباش) أن يعفو عن قيس هذا ، وكان قيس قد فر إلى الصحراء إثر قتله أحد أقرباء سميفع[3] . ثم أن الإمبراطور البيزنطي قد عين قيساً هذا حاكماً على عرب الحدود الجنوبية للإمبراطورية البيزنطية في فلسطين فاصطحب قيس معـه إلى هناك عدد كبير من رعاياه وقام بتولية أخويه عمرو ويزيد على قبائل كنده ومعد[4] .

وعلى الرغم من ربط بعض المؤرخين بين قيس الكندي هذا وبين امرؤ القـيس بـن حجر تارة ، وبينه وبين قيس بن معدي كرب بن معاوية بن جبلة الكندي تارة أخرى ، إلا

---

(١) البغدادي ، ص ٣٧٠ .

(٢) عن هذه القصة ، انظر : أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٨٩، ٩٠ .

(٣) Procopius, History of the Wars, London, 1961, PP.193,195 .

(٤) أولندر ، ص١٧٦ – بيغوليفسكيا ، ص٢٠٥ .

أن المعطيات المتوفرة لدينا لا تشجع على مثل ذلك الاستنتاج ، وبالمقابل فهي ترجح كفة أميرين كنديين آخرين لأن يكون أحدهما هو قيس المذكور في المصادر البيزنطية ، وهذان الأميران هما قيس بن سلمه بن الحارث ، وقيس بن الحارث بن عمرو[1] .

وبغض النظر عمن يكون قيس هذا فقد كان معاصراً للملك الغساني الحارث بن جبلة الذي كان يؤدي نفس المهمة للبيزنطيين خصوصاً على الحدود الشمالية الشرقية لسورية وفينيقية[2]. وعلى الرغم من أن البيزنطيين كانوا قد عينوا الحارث الغساني كبيراً لجميع عرب الروم البيزنطيين ، ومنحوه لقب فيلارخ (ملك) عام (٥٢٩م) ، حتى يتمكن من الوقوف أمام النفوذ المتعاظم للملك اللخمي المنذر الثالث[3] ، خصوصاً بعد تمكن الأخير من القضاء على منافسه العنيد الحارث الكندي ، إلا أن ذلك – على ما يبدو – لم يكن كافياً لتحجيم المنذر نظراً لعدم امتلاك الغساسنة لأي نفوذ بين صفوف قبائل وسط الجزيرة العربية ، الأمر الذي دفع البيزنطيين لطلب التحالف مع الكنديين مرة أخرى ، بصفتهم المنافسين الوحيدين للمناذرة في هذه المنطقة ، حيث رأوا في الأمير الكندي قيس خير من يقوم بهذه المهمة[4] .

ولا ندري كيف تطورت علاقة قيس الكندي مع البيزنطيين ، ومع الغساسنة ، وكل ما نعرفه من المصادر البيزنطية أن أبا كرب بن جبلة شقيق الحارث بن جبلة قد أصبح زعيماً

---

[1] عن هذه المعطيات ، انظر : أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٩١، ٩٣ .

[2] بيغوليفسكيا ، ص٢٠٥ .

[3] أولندر ، ص١١٦ – عاقل ، ص١٥٥ .

[4] أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٩٤ .

لعرب فلسطين ، وهو المنصب الذي كان يشغله قيس من قبل ، من غير أن توضح لنا هذه المصادر متى كان ذلك التغيير ، وما هي أسبابه[1] ، وهل كان أبو كرب مجرد بديل اتخذه البيزنطيون بعد أن فقدوا قيس ، لموته مثلاً . أو على الأقل بعد أن أدركوا عجز قيس عن أداء المهمة المنوطة به ، بسبب ضعف الكنديين في منطقة وسط الجزيرة العربية ، نتيجة للضربات الموجعة التي وجهها إليهم المنذر الثالث ، مما أدى إلى تمرد قبائل معد على الكنديين، وميلها إلى صف المناذرة . وهذا يعني أن دولة كندة كانت قد تهاوت حينئذ ، أو أنها أصبحت على الأقل في مرحلة الاحتضار[2] .

وتعود المصادر العربية لتحدثنا عن عودة قبيلة كندة من مناطق وسط الجزيرة العربية إلى مواطنها في حضرموت اليمن ، وهنا تتطرق هذه المصادر إلى ذكر أبناء الجون الكنديين ، وهم أحفاد معاوية بن حجر (المعروف بالجون) ، الذي ذكرنا أنه كان قد تولى على اليمامة بعد وفاة أبيه ، بينما جلس أخوه عمرو (المقصور) على عرش الدولة الكندية .

ويذكر الهمداني أن جلاء كندة عن شمال الجزيرة ، كان بعد مقتل زعماء كندة من آل الجون ، في يومي شعب جبلة وذي نجب[3] . فعلى الرغم من أن أحداث هذين اليومين قد دارت أصلاً بين قبائل عربية شمالية (تميم من جهة وعبس وبني عامر من جهة أخرى) إلا أن اشتراك ملوك آل الجون الكنديين في صف هذا الطرف أو ذاك ، ثم دوران الدائرة على

---

(1) بيغوليفسكيا ، ص٢٠٩ .

(2) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٩٥ .

(3) الهمداني . الصفة ، ص١٧١ .

الطرف الذي يقفون في صفه ، قد أدى إلى فقدهم لزعمائهم الذين قتلوا في معارك اليومين المذكورين ، الأمر الذي فت في عضدهم ، وأضعف شوكتهم ، ودفعهم إلى الرحيل نحو منطقة حضرموت اليمن ، حيث انضموا إلى أبناء قبيلتهم الذين بقوا هناك ولم يهاجروا مع من هاجر نحو الشمال . وبذلك انتهت دولتهم خلال النصف الثاني للقرن السادس الميلادي[1] .

وفي مطلع القرن السابع الميلادي ، أعلنت كندة إسلامها بقيادة زعيمها الأشعث بن قيس الكندي ، وجمعتها مع القبائل التي كانت تحكمها دولة الإسلام الجديدة ، حيث ساهموا بقسط وافر في حركة الفتوحات الإسلامية[2] .

---

[1] أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٩٩، ١٢٠ .

[2] ابن هشام. مج٢ ، ج٤، ص٣٣٣—الشجاع. عبدالرحمن. اليمن في صدر الإسلام، دمشق، ١٩٨٧م، ص١٧٤.

الباب الخامس

دويلات المدن الحجازية

تمهيد

دويلات المدن الحجازية

تمهيد :

لقد خصصنا هذا الباب لدراسة دويلات المدن التي كانت معروفة في الحجاز قبيل ظهور الإسلام ، والتي انتهت بانتشار الإسلام وشموله لكل منطقة الحجاز خصوصاً ، والجزيرة العربية عموماً .

ولقد تمثلت دويلات المدن هذه في كل من (مكة ، ويثرب ، والطائف) . وقد أطلقنا عليها تسمية دويلات المدن لأنها بالفعل كانت كذلك ، فهي مدن مستقلة لها إدارتها الخاصة ، بغض النظر عن نوعية هذه الإدارات . والتي كانت تشبه إلى حد كبير نظام مجلس الشيوخ[1] ، أو ما يسميه البعض بالجمهوريات التجارية[2] .

ولا يعني ذلك أن الحجاز لم يعرف تاريخاً غير تاريخ دويلات المدن هذه ، بل إن تاريخه يمتد إلى ما قبل ذلك من الناحية الزمنية ، وإلى أوسع من ذلك من الناحية المكانية . فهناك

(١) عن شبه نظام الحكم في هذه المدن بنظام مجلس الشيوخ ، انظر : سالم ، ص٣١٥ .
(٢) مثلاً : سلامة . عواطف ، أهل مدين ، الرياض ، ٢٠٠١م ؛ ص٢٦٩ .

مدن حجازية مرت بمراحل تاريخية مشهودة قبل ظهور دويلات المدن الثلاث هذه ومعها . ولعل أبرز هذه المدن هي تيماء ، ودومة الجندل ، والعلاء (ديدان) .

إذاً فتركيزنا على دويلات المدن الثلاث ليس لعدم وجود تاريخ للحجاز غير تاريخها ، ولكن لأهمية تاريخ هذه المدن ، بصفته مقدمة لظهور الامبراطورية العربية الإسلامية ، التي كانت نواتها الأولى قد ظهرت في مطلع القرن السابع الميلادي .

الفصل الأول

مـــكـــة

أولاً : موقعهـــا :

تقع مكة أسفل الحجاز في وادٍ منحصر بين الجبال ، في منطقة جافـــة ، ذات منـــاخ قاري ، وأمطارها قليلة ، لكنها إذا هطلت فإنها قد تشكل سيولاً جارفة ، تنحدر في الشعاب والوديان ، وتهدد الكعبة أحياناً . وتتمثل أهم جبالها في جبل أبو قـبـيس ، وهـو جبلـها الأعظم ، ويقع في الجهة الشرقية من مكة ، ويشرف على المسجد الحرام . وجبل قعيقعان في الجهة الغربية . إلى جانب العديد من الجبال الأخرى التي تحيط بمكة ، مثل جبل حراء ، الذي يقع فيه غار حراء الذي كان يتعبد فيه النبي ﷺ قبل بعثته الشريفة . وكذلك جبل ثور الذي يقع فيه غار ثور الذي اختبأ فيه الرسول ﷺ ، وصاحبه أبو بكـر الصـديق ﷺ في طريـق هجرتهما إلى يثرب[1] .

وقد اختلفت روايات أهل الأخبار حول اشتقاق اسم مكة ، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى؛ كقولهم أنها سميت بمكة لأنها تمك الجبارين ، أي تُـذهب نخـوتهم ، أو لأنهـا تمـك

[1] هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٦٨ – سالم ، ص٢٩٨ .

الذنوب، أي تذهب بها ، وقيل لقلة مائها ، لأنهم كانوا يمتكون الماء أي يستخرجونه ، وقيل غير ذلك[1] .

ويرد اسمها أحياناً بإبـدال المـيم بـاء ، أي بكـة ، وجـاء ذلـك في القـرآن الكريم (آل عمران /٩٦) . وقد ورد ذكر مكة في مؤلفات اليونانيين القدماء تحت مسمى مكورابا ، وهذا الاسم يذكرنا بلقب ملوك اليمن القدماء في الفترة المبكرة ، وهو مُكرّب ، والذي يعني الحاكم الكاهن ، ومعنى ذلك أن مكة كانت تحمل في ذلك الوقت ـ وقبله ـ صفة التقديس ، وتحتل مكانة دينية هامة ، وإلاّ لما دعيت بهذا الاسم[2] .

وتُعد مكة محطة مهمة على طريق البخور الشهير ، الذي يعبر مناطق غرب الجزيـرة العربية ، من جنوبها على البحر العربي ، إلى شمالها على البحر الأبيض المتوسط . ثم تحولـت بعد ذلك لتصبح هي قلب ذلك الطريق عندما انتقل زمام ذلك الطريق إلى قريش ، في مطلع القرن السادس الميلادي تقريباً ، وتحول طريق البخور إلى طريق الإيلاف المذكور في القرآن الكريم برحلتيه الشهيرتين رحلة الصيف إلى الشام ، ورحلة الشتاء إلى اليمن وغيرهـا مـن البلدان[3] .

---

(١) سالم ، ص٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) هبو .العرب قبل الإسلام ، ص١٦٨ .

(٣) سحاب . إيلاف قريش ، ص١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢١٣ .

ثانياً : تاريخهـــا :

أ. سكان مكة :

يذكر الأخباريون أن أقدم من استوطن مكة والحجاز هم العمالقة ، وهم من العرب البائدة ، ثم خلفتهم قبيلة جرهم اليمنية على مكة ، وكان نبي الله إبراهيم قد أسكن ولـــده إسماعيل وأمه هاجر في مكة ، وبنى البيت العتيق ، فتزوج إسماعيل امرأة مـــن جـــرهم ، ثم وفدت قبيلة خزاعة اليمنية أيضاً ، فنزلوا بظاهر مكة ، وغلبوا الجرهميين عليها ، وطردوهم منها ، وظلت خزاعة تلي أمر البيت ، وكانت مضر تقيم بظاهر مكة ، إلى أن تمكن قصـــي بن كلاب بن مرة من انتزاع السيادة على مكة من يد خزاعة[1] .

ب. قريش :

يعود الفضل إلى قصي بن كلاب في جمع قريش ، وترتيبها على منازلها في مكة ، فميز بين قريش البطاح ، وقريش الظواهر ؛ وقريش البطاح هم تلك البطون التي سكنت بطحاء مكة وبطنها ، وكان منهم التجار والأثرياء . أما قريش الظواهر فقد ســكنوا في ضـــواحي مكة ، وكانوا أقل منزلة من قريش البطاح .

وبعد أن تم لقصي جمع شمل قريش في مكة ، واتسقت له طاعتهم ، بـــنى داره الـــتي أسميت دار الندوة ، لأن القرشيون كانوا ينتدون فيها ، فيتحدثون ، ويتشاورون في حـــربهم وأمورهم ، ويعقدون الألوية ، ويزوجون من أراد التزويج ، ومنها كانت ترحـــل قوافـــل

---

(1) ابن هشام ، مج١ ، ج١ ، ص٤٥-٦٨ .

التجارة ، وفي فنائها تحط رحالها بعد رجوعها . إذاً فدار الندوة كانت دار للمشورة في السلم والحرب ، ودار حكومة يديرها الملأ . أو ما يمكن تسميته بمجلس الشيوخ ، ويعد المشرف على هذه الدار بمثابة رئيس مجلسها ، أو كبير مستشاريها[1].

ج ـ الوظائف الإدارية في مكة :

إلى جانب دار الندوة عمل قصي على تنظيم أمور مكة ، حيث قامت فيها عدة وظائف إدارية أهمها: الحجابة (السدانة) ، والرفادة ، والسقاية ، واللواء ، والقيادة . وهذه الوظائف هي التي احتفظ بها قصي في يده ، إلى جانب وظائف أقل أهمية وزعها على بطون قريش الأخرى ، وهي : الاشتقاق (الديات) ، والقبة ، والأعنة ، والسفارة ، والإيسار ، والمشورة ، والأموال المحجرة .

وقد كان القائم بالحجابة يمتلك مفاتيح الكعبة ، ويتولى الإشراف عليها ، أما الرفادة : فهي إطعام الحاج ، أما السقاية : فهي سقاية الحجاج نظراً لقلة الماء العذب في مكة ، أما اللواء : فراية ترفع على رمح علامة للعسكر إذا توجهوا للحرب ، وتدور حولها المعارك ، أما القيادة : فهي قيادة الجيش عند الحرب ، وبالنسبة للاشتقاق : فهي دفع الديات والمغارم ، أما القبة : فهي قبة يجهزون فيها ما يجمعونه للحرب ، أما الأعنة : فالمقصود بها أعنة الخيل ، يتولى صاحبها خيل قريش ، ويدير شئونها في الحرب ، أما السفارة : فصاحبها هو المسئول عن الاتصال بالقبائل الأخرى للمفاوضة أو المنافرة ، أما الإيسار : فهي الأزلام التي يستقسمون بها لمعرفة رأي آلهتهم الوثنية لأمر يستخيرونها فيه ،

---

[1] سالم ، ص٣١٥ .

أما المشورة : فصاحبها هو الذي لا تجتمع قريش على أمر حتى تعرضه عليه ، أما الأموال المحجرة : فصاحبها مسئول عن الأموال التي كانوا يسموها لآلهتهم[1] .

ولما شاخ قصي جعل لابنه عبد الدار ممارسة المهام التي كان يتولاها ، فلما هلك قصي أجمع بنو عبد مناف بن قصي : (عبد شمس ، وهاشم ، والمطلب ، ونوفل) على أن يأخذوا ما بأيدي بني عبد الدار ، ورأوا أنهم أحق بذلك منهم ، لفضلهم في قومهم . فتفرقت قريش عند ذلك إلى فريقين : أحدهما مؤيد لبني عبد مناف ، والآخر مؤيد لبني عبد الدار ، وأجمع الفريقان على الحرب ، ثم تداعوا إلى الصلح ، على أن يكون لبني عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة ، ويكون لبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة ، وتحاجز الناس عن الحرب ، وثبت كل قوم مع من حالفوا ، وظلوا على هذا النحو حتى ظهور الإسلام ، وفتح مكة في العام الثامن للهجرة[2].

د ـ حملة أصحاب الفيل على مكة :

لعل أهم حدث شهدته مكة قبل الإسلام هو حملة أصحاب الفيل التي قادها الحاكم الحبشي في اليمن أبرهة . وكان يتزعم مكة في ذلك الوقت عبد المطلب بن هاشم ، الذي قال لأبرهة قولته المشهورة : " أنا رب إبلي وللبيت رب يحميه " ، وبالفعل فقد حمى الله

---

[1] برو ، ص١٨٠ — ١٨٣ .

[2] سالم ، ص٣١٦ ، ٣١٧ .

بيته ، وانتهت الحملة بهزيمة ساحقة للأحباش كما ذكر ذلك القرآن الكريم (سورة الفيل)[1] .

ويذكر أهل الأخبار أن سبب الحملة الحبشية على مكة كان هو الانتقام من العرب الذين أهانوا كنيسة أبرهة (القليس) التي بناها في صنعاء[2] . ويبدو أن هذا السبب المتلفع بالدين كان هو السبب المعلن من قبل أبرهة ، ولكنه كان يخفي من ورائه أسباب أخرى (سياسية ، واقتصادية) ، كانت بمثابة المحرك الفعلي لانطلاق حملته هذه نحو مكة . ويتفق أغلب الدارسين المحدثين على أن الهدف الحقيقي لهذه الحملة كان هو السيطرة على تجارة الحجاز ــ خصوصاً تجارة إيلاف قريش[3] ــ ، ومن ثم التحكم بطرق التجارة التي تربط

---

(1) عن الحملة وتفاصيلها ، انظر : أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٤٨ – ٥٨ .

(2) ابن هشام ، مج١ ، ج١ ، ص٣٠ – ٣٢ .

(3) الإيلاف : هو تلك العِصَم (العهود) التي أخذها هاشم بن عبد مناف ، وإخوته : المطلب وعبد شمس ونوفل ، من ملوك الروم واليمن والحبشة والعراق ، لتأليف رحلة الشتاء والصيف المذكورة في القرآن الكريم (سورة قريش) . (البلاذري . أنساب الأشراف، ج١، القاهرة ، ١٩٥٩م ، ص٥٩) . وقد كان نشوء الإيلاف في أوائل القرن السادس الميلادي على أنقاض الشبكة التجارية الحميرية (طريق اللبان) . (سحاب . إيلاف قريش ، ص١٩٥ ، ٢١٢ ، ٢١٣) . وقد ساعد سقوط اليمن تحت الاحتلال الحبشي ، ثم الفارسي ، وقيام الخلافات الداخلية في اليمن على ذلك التحول . (الشريف . مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ، ١٩٦٥م ، ص١٥٤) .

الشام باليمن[1] ، بل إن البعض يعد هذه الحملة بمثابة الهدف الحقيقي للاحتلال الحبشي لليمن[2] .

وخلاصة القول إن الحوافز الدينية والاقتصادية ، قد تداخلت مع بعضها ؛ فحصر النفوذ التجاري لمكة والسيطرة على مصدر ثروتها يتطلب تدمير الحرم المكي ، الذي قامت الأسواق من حوله ، خصوصاً أثناء موسم الحج ، ولذلك لابد من اجتذاب العرب إلى حرم جديد يحجون إليه ، ويردون أسواقه ، ليصبح هو المركز التجاري الجديد في جزيرة العرب[3] .

وهكذا انتهت حملة أصحاب الفيل بالفشل ، وتمخضت عنها نتائج أهمها : احتكار العرب ــ خصوصاً قريش ــ للطريق التجاري المار عبر الحجاز[4] ، وكذلك ازدياد مكانة قريش بين سائر العرب ، وذلك أنه لما " رد الله الحبشة عن مكة ... أعظمت العرب قريشاً ، وقالوا : هم أهل الله ، قاتل الله عنهم ، وكفاهم مئونة عدوهم "[5] .

وهكذا فبدلاً مما كان أبرهة يرغب فيه من إضعاف مكة ، أصبحت هزيمته فيها من عوامل ازدياد شهرتها[6] .

---

(1) مثلاً : لوندين . اليمن إبان القرن السادس الميلادي ، الحلقة الرابعة ، مجلة الإكليل ، العدد الأول ، ١٩٩٠م ، ص٢٢ ــ علي ، المفصل ، ج٣ ، ص٥١٧ ، ٥١٨ .

(2) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٠٤ .

(3) سحاب . ص١٦٥ – لوندين ، ص٢٢ .

(4) جليان . ص١٤ .

(5) ابن هشام . مج١ ، ج١ ، ص٣٧ .

(6) الشيبه . اليمن القديم ، ص٣٣ .

وبعد أن تمكن سيف بن ذي يزن من طرد الأحباش من اليمن ، قوبل ذلك بـــالفرح الشديد من قبل القبائل العربية الشمالية ، حيث توافد رؤسائها على سيف بـــن ذي يـــزن يهنئونه بهذا الظفر الكبير ، وقد كان وفد قريش من ضمن هذه الوفود ، وكان على رأســـه عبد المطلب بن هاشم[1] .

(1) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٦٠ ، ٦١ .

الفصل الثاني

يثـــرب

أولاً : موقعهـــا :

تقع يثرب وسط سهل مرتفع ، على بعد (٥٠٠كم) تقريباً إلى الشمال من مكة . وفي شمال يثرب يقع جبل أحد ثم جبل سلع ، بينما يقع في جنوبها الغربي جبل عير ، وكذلك وادي العقيق ، الذي يحتوي على آبار هي أعذب ما في تلك البلاد من ميـــاه . وتنتشـــر في أطراف يثرب تربة بركانية ، تجعل منها أراضي خصبة صالحة للزراعة ، كما تتصل هـــذه بدورها بوديان كثيرة تحيط بالمدينة من جميع جهاتها . وقد ساعد توافر المياه فيها إلى جانـــب خصوبة أراضيها على قيام نوع من حياة الاستقرار منذ القدم ، معتمدة على الزراعة . ولعل بساتين يثرب هي أشهر ما ميز هذه المدينة عبر تاريخها[1] .

وكذلك فإن موقعها على الطريق التجاري الذي يربط اليمن ببلاد الشام ، قد جعل منها محطة تجارية على ذلك الطريق ؛ تقصدها القوافل التجارية ، وتقضي فيها بعض الوقت قبل أن تواصل رحلتها نحو المحطات التالية لها . ولذلك فقد أقامت فيها جاليات تجارية سبئية

---

(١) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٧٤ .

ومعينية ، حيث ذكرت يثرب في نقوش هاتين الدولتين . وكذلك ذكرت في كتابات بـــلاد الرافدين ، وأيضاً في المصادر اليونانية والرومانية .

وقد أطلق على يثرب اسم المدينة بعد الهجرة النبوية الشريفة إليها ، ويرى البعض أن اسم المدينة مأخوذ من لفظة مدينتا الأرامية ، ومعناها الحمى أو المدينة ، ويرى البعض الآخر أن اسم المدينة ما هو إلاّ اختصاراً لمدينة الرسول ﷺ . وفي كل الأحوال فإن اسم المدينـــة لم يطلق على يثرب إلاّ بعد الهجرة النبوية الشريفة ، ولم يطلق عليها قبل ذلك . وقد ورد كلا الاسمين في القرآن الكريم (الأحزاب/ ١٣ ـــ التوبة/ ١٢٠).

وإلى جانب أسمي يثرب والمدينة فقد وردت أسماء أخرى لهذه المدينة ، حتى أن بعض أهل الأخبار عدد لها ما يربو على تسعين اسماً ، لعل أبرزها هي : (طيبـــة ، والمســـكينة ، وجابرة ، والمجبورة ، والمرحومة ، والعذراء،والمحبوبة ، والعاصمة ، والقاصمة ، والمختـــارة ، والمقدسة ، ودار الهجرة ... الخ)[١] .

---

[١] سالم ، ص٣٣١ ـــ ٣٣٤ .

ثانياً : تاريخهـــا :

أ- أقدم ذكر ليثرب :

يعود أقدم ذكر ليثرب إلى الكتابات المســمارية الــتي تعـود إلى العصـر البـابلي الحديث (الكلداني) ، وبصفة خاصة إلى عهد آخر ملوك هــذا العصـر وهــو نبونئيـد (٥٥٦-٥٣٩ ق . م) ، حيث اتخذ هذا الملك من مدينة تيماء مقراً له ، ومنها قام بحملة ضد مناطق ديدان وخيبر ويثرب (أتريبو) التي كانت أقصى ما وصل إليه نفوذ هذا الملك نحو الجنوب[١] . ومع ذلك فالاعتقاد أن وجود هذه المدينة يعود إلى فترات ســابقة لهــذا التاريخ ، نظراً لوقوع هذه المدينة على طريق البخور التجاري ، الذي يمتد من الـيمن إلى الشام ، والذي يربط المؤرخون قيامه باستئناس الجمل في الألف الثاني قبل الميلاد تقريباً[٢] ، ويؤكد ذلك ورود اسم يثرب في الكتابات المعينية والسبئية ، بصفتها محطــة علــى ذلــك الطريق[٣] .

ب- سكان يثرب :

يذكر أهل الأخبار أن العماليق هم أول من سكن يثرب ، مثلها مثــل بقيــة مــدن الحجاز ، وأن ذلك كان قبل أن تنــزلها القبائل اليهودية التي يعتقد أنها استوطنت يثرب بعد عام (٧٠م) . ويأتي في مقدمة القبائل اليهودية التي سكنت يثرب كل من : (بنو قريظــة ،

---

[١] مهران . تاريخ العرب القديم ، ص٤٣١ .

[٢] عبد الله . أوراق ، ص٢٢٢ .

[٣] هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٧٥ .

وبنو النضير ، وبنو قينقاع) ، وقد تكاثر اليهود في يثرب (المدينة) حتى كادوا يغلبون عليها ، واختاروا أن تكون لهم أحياء يسكنونها خاصة بهم ، وابتنوا لهم حصوناً (آطاماً) يلجئون إليها في أوقات الشدة . وقد سكن يثرب إلى جانب اليهود ، ومن قبلهم جاليات مختلفة من عرب الشمال ، حتى نزل فيها الأوس والخزرج ، وهم من عرب اليمن ، من قبيلة الأزد ؛ وأمهما هي قيله بنت كاهل ، ولذلك يقال للأوس والخزرج معاً ، بنو قيلة[1] .

ج ـ الأوس والخزرج :

بعد أن استقر الأوس والخزرج في يثرب ، استطاعوا أن ينتزعوا من يهودها عدداً من الحصون ، ثم ابتنوا لأنفسهم حصوناً أخرى . وقد تكاثر الأوس والخزرج ، وأخذوا يقاومون النفوذ اليهودي ، وقد جمعت العصبية بينهم وبين سكان يثرب من عرب الشمال ، حتى أصبحت يثرب تحت نفوذهم . ولكن اليهود لم يركنوا للاستسلام ، بل لجئوا إلى سياسة الدس والإيقاع بين الأوس والخزرج كما هي عادتهم ، فنشبت الحروب بين القبيلتين العربيتين ، ابتداءً من النصف الثاني للقرن السادس الميلادي ، وكان الأوس والخزرج يتحالفون مع بعض القبائل العربية الأخرى ، وحتى مع إحدى قبائل اليهود في يثرب ؛ فقد تحالف الخزرج مع بني قينقاع ، وتحالف الأوس مع بني قريظة ، فكانت بين الطرفين أيام من أيام العرب ، كان النصر فيها سجالاً بينهما . ومن أشهر هذه الأيام ، يوم سمير ، ويوم حاطب ، وكان آخر هذه الأيام هو يوم بعاث ، الذي حدث في السنة الخامسة قبل الهجرة . وقد ألحقت تلك الحروب أضراراً جسيمة بالقبيلتين ، فقتل عدد كبير من رجالهما ، بينهم

---

[1] سالم ، ص٣٣٩ ، ٣٤٠ .

وجهاء وزعماء بارزون . ومهما يكن من أمر فإن الأوس والخزرج كانوا قد عقدوا العـــزم على تصفية خلافاتهم نهائياً ، وكانوا في أمس الحاجة إلى وسيط يوحد كلمتهم ، عندها حل الرسول ﷺ في يثرب ، وزرع في نفوسهم الأمن والمحبة والسلام ، فأصبح الفريقان يعرفان باسم جامع لهما هو الأنصار[1]، وأصبحوا إلى جانب إخوانهم المهـــاجرين ركيـــزة الدولـــة الإسلامية الجديدة ، وأصبحت مدينتهم (يثرب) أول عاصمة لهذه الدولة .

د – حملة أسعد الكامل على يثرب :

تحكي كتب أهل الأخبار أن التبع الحميري أسعد الكامل قد أكثر من الغزو ؛ داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وأن غزواته قد شملت أراضي المشرقين والمغربين . وبغض النظر عن صحة ذلك فإن ما يهمنا هنا هو ما ذكرته تلك الكتب عن حملة هذا الملك ضد يثرب . وملخصها أن الملك أسعد الكامل قد مر بيثرب في مبدأ غزواته التي بلغت الصين ، وأنه ترك في يثرب ابناً له ، فقتله اليثربيون غيلة . وعند انتهاء الملك أسعد من غزواته عاد إلى يثرب ، وفي نيته إخرابها ، واستئصال أهلها ، وقطع نخيلها ، انتقاماً لولده ، فبدأ في مقاتلـــة أهـــل يثرب ، وأثناء قتاله لهم خرج له حبران يهوديان ، نهياه عن إخرابها ، وقتال أهلها ، وأخبراه أنه لن يستطيع دخولها ، لأنها ستكون مهاجر لنبي كريم ، يخرج من قريش في آخر الزمان ، فكف الملك أسعد عن ذلك . وأخذ الحبرين معه إلى اليمن بعد أن اعتنق اليهودية[2] .

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٧٦ ، ١٧٧ .
(2) ابن هشام . مج١ ، ج١ ، ص١٩ ، ٢٠ .

والتبع أسعد الكامل هذا هو الملك الحميري المسمى في النقوش أبي كـــرب أســـعد ، والذي حكم في أواخر القرن الرابع مطلع القرن الخامس الميلادي . وعلى الرغم أنه لم يأت ذكر ليثرب في نقوشه المعروفة ، إلاّ أن أحد هذه النقوش قد تحدث عن حمـــلات للملـــك صوب منطقة شمال الجزيرة العربية ، على قبائل معد بصفة خاصة . والسؤال هنا : هل كان لهذه الحملات المذكورة في كتب أهل الأخبار علاقة بالحملة المذكورة في هذا الـــنقش ؟ ولا مناص من الاعتراف هنا بأننا لن نتمكن من تقديم إجابة شافية على ذلـــك الســـؤال ؛ لأن النقوش التي بين أيدينا لا تمكننا من ذلك ، فالنقش الذي يتحدث عن حملات هذا الملك نحو مناطق شمال الجزيرة العربية لا يذكر إلاّ معد فقط ، ولكننا يمكن أن نستشف منه أن النقش قد دون أثناء ذهاب الحملة إلى معد وليس بعد الانتهاء منها ، لكون الـــنقش لم يـــذكر أي تفاصيل عن المعركة الدائرة ، وعن النتائج التي تمخضت عن هذه الحملة كما جرت عليـــه العادة عند تدوين النقوش الحربية . أي أن الملك أبي كرب أسعد عندما دون هذا النقش قد ذكر لنا قبيلة معد بصفتها وجهته الأولى التي خرج من أجلها ، ولكن عملية سير المعركة ، والنتائج التي تمخضت عنها ، والتي كانت أحداثها بعد تدوين النقش المذكور ربما قادته إلى معارك أخرى ضد قبائل ومناطق أخرى في شمال الجزيرة العربية ، قد يكون منها يثـــرب ، ومكة ، وبقية مناطق الجزيرة التي ورد ذكرها في كتب أهل الأخبـــار ، بصـــفتها منـــاطق مستهدفة لحملات الملك أسعد الكامل (أبي كرب أسعد)[1] .

---

(1) أبو العيث . الدكتوراه ، ص٩ — ١٢ .

الفصل الثالث

الطائــف

أولاً : موقعهـــا :

تقع مدينة الطائف على بعد (١٠٠كم) تقريباً إلى الجنوب الشرقي من مكـــة ، في وسط جبال سراة الحجاز . ويشرف عليها جبل غزوان ، وإلى الشرق منها يقع وادي لية ، المشهور بزراعة الأعناب . وتتمتع بمناخ بارد شتاءً ، ومعتدل صيفاً[١] .

وتذكر المصادر العربية أن الاسم القديم للطائف هو (وج) نســبة إلى وادي وج ، الذي يقع بالقرب منها ، وتورد هذه المصادر قصة لتسميتها بالطائف ؛ مفادها أن رجلاً ثرياً من الصدف من حضرموت اليمن قتل ابن عم له ، ثم خرج هارباً حتى نزل وج ، فتــزوج من قبيلة ثقيف ، وفي مقابل ذلك أقام لهم طوفاً مثل الحائط (سوراً) حتى لا يصل إلــيهم أعدائهم ، ويكون هذا الطوف حصناً لهم ، وسمي الموضع لذلك بالطائف . وقد ظل اســم وج يطلق على موضع من الطائف يقع على الوادي ، وهو الموقع الذي أقامت فيه زبيــدة

---

(١) برو ، ص١٩٢ ـــ سالم ، ص٣٢١ ، ٣٢٢ .

زوجة هارون الرشيد حائطين يقال لهما وج[1] . ويرى البعض أن تسميتها بالطائف كانت نتيجة للطواف حول بيت اللات الموجود فيها ، إلى جانب الأهمية الدينية لها بصفتها المركز الوثني الثاني في الحجاز بعد مكة[2] .

وقد اشتهرت الطائف بزراعة الحنطة التي اعتمدت عليها أكثر حواضر الحجاز ، وكذلك اشتهرت بفواكهها المتعددة ، مثل النخيل والموز والتين ، لكن أكثر اعتمادها كان على العنب ، الذي يشكل ثروتها الاقتصادية الأولى ، وقد كان يضرب بزبيبها المثل . أما تربية النحل فكانت من الأعمال الهامة التي اشتهرت بها مدينة الطائف ، وكان عسل الطائف مستحب في سائر أنحاء بلاد العرب في الجاهلية والإسلام ، وعليه وعلى المنتجات الزراعية السالف ذكرها قامت تجارة الطائف ، حيث كان أهل الطائف يستفيدون من غلات أراضيهم ، وحاصلاتها ، فيذهبون بها إلى مكة والعراق وغيرها ، كما كانوا يستفيدون من موقع بلدهم بالقرب من الأسواق ، لا سيما سوق عكاظ[3] .

---

(1) الحموي . معجم البلدان ، مادة : الطائف .

(2) سالم ، ص٣٢٠ .

(3) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٧٧ ، ١٧٨ .

ثانياً : تاريخهـــا :

أ ـ البدايات الأولى :

ما يزال تاريخ الطائف غامضاً ، ولا نعرف حتى الآن البدايات الأولى لنشـــوء هـــذه المدينة ، وبهذا الخصوص تجدر الإشارة إلى أن الباحثين قد عثروا على كتابات مدونة علـــى الصخور المحيطة بالطائف ، وفي مواضع أخرى ليست بعيدة عنها ؛ بعضها مدون بالنبطية ، وبعضها بالثمودية ، وبعضها بعربية القرآن الكريم . كما عثر على كتابات تشبه اليونانية ، وأخرى تشبه الخط الكوفي . ولكن مع الأسف الشديد فإن هذه الكتابات لم تحظ بالدراسة الكافية حتى نستشف منها بعض تاريخ هذه المدينة الحجازية الهامة[1] .

ب ـ سكان الطائف :

يذكر أهل الأخبار أن أول من سكن الطائف إنما هم العماليق ، ثم غلبهم عليها بنـــو عدوان ، من قيس عيلان ، ثم بنو عامر بن صعصعة ، ثم أخذها ثقيف[2] .

ويضرب بقبيلة ثقيف هـــذه المثـــل في قـــوة رجالهـــا ، ومقـــدرتهم علـــى حمايـــة بلدهم . وقد سكن الطائف إلى جانب ثقيف جماعات من اليمن وقريش وهوازن ، أما هذيل فقد سكنت جبل غزوان أهم جبال الطائف[3] .

---

(1) مهران . العرب القديم ، ص٤٨٣ .

(2) المرجع نفسه ، ص٤٨٤ .

(3) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٧٨ .

ج ـ المركز الديني للطائف :

احتلت الطائف ــ خلال العصر الجاهلي ــ المرتبة الدينية الثانية في الحجـاز بعـد مكة ، ففيها كانت تعبد اللات ، وكان لها بيت تتعبده ثقيف ، وتطوف حولـه ، وكـانوا يعظمونه كتعظيم أهل مكة للكعبة ، وكانت قريش وجميع العرب تعظم اللات هذه . فلمـا عزم الرسول ﷺ على فتح الطائف في العام الثامن للهجرة ، بعد منصرفه من حنين ، وقـد امتنع أهل الطائف في حصنهم ، فحاصرهم النبي ﷺ خمسةَ عشرَ يوماً ، وقيل شهراً ، فلمـا استهل شهر ذي الحجة رجع الرسول ﷺ معتمراً إلى مكة ، ثم تجهز بعد الأشهر الحرم لمعاودة حصار الطائف ، فلما بلغ أهلها ذلك ، بعثوا وفدهم إليه للمفاوضة التي انتهت بالصلح بين الطـرفين ، وتكسـير الـلات علـى يـد المغـيرة بـن شـعبة ، وقيـل هـدمها وأحرقها[1] .

د ـ علاقة الطائف بمكة :

ينفتح سهل الطائف على مكة ، ويقترن اسمها عادة بمكة ؛ فيقال مكة من الطائف ، والطائف من مكة . وكانت المدينتين تسميان بالقريتين ، كما عرفتا بالمكتين . وكان المكيون يرتبطون بأهل الطائف ارتباطاً وثيقاً من الناحية الاجتماعية والاقتصادية ، وكانوا يمتلكون في الطائف مزارع وبساتين ، كما كانت لهم فيها تجارات وأموال يوظفونها[2].

---

(1) سالم ، ص٣٢٩ .

(2) المرجع نفسه ، ص٣٢١ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ .

وقد جعلها جوها المعتدل في الصيف ، مصيفاً لأهل مكة ولغيرهم من العرب ، لاسيما وأنها واحة غنية بمياهها العذبة ، وتربتها الخصبة ، وبساتينها وحدائقها الغناء التي تفيض بالفواكه والثمار[١] .

---

(١) برو . ص١٩٢ .

الباب السادس

بعض ملامح العصر الجاهلي

تمهيد

بعض ملامح العصر الجاهلي

تمهيد :

نقصد بالعصر الجاهلي تلك الحقبة من تاريخ الجزيرة العربية التي سبقت ظهور الإسلام ، والتي تمتد من القرن الخامس إلى مطلع القرن السابع الميلادي تقريباً . وسوف نقتصر هنا على دراسة أشهر ملامح ذلك العصر والتي تمثلت في جوانب ثلاثة هي :

أيام العرب في الجاهلية : والتي لعبت دوراً مهماً في صياغة الحياة الاجتماعية والسياسية لعرب الجزيرة ، عشية ظهور الإسلام ، بما أحدثته من صراعات عسكرية بين القبائل العربية ، والتي كانت تشتعل لأتفه الأسباب . إلى جانب أن هذه الأيام ، بالروايات والأشعار التي قيلت فيها ، تمثل مصدراً مهماً لدراسة تاريخ العرب قبل الإسلام .

أما الملمح الثاني فيتمثل في أسواق العرب ، التي مهدت لاندماج القبائل العربية المشتتة ، في أمة واحدة ، حيث ساعدت هذه الأسواق على تكون الشخصية العربية قبيل ظهور الإسلام ، بما لعبته من دور في إتمام التكامل الاقتصادي بين العرب ، إلى جانب مساعدتها في تكون اللغة العربية الفصحى ، من خلال قصائد الشعر العربي التي كانت هذه الأسواق مجالاً لترديدها ، وانتشارها ، وذيوع صيتها ، فضلاً عما لعبته هذه الأسواق في صياغة علاقة العرب بالأمم المجاورة لهم .

نصل أخيراً إلى ثالث هذه الملامح ، والمتمثلة في أديان العرب بكل ما تعنيـــه هـــذه الأديان من تشتت وتشرذم للعرب خلال العصر الجاهلي ، حيث تمثلت عظمة الإســـلام في القضاء على هذا الخليط المتنافر الذي مثلته الوثنية العربية ، وبالتالي تجميع كل أبناء الجزيرة العربية في ظل ديانة واحدة ، هي ديانة الإسلام الحنيف ، التي غير ظهورها حياة أبناء الجزيرة العربية رأساً على عقب ، وكوّن منهم أمة واحدة أصبح لها دولتها القوية آنذاك.

الفصل الأول

أيام العرب في الجاهلية

أولاً : لمحة تاريخية عن أيام العرب :

أ. تعريفها :

أيام العرب هي تلك الحروب والمناوشات التي شهدها منطقة الجزيرة العربية ، سواء كانت بين القبائل العربية بعضها البعض ، أو بين القبائل العربية والفرس . وقد اصطلح على تسمية هذه الحروب بالأيام ، أو أيام العرب[1]؛ لأن معارك معظم الأيام كانت في الغالب لا تطول غير يوم واحد ، فإما أن تنتهي بانتصار أحد الفريقين وفرار الآخر ، وإما أن يفصل بينهم الليل ، فيفترقون تاركين القتال إلى يوم آخر[2].

(1) مهران . مصر والشرق الأدنى القديم ، ج١ ، الحضارة العربية القديمة ، الاسكندرية ، (د . ت) ، ص١٦٣ ـ هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٨٠ .

(2) البستاني . الشعر الجاهلي ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص٣٣ ، ٣٤ .

وقد امتد زمن تلك الأيام من مطلع القرن الخامس إلى مطلع القرن السابع الميلادي ، ولا يزال من الصعب ترتيب هذه الأيام ترتيباً زمنياً ، وتحديد زمن كل منها . وذلك لقلة معارفنا عن المساهمين فيها ، والمؤججين لنارها .

ب ـ أسماؤها :

أسميت معظم أيام العرب بأسماء المواضع التي قامت فيها أو قريباً منها ، مثل يوم السلان ، ويوم خزاز ، ويوم الكلاب ، وغيرها .

وقد تسمى بعض هذه الأيام بأسماء من تسبب في نشوبها ، مثل حرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء ، أو بالمناسبة التي حدثت فيها مثل حرب الفجار[1] .

ج ـ أسبابها :

تعددت الأسباب المؤججة لهذه الأيام ؛ بين أسباب سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، مع تفاوت في أهمية هذه الأسباب بين يوم وآخر حيث حظيت بعض هذه الأسباب بالوجاهة والمعقولية ، بينما تميز بعضها بالتفاهة والسذاجة[2] .

د ـ عددها :

اختلف المهتمون بدراسة أيام العرب حول عددها ، وذلك لأهمية بعضها وتفاهة البعض الآخر . فقد روي أن أبا عبيد ألف كتابين عن أيام العرب ، أحدهما صغير حوى خمسة وسبعين يوماً ، والآخر كبيراً اشتمل على ألفٍ ومأتي يوم . أما أبو الفرج الأصفهاني فقد جمع منها في كتابه المخصص لها ، ألفاً وسبعمائة يوم[3] . ولكن مع الأسف الشديد فإن

---

(1) سالم ، ص٣٧٦ .

(2) مهران . الحضارة العربية القديمة ، ص١٦٥ ، ١٦٦ ـــ هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٨١ .

(3) خليفة . حاجي . كشف الظنون ، ج١ ، استانبول ، ١٩٤١م ، ص٢٠٤ .

تلك الكتب قد فقدت ، وكل ما وصلنا عن أيام العرب عبارة عن روايات منتشرة في كتب الأدب والتاريخ . فهذا هو ابن الأثير يورد في ختام الجزء الأول من كتابه الكامل في التاريخ[1] ذكر لثمان وستون يوماً ، وصفها بأنها هي الأيام المشهورة التي اشتملت على جمع كثير وقتال شديد . وقد ألف بعض الدارسون المحدثون كتاباً خصص لأيام العرب ، جمعوا فيه ـ حسب قولهم ـ الأيام المشهورة التي وصلت إليهم تفاصيل حوادثها ، وذكر أسبابها ، ورواية أشعارها.وقد بلغت لديهم ثلاثاً وستين يوماً[2].

هـ - تقسيماتها :

تقسم أيام العرب عادة إلى أربعة أقسام رئيسية هي : أيام بين العرب والفرس ، وأيام بين القحطانيين و العدنانيين ، وأيام بين القحطانيين بعضهم البعض ، وأيام بين العدنانيين بعضهم البعض ، ويتفرع من القسم الأخير أقسام جزئية عديدة ، نظراً لكثرة الأيام التي تدخل ضمن هذا القسم ، مقارنة له مع الأقسام الأخرى[3].

و- أهميتها :

تشكل هذه الأيام مصدراً أساسياً مهماً عن أحوال القبائل العربية ، وعاداتها ، وتقاليدها ، وأخلاق أفرادها ، وطبيعة العلاقة التي كانت تربط بين هذه القبائل في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام ، نظراً لأن مادتها تُعد من أقدم مصادر النثر العربية ، وأكثرها قيمة بعد الشعر الجاهلي ، بما خلفته لنا من تفاصيل أمينة وصادقة ، عن حياة العرب قبيل الإسلام ، ما كان ليسهل العثور عليها في غيرها من المصادر ، كما أنها تعكس جوانب من أحوال العرب ، وعاداتهم ، وأسلوب حياتهم ، ونظرتهم إلى الحرب والسلم ، وصبرهم في

---

(1) ج١ ، ص٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(2) جاد المولى ، ص ج — ل .

(3) المرجع نفسه ، ص ج — ح .

القتال ، وصمودهم ، وبسالتهم عند اللقاء ، وتقاليدهم في معاملة الأسرى ، ودية القتيل ومقدارها . ومع ذلك تظل صحة الأخبار الواردة في أيام العرب موضع نظر ، لتباعد المسافة بين تاريخ أحداثها ، وتاريخ تدوينها . وكذلك طغيان الطابع الاسطوري على بعض أحداثها ، وتميز بعض رواها بالتعصب لأقوامهم ، وبعدهم عن الحيدة التاريخية[1] .

ثانياً : أهم أيام العرب :

في البداية يجب التنبيه هنا أننا سنقتصر على ذكر ملخص عن أهم أيام العرب ، مع مراعاة أننا قد نجد لبعض الأيام روايتين أو أكثر ، تتناقض مع بعضها ؛ وفي مثل هذه الحالات فإننا سنقتصر على دراسة الرواية التي نثق بصحتها . والأيام التي سندرسها هي :

أ . يوم طَسْم و جَدِيس :

دارت أحداث هذا اليوم بين قبيلتي طسم وجديس ، في منطقة العروض (اليمامة والبحرين) . وكان ملك طسم المسمى عمليق موالياً للدولة الحميرية ، وامتد ملكه ليشمل قبيلة جديس أيضاً التي لقيت منه ذلاً وهواناً . وقد جعلها ذلك تغدر بطسم وملكها عمليق ؛ الأمر الذي أغضب الملك الحميري حسان بن أسعد (حسان يهأمن بن أبي كرب أسعد) ، وجعله يسير على جديس إلى رأس جيش كبير فأفناهم جميعاً[2] .

ويبدو أن قبيلة طسم هي التي كانت تمثل النفوذ اليمني الحميري في منطقة شمال الجزيرة العربية ، ولذلك فإن انتهاء هذه القبيلة قد جعل الدولة الحميرية تفكر في وجود بديل لها . وقد تمثل ذلك البديل في قيام دولة كندة ـــ في دهرها الثاني ـــ التي رجحنا

---

(١) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص١٠٦ ، ١٠٧ .

(٢) ابن الأثير . ج١ ، ص٢٠٣ – ٢٠٥ .

ارتباط قيامها بحملة الملك الحميري أبي كرب أسعد وابنه حسان يهأمن ، على منطقة شمال الجزيرة ، في أواخر الربع الأول من القرن الخامس الميلادي ، أو بزمن قريب منه[١] .

ب. يوم البيضاء (البيداء)

البيضاء ، هو اسم المكان الذي دارت فيه المعركة في هذا اليوم ، ويسمى أيضاً بالبيداء . وكان سببه أن قبيلة مذحج اليمنية انطلقت صوب تهامة الحجاز ، طلباً للتوسع في المعاش ، فتضايقت منها القبائل المعدية الموجودة هناك ، لكونها بدأت تنافسها في الكلأ والمرعى . وكان على رأس تلك القبائل ، قبيلة عدوان ، وأميرها يومئذ عامر بن الظَرِب ، الذي رفع راية التصدي لمذحج ، واستطاع أن يوحد القبائل المعدية كلها ــ تحت قيادته ــ لمواجهة مذحج ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تجتمع فيها معد تحت راية واحدة[٢] .

وعلى الرغم من قول المؤرخين بأن يوم البيضاء قد انتهت بهزيمة الجانب اليمني على يد القبائل المعدية إلاَّ أننا يجب أن نأخذ ذلك القول بحذر ، نظراً للقول الشائع بين الدارسين بأن يوم خزاز ــ التالي ليوم البيضاء ــ هو أول يوم استنصفت فيه معد من اليمن ، وكانت قبلها لا تستنصف من اليمن[٣] .

أما تاريخ يوم البيضاء فيعود إلى مطلع القرن الخامس الميلادي على وجه التقريب . وذلك هو الزمن الذي تحركت فيه كندة مرة أخرى نحو مناطق نجد واليمامة ــ بدعم من الملوك الحميريين ــ لتقيم دولتها في دهرها الثاني . فهل كان تحرك مذحج نحو تهامة الحجاز مصاحباً للتحرك الكندي ، بغرض فرض السيطرة اليمنية على منطقة شمال الجزيرة ؛ كندة

---

(١) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص١٧ ، ١١٠ .

(٢) زيدان . ص٢٥٤ ــ علي . المفصل ، ج٥ ، ص٣٤٦ .

(٣) جاد المولى ، ص١٠٩ ــ مهران . الحضارة العربية ، ص١٨٢ .

في الوسط والشرق ، ومذحج في الغرب ؟ قد يكون ذلك ، خصوصاً أن القبيلتين كانتا شريكتين في إقامة الدولة الكندية في دهرها الأول[1] .

وسبق الترجيح بأن عودة القبيلتين إلى الجنوب كانت في وقت واحد ، بعد أن طردهما الملك اللخمي امرؤ القيس بن عمرو ، من منطقة شمال الجزيرة في مطلع القرن الرابع الميلادي .

ج - يوم خَزاز :

تضاربت الروايات حول هذا اليوم ، لكن أشهر تلك الروايات هي الرواية التي أوردها ابن الأثير[2] ، ومفادها أن ملكاً من ملوك اليمن كان في يديه أسارى من قبائل معد ، فوفد عليه وفد من وجوه بني معد ، فكلموه في الأسارى ، فوهبهم لهم ، لكن الملك احتبس عنده بعض الوفد رهينة حتى يأتيه رؤساء معد ليأخذ عليهم المواثيق بالطاعة . فرجع بقية الوفد إلى قومهم وأخبروهم الخبر . فبعث كليب وائل زعيم تغلب إلى قبائل ربيعة فجمعهم ، واجتمعت معد عليه ، وهو أحد النفر الذين اجتمعت عليهم معد ، عند ذلك سار كليب بمن معه ، وجعل في مقدمة جيشه السفاح التغلبي ، وأمره أن يوقد على جبل خزاز ناراً ليهتدوا بها ، وطلب منه أن يوقد نارين إذا غشيه العدو . ولما بلغ مذحج اجتماع معد أقبلوا بجموعهم ، واستنفروا من يليهم من قبائل اليمن ، وساروا إليهم . ووصلت مذحج إلى خزاز ليلاً ، فرفع السفاح التغلبي نارين ، فلما رأى كليب النارين أقبل إليهم بالجموع ، فالتقوا بخزاز ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، أكثروا فيه القتل ، فانهزمت مذحج وانفضت جموعها .

---

[1] أبو الغيث . الدكتوراه ، ص١١٢ .

[2] ابن الأثير . ج١ ، ص٣١٠ ، ٣١١ .

وتعود أحداث هذا اليوم إلى النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي ، وهو الزمن الذي عاش فيه كليب وائل[1].

د . أيام حرب البسوس :

كانت بين بكر وتغلب من ربيعة ، ولم تكن حرباً واحدة ، بل هي حروب عدة وقعت في أوقات مختلفة متقطعة منذ نشبت في السنوات العشر الأخيرة من القرن الخامس الميلادي ، واستمرت قرابة أربعين سنة[2] .

أما سببها فقد تمثل في أن وائل بن ربيعة التغلبي (كليب وائل) قد بلغ مبلغاً عظيماً بعد انتصاره على مذحج في يوم خزاز ، وداخله الزهو والخيلاء إلى حد كبير ، حيث اتخذ شاهداً على سلطانه كليباً (جرو كلب) ، يلقيه في أية بقعة شاء ، فلا يستطيع أن يرعى أحدا أو أن يستقي من مكان يسمع فيه نباح ذلك الجرو إلا بإذن من وائل ، الذي أصبح يعرف ـ نتيجة لذلك ـ بكليب وائل . وكان كليب متزوجاً من جليلة بنت مرة شقيقة جساس بن مرة البكري . وحدث أن كليب قام بقتل ناقة تعود للبسوس خالة جساس بن مرة بعد أن أنكر وجودها بين إبله ، فغضب جساس لذلك ، وقام بقتل كليب غدراً وهرب، حيث اشتعلت الحرب بين قبيلتي بكر وتغلب ، وتعددت أيامها . وكان النصر في أيامها الأولى حليفاً لتغلب ، ثم تبدل مجرى الحرب في أيامها الأخيرة ، وأصبح لصالح بكر . وقد انتهت هذه الحروب بالصلح بين الطرفين ، وذلك بعد أن ترك المهلهل أخو كليب ديار قومه متوجهاً إلى اليمن ، بعد الهزائم التي توالت على تغلب ، وأصبح يضرب بهذه الحرب المثل في الشؤم ، فيقولون (أشأم من البسوس) . وقد اختلف المؤرخون حول من تولى أمر الإصلاح بين القبيلتين ، حيث يجعله بعضهم قيس بن شراحيل بن مرة بن همام ، ويجعله

---

(1) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص١١٨ .

(2) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٨٤ ، ١٨٥ .

البعض الآخر المنذر الثالث ملك الحيرة ، ويجعله فريق ثالث الملك الكندي الحارث بن عمرو[1] .

هـ- أيام حرب داحس والغبراء :

ثارت حرب داحس والغبراء بعد سلم البسوس بزمن يسير ، بين قبيلتي عبس وذبيان المضريتين . وكانت عبارة عن مناوشات بين القبيلتين ، امتدت ما يقارب الأربعين سنة[2] .

أما سبب نشوب هذه الحرب فقد تمثل في حدوث رهان على سباق الخيول ، بين قيس بن زهير العبسي ، وحذيفة بن بدر الفزاري الذبياني ، بحيث ينزل قيس داحس والغبراء (خيل وفرس) ، وينزل حذيفة مقابلهما الخطار والحنفاء[3] . وبعد أن دار السباق خاف حذيفة أن يخسر الرهان ، فأقام عند ممر في جبل جماعة من قومه ، وأمرهم بإمساك فرسي قيس عند مرورهما بهم . فلما وصل داحس ــ وكان سابقاً ــ أمسكوه ، ثم وصلت الغبراء بعده فلم يعرفوها ، وظل داحس في يد أصحاب حذيفة حتى مضت الخيل ، فأطلقوه فراح يتخطى الخيل واحداً واحداً ، إلاّ الغبراء ، ولو طال المدى لسبقها أيضاً ، وقد جاءت الغبراء سابقة ، وداحساً وراءها[4].

وعندما طلب قيس من حذيفة تسليم ما تراهنا عليه ، رفض وقام بقتل ولد قيس الذي جاء يطلب الرهان ، فثارت الحرب بين عبس وذبيان ، ومع كل منهما أحلافهما . ولم تتوقف المعارك والمناوشات بين الطرفين إلاّ بعد أن تدخل الحارث بن عوف المري ، وهرم بن سنان ، حيث سويت بدفع فضل الديات للطرف الذي كان قتلاه هم الأكثر . ويقال بأن

---

(1) جاد المولى ، ص١٤٢ – ١٦٩ .

(2) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٨٦ ــ سالم . ص٣٨١ .

(3) يرى البعض أن داحس والغبراء كانا لحذيفة ، ويرى آخرون أنهما كانا فرسي الرهان بين الرجلين . سالم ، ص٣٨١ .

(4) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٨٧ .

الوسيطين هما اللذان تكفلا بدفع الديات من مالهما الخاص ، وقد خلد زهير بن أبي سلمى في معلقته فعلهما[1] .

و- يوم شعب جِبَلة :

يسمى هذا اليوم نسبة إلى الموقع الذي دارت فيه المعركة ، وسببه أن لقيط بن زرارة التميمي زعيم قبائل تميم عزم على غزو بني عامر بن صعصعة لثأر بينهما ، فبينما هو يتجهز أتاه الخبر بتحالف بني عامر مع قبيلة عبس ، فلم يطمع في القوم ، فأرسل إلى كل من كان بينه وبين عبس ثأر يسأله الحلف ، فاجتمعت إليه قبيلتا أسد وغطفان ، وكذلك عمرو بن الجون ومعاوية بن الجون الكنديين ، وساروا جميعاً بعد أن عقد معاوية الجون الألوية . وتم لهم جمع لم يكن في الجاهلية أكثر منه ، فلم تشك العرب في هلاك عبس وبني عامر[2] .

وكان الخبر قد وصل إلى بني عامر وعبس بمسير القوم إليهم ، فالتجئوا إلى شعب جبلة ، وحصنوا النساء والذراري والأموال في رأس الجبل ، ومنعوا الماء عن الإبل . وعندما وصلت تميم ومن معها إلى موضع الماء ، أخرجت بني عامر عليهم الإبل العطاش ، فخرجت تحطم كل شيء تمر به . وحملت عبس وبني عامر على بني تميم ومن كان معهم ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، حتى انهزمت تميم وأحلافها ، وكثر القتلى في صفوفهم ، وكان أول من قتل من رؤسائهم عمرو بن الجون الكندي ، بينما أسر معاوية بن الجون وقتل[3] . ويعود تاريخ هذا اليوم إلى الربع الثالث من القرن السادس الميلادي[4] .

---

(1) جاد المولى . ص٢٤٦ ـــ ٢٧٧ .

(2) ابن الأثير . ج١ ، ص٣٥٥ ، ٣٥٦ ـــ جاد المولى ، ص٣٥١ .

(3) ابن الأثير . ج١ ، ص٣٥٦ .

(4) أبو الغيث . الدكتوراه ، ص٦٨ ، ٩٩ .

ز ـ يوم الكُلاب الثاني :

لما أوقع كسرى (الثاني) ببني تميم في يوم الصَّفقة ، بسبب تعرضهم لقافلته المتجهة إلى اليمن ، ارتحلت تميم إلى موضع ماء يقال له الكلاب (بين الكوفة والبصرة) بغرض الاختفاء عن أنظار القبائل الأخرى ، حتى تتمكن من تضميد جراحها ، وتستعيد قوتها . فسمعت قبيلة مذحج بخبرها ، وما حل بها من خسارة ، وما آلت إليه من ضعف . فجمعوا جموعهم مع من تبعهم من قبائل اليمن ، وخرجوا صوب الكلاب ، رغبة في اغتنام الأموال التي بأيدي تميم[1] .

وعند وصول مذحج وأحلافها إلى موقع الكلاب ، اقتتلوا قتالاً شديداً مع قبائل تميم (سعد والرباب) ، حتى إذا كان آخر النهار قُتل النعمان بن جساس ، زعيم تميم ، وظن أهل اليمن أن بني تميم سينهزمون جراء ذلك ، ولكنه لم يزدهم إلاَّ جرأة ، حيث حملوا على أهل اليمن حملة صادقة ، فانهزمت مذحج ومن معها ، وما زال بنو تميم في إثرهم يقتلون ويأسرون ، حتى أسروا عبد يغوث بن الحارث زعيم مذحج وقتلوه[2].

أما تاريخ يوم الكلاب الثاني فقد كان بعد مبعث الرسول ﷺ وهو ما يزال بمكة لم يهاجر ، أي في مطلع القرن السابع الميلادي[3] .

---

[1] جاد المولى ، ١٢٤-١٢٦ ـــ هبو . العرب قبل الإسلام ، ص١٩١ ، ١٩٢ .

[2] ابن الأثير . ج١ ، ص٣٨٠ ، ٣٨١ ـــ جاد المولى ، ص١٢٧ ، ١٢٨ .

[3] أبو الغيث . الدكتوراه ، ص١٢٢ .

ح ـ أيام حرب الفجار :

كانت هذه الحرب بين قريش وكنانة من جهة ، وقيس عيلان ــ خصوصاً هوازن ــ من جهة أخرى ، وقد سميت بالفجار لأنها كانت في الأشهر الحرم التي يحرم العرب القتال فيها . وهي فجاران : الأول ثلاثة أيام ، والثاني خمسة أيام ، امتدت خلال الأعوام الواقعة بين عامي (٥٨٥ – ٥٨٩م) في كل عام يوم[1] .

وبالنسبة لأيام الفجار الأولى فقد كانت أسبابها مختلفة ، وكانت عبارة عن مناوشات لم تنته بقتال . أما أيام الفجار الثاني فقد اشتعلت شرارتها الأولى بسبب قتل البراض بن قيس الكناني ، حليف حرب بن أمية القرشي ، لعروة الرحال ــ الذي ينتمي إلى هوازن ثم إلى قيس عيلان ــ خفير لطيمة (قافلة) النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، المتوجهة إلى سوق عكاظ[2] مما أدى إلى اشتعال حرب الفجار الثانية .

وقد كانت معارك الأيام الخمسة لحرب الفجار الثانية تشتعل في موعد انعقاد سوق عكاظ ، وكانت الغلبة في هذه الأيام لقيس على قريش وكنانة ، عدا اليوم الرابع الذي كان لقريش وكنانة على قيس . وقد تداعى الفريقان إلى السلم ، بعد انقضاء اليوم الخامس والأخير ، على أن يذروا الفضل في الدماء والأموال ، ويتعاهدوا على الصلح[3] .

---

(١) جاد المولى ، ص٣٢٢ ــ الأفغاني . أسواق العرب ، القاهرة ، ١٩٩٣م ، ص١٦٣ .

(٢) ابن الأثير . ج١ ، ص٣٥٩ .

(٣) جاد المولى ، ص٣٢٦ ــ ٣٢٧ ــ الأفغاني ، ص٦٩ ــ ٧٩ .

الفصل الثاني

أسواق العرب في الجاهلية

أولاً : لمحة عن الطرق التجارية :

شكلت التجارة العمود الفقري لسكان الجزيرة العربية، ولذلك نجد أن حواضر الدول العربية القديمة اكتسبت أهميتها من كونها محطات على الطرق التجارية، التي تعبر مناطق الجزيرة العربية المختلفة.

وقد سبقت الإشارة في ثنايا الفصول السابقة إلى أن أهم هذه الطرق التجارية يتمثل في ذلك الطريق الذي عرف بطريق اللبان أو البخور، ويربط بين عالم المحيط الهندي وعالم البحر المتوسط، ويمتد عبر أراضي الجزيرة العربية من جنوبها إلى شمالها، وينبثق عنه طريق فرعي يمتد من نجران إلى سواحل الخليج العربي وبلاد الرافدين.

وقد استمر الإشراف على هذا الطريق بأيدي الدول اليمنية القديمة، إلى أن ضعفت وسقطت بسبب التدخل الحبشي، وانتقلت السيطرة التجارية على هذا الطريق إلى أيدي القرشيين في مطلع القرن السادس الميلادي، حيث صار يسمى بطريق الإيلاف، وقد

استمر قائماً حتى ظهور الإسلام، وتوحيد الدولة الإسلامية الجديدة لكل أراضي الجزيرة العربية والمنطقة المحيطة بها، حيث فقد الإيلاف معناه، بعد أن أصبحت كل المناطق التي كان يربطها جزءاً من دولة واحدة، تسير أمورها، وتفرض الأمن في أرجائها.

ثانياً : تعريف الأسواق :

كانت أسواق العرب في العصر الجاهلي تقام في مواسم محددة من السنة ، وكانت بمثابة أسواق عامة ، يقصدها الناس من شتى أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت أكبر هذه الأسواق تقام في الأشهر الحرم (ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم ، ورجب الفرد) نظراً لأن العرب كانوا يضعون أسلحتهم خلال هذه الأشهر ، وكان من أعظم العار أن يتعدى المرء حدود الشهر الحرام . أما الأسواق التي كانت تقام في غير الأشهر الحرم فقد كان على القادمين إليها أن يردوها بخفارة ، وأن يغادروها بخفارة أيضاً[١].

وقد كان يرتاد هذه الأسواق ـــ إلى جانب التجار ـــ أناس لا يهمهم البيع والشراء ، بل كانوا يقصدونها لغاية في نفوسهم ، فكان مثلاً يرتادها الخطباء والشعراء ، وكذلك المبشرون الذين كانوا يحاولون الاتصال بالقبائل العربية ، فيحاولون التأثير على بعض أفرادها . وقد كان الرسول ﷺ يخرج في المواسم ليعرض دعوته على القبائل . وكان بعض مرتادي هذه الأسواق يقصدونها بغية العثور على قاتل فار ، يتربصون به حتى يخرج من السوق ، ولذلك فقد كان فرسان العرب المبرزين يرتادونها ملثمين حتى لا يعرفهم ذوو الثارات[٢] .

---

[١] هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٣٨ ، ٢٤٠ .

[٢]

ثالثاً : أهم أسواق العرب :

أ. سوق عكاظ

نظراً لأهمية هذه السوق ، مقارنة لها بالأسواق الأخرى ، فقد أفردنا لها فقرة مستقلة عن بقية أسواق غرب الجزيرة ــ التي سنتناولها في الفقرة التالية ــ رغم أنها واحدة منها .

وتُعد سوق عكاظ من أشهر الأسواق الموسمية العامة التي عرفها العرب ، فقد اجتمعت فيها صفات أسواق العرب كلها ، وتحققت فيها الغايات التي كانت العرب تنشدها ؛ فهي سوق تجارة ، وسوق سياسية ، وسوق أدب . ففيها تباع أفخر الملابس والأقمشة الشامية والعراقية واليمنية ،وتباع فيها الأسلحة ، والحيوانات ، ومختلف أنواع الطعام والشراب التي يحملها التجار من مختلف الأصقاع القريبة والبعيدة ، كما كانت سوقاً معروفة لبيع الرقيق ، ولكل ما يصيبه الغزاة في عمليات الغزو والنهب والسلب[1] .

وكانت عكاظ سوقاً سياسية واجتماعية ، يلتقي فيها رجالات القبائل لقضاء أمور كثيرة ؛ من تحصيل إتاوة ، وعقد حلف ، وإعلان جوار أو حرب . وإذا أرادت قبيلة خلع أحد سفهائها فإن مناديها ينادي في السوق ليعلم الناس كافة ، وإذا أراد أحدهم أن يلحق آخر بنسبه أعلن ذلك على الملأ . أي أن سوق عكاظ كانت تقوم من العرب مقام الجريدة الرسمية في الدول الحديثة ، أو أنها تؤدي عمل وسائل الإعلام الأخرى المعروفة لنا اليوم[2].

---

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٢٤٦ ، ٢٤٧ .

(2) برو . ص٢٤٧ ــ هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٢٤٧ .

وكانت عكاظ أيضاً معرضاً من معارض الأدب ، ومجمعاً أدبياً ولغوياً رسمياً ، له محكمون تضرب عليهم القباب ، فيأتيهم شعراء القبائل ويعرضون عليهم أجود ما عندهم من شعر ، وما أن يقول الحكم كلمته حتى يتناقل الحاضرون والرواة القصيدة الفائزة ، فتلهج بها الألسن ، ويذيع صيت الشاعر إن كان مغموراً من قبل . فهي المكان الذي كانت فيه المعلقات ، وعيون الشعر الجاهلي تجد طريقها إلى الناس كافة[1].

ولعل وقوع سوق عكاظ بالقرب من مكة ، وورود الحجاج عليها في ذي القعدة قبل بدء الحج ، ثم ورود اسمها في أخبار الرسول ﷺ ، ولكونها السوق المفضلة لتجار قريش ، لعل هذه الأسباب ولغيرها دوراً في تخليد اسم هذه السوق ، وعلو شأنها على غيرها من الأسواق التي كان أهل الأخبار لا يتوسعون في ذكرها وبيان أحوالها ، كما هو الحال مع عكاظ[2] .

أخيراً نذكر أن موقع سوق عكاظ كان قريباً من الطائف ، ويعتقد أن موقعه كان في الحوية ، إحدى الضواحي الشمالية للمدينة[3] .

---

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٢٤٧ ـــ برو . ص٢٤٨ .

(2) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٢٤٨ .

(3) العقيلي . سوق عكاظ في التاريخ ، أبها ، ١٩٨٤م ، ص١٣٢ .

ب ـ أسواق غرب الجزيرة[1] :

المقصود بأسواق غرب الجزيرة هي تلك الأسواق التي قامت في الحجاز ، خصوصاً في المنطقة المحيطة بمكة ، وتعد سوق عكاظ ـ التي أفردنا لها الفقرة السابقة ـ أهم هذه الأسواق .

تأتي بعدها (**سوق ذي المجاز**) ، فهي من أسواق العرب الكبرى ، وموقعها بالقرب من عكاظ ، في ديار هذيل ، وكانت تقوم في الأيام الأولى من شهر ذي الحجة .

ثم تأتي بعد ذلك (**سوق حُباشة**) ، وموقعها إلى الجنوب من مكة ، وكان يتاجر بها أهل الحجاز وأهل اليمن ، وكانت تقام في شهر رجب . وثمة سوق أخرى تعرف بهذا الاسم ، ولكنها أقل شهرة من هذه السوق ، وتتبع بني قينقاع في يثرب (المدينة) .

نصل أخيراً إلى (**سوق مجنة**) ، التي تقع بالقرب من مكة أيضاً ، في أراضي كنانة ، وكانت تقوم في العشر الأخيرة من شهر ذي القعدة .

ج ـ أسواق شرق الجزيرة[2] :

ونقصد بها تلك الأسواق التي قامت في البحرين (الساحل الغربي للخليج العربي) ، وفي عُمان ، وكانت هذه الأسواق تخضع للفرس بصفة عامة .

---

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٢٤٦- ابراهيم. حقي إسماعيل، أسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية، عمان، ٢٠٠٢م، ص٩٩-١٠٠ .

(2) المرجع نفسه . ص٢٤٣ ـ ٢٤٥ ـ الأفغاني . ص٢٤٠ ـ ٢٥٢ .

وتأتي (سوق المشقر) في مقدمة هذه الأسواق ، وقد دعيت بهذا الاسم نسبة إلى حصن المشقر الشهير قرب هجر ، وكان يقصدها العرب والفرس . أما الذين يعشرونها فهم من بني تميم ، الخاضعين لملك الفرس ، وكانت تقام في شهر جمادي الآخرة .

تليها (سوق هجر) ، وكانت تقام في مدينة هجر ، وكانت تخضع لنفوذ الفرس ، وكان يقصدها العرب والفرس والهنود ، وكانت تقام في شهر ربيع الآخر .

أما (سوق دبا) فتقع في مدينة دبا العمانية القريبة من مضـيق هرمـز ، وكـان يقصدها إلى جانب العرب تجار الهند و الصين ، أي أنها أسواقاً ذات تجارة مع العالم الخارجي ، وكانت تقام في أواخر شهر رجب .

وكذلك (سوق صحار) الواقعة في مدينة صحار (إحدى مدن الساحل العماني) ، وكانت تعرض فيها بضائع يمنية وهندية وصينية ، وكانت تقام في شهر رجب .

أخيراً لدينا (سوق عُمان) ، وهي إحدى الأسواق العمانية ، وكـان يقصـدها العرب والفرس والهنود ، وكانت تحت نفوذ الفرس ، وتقام في شهر جمادي الأولى .

د . أسواق جنوب الجزيرة[1] :

المقصود بهذا الاسم هي تلك الأسواق التي كانت تقام في اليمن .

وسوف نبدأ بتناول (سوق حضرموت) ، هذه السوق التي تعرف أيضاً بـ (سوق الرابية) ، وهو الموقع الذي كانت تقوم فيه ، وكانت قوافل قريش تصلها بخفارة بني آكل المرار من كندة ، وكانت تقام في النصف الأخير من شهر ذي القعدة .

ولدينا أيضاً (سوق الشحر) ، والشحر اسم يطلق على الساحل الجنوبي لليمن بين عدن وعمان ، وكان موقع هذه السوق في حضرموت بالقرب من المهرة في الموقع الذي يحمل اليوم اسم الشحر ، وكان قاصديها يتخفرون بقبيلة بني محارب المهرية ، وكانت تقام في النصف من شهر شعبان .

وبعد ارتحال التجار من سوق الشحر كانوا يقصدون (سوق عدن) ، هذه السوق التي تقام في مدينة عدن اليمنية ، وكان الطيب أهم سلعها ، وكان يقوم بتعشيرها ملوك اليمن ، حتى آل أمرها إلى الولاة الفرس في اليمن ، وكانت تقام في الثلث الأول من رمضان .

ومنها كان ينطلق التجار إلى (سوق صنعاء) ، وموقعها في مدينة صنعاء اليمن ، وكانت هذه السوق من الأسواق الغنية بالبضائع ، وتقام في النصف الأخير من رمضان .

---

[1] الأفغاني ، ص٢٦٦ ت ٢٧٧ ــ هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٢٤٤ ، ٢٤٥ .

هـ . أسواق شمال الجزيرة[1] :

المقصود بهذه الأسواق هي تلك الأسواق التي قامت في الأطراف الشمالية للجزيرة العربية حول بادية الشام .

وتعد (سوق دومة الجندل) في مقدمة هذه الأسواق ، وموقعها في بلدة دومة الجندل ، وكان يعشرها صاحب حصن دومة الجندل أحياناً ، وتعشرها قبيلة كلب القريبة منها أحياناً أخرى ، وكانت تقام في شهر ربيع أول .

تقف إلى جانب هذه السوق في هذه المنطقة ، العديد من الأسواق الواقعة إلى الجهة الشمالية من بادية الشام ، وهي أسواق كانت العرب ــ وقريش خاصة ــ تقصدها ، إذا انتهوا من أسواقهم الواقعة حول مكة (عكاظ وغيرها) ، بعد أن ينتهوا من حجهم ، وكانت تخضع لعمال الروم (البيزنطيين) الذين يتقاضون الضرائب من التجار القادمين اليها.

وكانت (سوق دير أيوب) هي أول هذه الأسواق قياماً ، وموقعها في دير أيوب، وهي قريبة من قرى حوران ، إلى الجنوب من دمشق ، وتعرف اليوم باسم شيخ سعد .

وبعد الراحة ينتقل التجار إلى (سوق بُصرى) ، وموقعها في مدينة بصرى الشام ، وكان تجار العرب وقريش يقدمون إليها بحاصلات الحبشة والهند واليمن ، وقد اشتهرت

---

[1] الأفغاني ، ص٢٣٢ ــ ٢٣٩ ، ٣٦٢-٣٧٤-حمو. عرفان محمد، أسواق العرب، دار الشورى، بيروت، (د.ت)، ص١٩٦،١٩٧ .

بصرى بصناعة السيوف المشرفية التي كان التجار يحرصون على إقتنائها، وكانت ســـوقها تستمر خمساً وعشرين يوماً.

وينتهي المطاف بتجار العرب وقريش في هذه المنطقة ، في (**سوق أذرعـــات**) ، وموقعها في مدينة أذرعات (درعاء الحالية)، وتنعقد بعد سوق بصرى بسبعين يوماً، وتستمر لفترة طويلة قد تستغرق فصل الصيف كله.

الفصل الثالث

أديان العرب في الجاهلية

أولاً : العبادات الوثنية

من الملاحظ بشكل عام أن وثنية عرب شمال الجزيرة كانت أبسط من أشكال الوثنية المعروفة عند الساميين ، فهي لم ترقَ مثل وثنية عرب الجنوب ، ولم يكن لها المعابد الفخمة ، والشعائر المعقدة ، وطبيعي أن يكون الحال كذلك ؛ فعرب الشمال في معظمهم بدو رحل لا يستقر لهم قراراً ولا تعرف لهم داراً ، في حين أن عرب الجنوب أغلبهم متحضرون ، وعلى اتصال دائم بمنجزات العالم الحضارية ، بسبب موقعهم الجغرافي الممتاز[1] . ويمكن تقسيم العبادات الوثنية في شمال الجزيرة العربية إلى ثلاثة أقسام أساسية هي :

[1] عاقل . ص٢٦٨ .

أ ـ عبادة الأرواح :

ساد الاعتقاد في الجاهلية أن بعض الظواهر الطبيعية لها أرواحاً كامنة فيها ، وأنها عبارة عن قوى خفية فوق قوى البشر ، لا يستطيعون لها تفسيراً ، فأرادوا أن يتفادوا شرها ، وأن يحوزوا على رضاها في الوقت نفسه ، فعبدوها ، وتقربوا إليها بالذبائح والقرابين . أما مكان هذه الأرواح فهو الطبيعة في مظاهرها المختلفة (حجارة ، وأشجار ، وكهوف ، وينابيع)[1] .

ويدخل ضمن عبادة الأرواح ، عبادة الأسلاف ، من الآباء والأجداد ، اعتقاداً منهم أن أرواح موتاهم تلازم قبورهم ، وأن هذه الأرواح قادرة على نفع ذويها ، أو إلحاق الضرر بهم . ويدخل ضمنها أيضاً عبادة الملائكة والجن ، فالملائكة والجن في نظرهم أرواح غير منظورة . وقد أشار القرآن الكريم إلى عبادة عرب الجاهلية للملائكة والجن بقوله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴾ [سبأ / ٤٠، ٤١][2] .

---

(١) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص ٢٦٠ .

(٢) برو . ص٢٨٧ – ٢٩١ .

ب. عبادة الكواكب

عُرفت عبادة الكواكب بصورة واضحة لدى عرب الجنوب ، حيث يعتقد أنهم قد عدوا تلك الكواكب أسرة إلهية واحدة ، مكونة من أب (القمر) ، وأم (الشمس) ، وابن (الزهرة)[1] . أما عرب الشمال فإن هذه العبادة لم تكن واضحة لديهم ، وكل ما عرفناه لديهم بهذا الخصوص ، هو مجرد أسماء لما يعتقد أنها آلهة كوكبية ، مقرونة بأسماء أشخاص ، مثل : عبد الثريا ، وعبد شمس ، وغيرها . أما مكان عبادة هذه الآلهة ، فذلك أمر ما زال مجهولاً ، مما يدل على أن تلك العبادة لم تكن منتشرة بصورة كبيرة ،مثل ما هو الحال مع عبادة الأصنام[2].

ج. عبادة الأصنام

يدخل ضمن عبادة الأصنام ما يسمى بالأوثان والأنصاب . والمقصود بالأصنام ، التماثيل التي لها صورة ، وصنعت من خشب ، أو ذهب ، أو فضة ، أو نحاس ، أو حديد . أما الأوثان ، فهي الحجارة المنصوبة . أما الأنصاب فهي الحجارة غير المنصوبة . وربما كان مرد الاختلاف بين هذه التسميات إلى اختلاف لهجات القبائل العربية ، ونتيجة لهذه الاختلافات وقع اللغويون في حيرة من أمرهم ، ولكنهم انتهوا إلى القول بترادف تلك الألفاظ ، ما دامت تدل على شيء واحد : وهو كل ما يشغل عن الله[3].

---

[1] برو ، ص٢٨٤ .

[2] المرجع نفسه ، ص٢٧٢ .

[3] المرجع نفسه ، ص٢٧٢ ــ ٢٧٧ .

ويذكر أهل الأخبار أن عرب الشمال كانوا على دين إبراهيم وابنه إسماعيل ، إلى أن جاءهم عمرو بن لحي الخزاعي بالأصنام ، فنصبها حول الكعبة وطلب منهم عبادتها . وهناك رأي آخر يفسر انتشار عبادة الأوثان والحجارة ، مفادها حب العرب الشديد للحرم المكي ، حيث كان زواره يحملون معهم أحجاراً من حجارة الحرم فيحملونه معهم ، فحيثما حلوا وضعوه وطافوا به ، كطوافهم بالكعبة ، وبمرور الزمن استحبوا ذلك ونسوا ما كانوا عليه من دين إبراهيم وإسماعيل ، فعبدوا تلك الأوثان ، وفيهم بقايا من عهد إبراهيم متمثلة بالحج وتعظيم صنم واحد أكبر ، كما كانت القبائل تحمل أوثانها معها في الحروب لتتبرك بها ، وتستمد منها العون والنصر . وقد كانت لا تخلو دار من صنم صنعه أهلها بأنفسهم ، فإذا أراد أحدهم السفر ، كان آخر ما يصنع في منزله هو التمسح بذلك الصنم ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع عند دخول منزله هو التمسح به أيضاً[1] .

أما أشهر أصنام العرب في الجاهلية ، فقد تمثلت في : هبل ، واللات ، والعزى ، ومناة . وغيرها من الأصنام والتماثيل التي أفرد لها ابن الكلبي كتاباً سماه كتاب الأصنام .

ثانياً : الأديان التوحيدية

إلى جانب العبادات الوثنية السالف ذكرها ، عرف العرب الديانات التوحيدية التي تسربت إليهم من خارج الجزيرة العربية ، كاليهودية ، والنصرانية ، أو نبعت من داخلها كالحنيفية . فقد عرف العرب ــ رغم وثنيتهم وتعظيمهم الأصنام ــ أن لهذا الكون خالقاً أكبر من أصنامهم ، وقد كانوا يزعمون أنهم أنما يعبدون هذه الأصنام لتقربهم إلى الله ﴿ وما

[1] هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٢٧١ .

نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر / ٣] . أي أنهم كانوا لا يتعبدون أصنامهم لذاتها ، بل لأنها واسطتهم إلى الله . ويشير القرآن الكريم في أكثر من موضع إلى أن مشركي العرب إذا ما سُئلوا عمن خلق الأشياء الموجودة في الكون فإنهم يرجعون خلقها إلى الله ﷻ ، وليس إلى أصنامهم . أما الأديان التوحيدية التي عرفها العرب ، فقد كانت على النحو التالي :

أ- اليهودية :

يعتقد أن دخول اليهودية إلى شمال الجزيرة العربية ، مرتبط بتدمير الرومان لمدينة أورشليم (القدس) ، في عام (٧٠م) ، وتشريدهم لليهود منها ، حيث هاجرت جماعات منهم إلى الحجاز ، واستقرت هذه الجماعات في يثرب ، وخيبر ، ووادي القرى ، وفدك ، وتيماء[١] .

وكان اليهود يعيشون عيشة العرب المجاورين لهم ، ولا يختلفون عنهم اختلافاً كبيراً إلاّ في الدين ، فكانوا قبائل وبطون تحمل أسماء عربية ، وكانوا يلبسون لباس العرب ، ويتكلمون لغتهم . وتفسير ذلك أن اليهود الأغراب قد وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مجاراة العرب ، سكان الجزيرة الأصليين ، حتى يضمنوا لأنفسهم وطناً يؤويهم ، وإلاّ كان مصيرهم اللفظ والطرد والتهجير . وقد وجد اليهود تسامحاً من طرف العرب ، وتمتعوا بحرية واسعة ،

---

(١) سالم ، ص٤٣٣ .

لم يحصل عليها إخوانهم الذين استوطنوا بلاداً أخرى ، وقد اعتنق بعض العرب ديانة اليهود ، وتزاوجوا معهم ، وبمرور الزمن نسي الطرفان حقيقة ذلك ، وصاروا جنساً واحداً[1] .

ب . النصرانية :

لا يعرف بالتحديد الزمن الذي دخلت فيه النصرانية إلى شبه الجزيرة العربية ، لكن المعروف أن العرب قد تعرفوا على هذا الدين التوحيدي وعقائده ، عن طريق المبشرين ، وطرق التجارة التي نقلت التجار العرب إلى مواطن المسيحية ، ونقلت التجار المسيحيين إلى بلاد العرب ، إلى جانب قيام الأديرة المسيحية على تلك الطرق ، حيث كان العرب يقصدونها للاستراحة ، والتزود بالمياه ، فيطمئنون إلى رهبانها ، ويسمعون إليهم ، إلى جانب ذلك فقد وصل إلى جزيرة العرب ـــ عن طريق تجارة الرقيق ـــ نفر من مسيحيي بلاد الشام ، والعراق ، ومصر ، والحبشة[2] .

ومع كل تلك المنافذ التي عبرت من خلالها المسيحية إلى الجزيرة العربية ، إلاّ أن انتشارها في الحجاز ظل محدوداً ، وانحصر في عدد من الأفراد ، لكن المسيحية قد وجدت فرصة أكبر في أقاصي شمال الجزيرة العربية ، حيث انتشرت في صفوف بعض القبائل العربية القاطنة هناك مثل : طيئ ، وإياد ، وقضاعة ، وجذام ، وتغلب ، إلى جانب انتشارها في صفوف الغساسنة ، وبدرجة أقل في صفوف المناذرة[3] .

(1) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٣١٣ ، ٣١٤ .

(2) برو ، ص٣٠٨ ـــ هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٣١٦ .

(3) سالم ، ص٤٢٩ ـــ ٤٣٢ .

ج. الحنيفية :

ظهرت الحنيفية بين العرب قبيل ظهور الإسلام ، وكان أتباعها جماعة من العقلاء ، الذين سمت نفوسهم عن عبادة الأصنام ، ولم يجنحوا إلى اليهودية ، أو النصرانية ، وإنما قالوا بوحدانية الله . ويعرف هؤلاء بالأحناف أو الحنفاء ، أو المتحنفين ، وهي جمع لكلمة حنيف . وأعلنوا أنهم على دين إبراهيم عليه السلام . وقد جاء في القرآن قوله تعالى: ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ [آل عمران/٦٧][1]، فثمة تأكيد على أن الحنيفية هي دين إبراهيم وملته ، وأن الإسلام جاء بهذا الدين ، وأظهره للناس ثانية .

ولا نستطيع القول أن الحنيفية كانت ديناً متكاملاً مثل اليهودية والنصرانية ، فأتباعها القلائل لا يرتبطون بكتاب ديني ، أو يجتمعون في مكان واحد للعبادة ، بل كانوا أفراداً من دون تنظيم ، أقرب ما يكونون إلى النساك والزهاد الذين يسيحون في البلاد ويعتزلون الناس ، ويلتجئون إلى أماكن نائية للعبادة والتأمل . وكان منهم من اتصل بالنصارى فتنصر ، ومنهم من لم يجد في النصرانية ما يبحث عنه ، ولا في اليهودية ، فثابر على بحثه . ويمكننا أن نعدهم أناساً مصلحين ، ظهروا في مجتمع وثني بدائي في أفكاره الدينية ، فسعوا إلى ما يرضي أنفسهم ، ويملأ وجدانهم ، فنادوا بأفكار تحض على مكارم الأخلاق ، ونبذوا

[1] سالم ، ص٤٣٤ .

عادات قومهم الدينية ، ولكنهم حافظوا على شريعة إبراهيم ، وقواعدها من حج إلى بيت الله الحرام ، وغيرها[1].

ويمكننا القول أخيراً ، أن الأحناف الذين ظهروا قبيل الإسلام ، قد تعبدوا على ما تبقى من ديانة إبراهيم التي لم تعد هي تلك الديانة المتكاملة التي أتى بها إبراهيم ، بسبب تقادم العهد عليها . وكانت تلك المحاولة منهم للخروج من المحيط الوثني الذي غط فيه بقية العرب ، حتى أتى الإسلام وانتشل الجميع إلى دين الله الجديد ، الذي لم يكن بعيداً عن الديانة التي أتى بها إبراهيم من قبل ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا . قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ [البقرة / ١٣٥] .

(١) هبو . العرب قبل الإسلام ، ص٣٠٨ ، ٣٠٩ .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أولاً : المصادر والمراجع العربية :

❖ القرآن الكريم .

❖ التوراة.

❖ ابراهيم. حقي اسماعيل.

– أسواق العرب التجارية في الجزيرة العربية، عمان، ٢٠٠٢م.

❖ ابن الأثير . أبو الحسن علي بن أبو الكرم الشيباني .

– الكامل في التاريخ ، بيروت ، ١٩٨٣م .

❖ إسماعيل . عارف أحمد .

– دراسات في تاريخ الشرق القديم، ج ٢، المنتدى الجامعي، صنعاء،٢٠٠٢م.

– العلاقات بين العراق وشبه الجزيرة العربية منذ منتصف الألف الثالث وحتى منتصف الألف الأول قبل الميلاد ، صنعاء ، ١٩٩٨م .

❖ **الأصطخري . إبراهيم بن محمد .**

– مسالك الممالك ، ليدن ، ١٩٦٧م .

❖ **الأصفهاني . الحسن بن عبد الله .**

– بلاد العرب ، تحقيق / حمد الجاسر وصالح العلي ، الرياض ، ١٩٦٨م .

❖ **الأصفهاني . حمزة بن الحسن .**

– تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء ، برلين ، ١٣٤٠هـ .

❖ **الأفغاني . سعيد .**

– أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، القاهرة ، ١٩٩٣م .

❖ **الألوسي . السيد محمود شكري .**

– تاريخ نجد ، تحقيق / محمد بهجة الأثري ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ .

❖ **الأندلسي . ابن حزم .**

– جمهرة أنساب العرب ، بيروت ، ١٩٨٣م .

❖ **الأنصاري . عبد الرحمن الطيب .**

– أضواء جديدة على دولة كندة من خلال آثار قرية الفاو ونقوشها ، دراسات تاريخ الجزيرة العربية ، الكتاب الأول ، ج١ ، الرياض ، ١٣٩٩هـ .

– قرية الفاو . صورة للحضارة العربية قبل الإسلام ، الرياض ، ١٩٨٢م .

– لمحات عن بعض المدن القديمة في شمال غرب الجزيرة العربية ، مجلة الدارة ، العدد الأول ، ١٩٧٥م .

❖ **أولندر . جونار .**

- ملوك كندة من بني آكل المرار ، ترجمة / عبد الجبار المطلبي ، بغداد ، ١٩٧٣م .

❖ **باشميل . محمد أحمد .**

- العرب في الشام قبل الإسلام ، دار الفكر ، ١٩٨٧م .

❖ **بافقيه . محمد عبد القادر .**

- الأنساب والسير اليمانية:عناصرها ومصادرها،مجلة ريدان،العدد٥، ١٩٨٨م .

- تاريخ اليمن القديم . بيروت ، ١٩٨٥م .

- في العربية السعيدة:دراسات تاريخية قصيرة،صنعاء،ج١،١٩٨٧م،ج٢،١٩٩٣م.

❖ **برو . توفيق .**

- تاريخ العرب القديم ، دمشق ، ١٩٨٢م .

❖ **بروكلمان . كارل .**

- تاريخ الشعوب الإسلامية،ترجمة/نبيه أمين فارس ومنير بعلبكي،بيروت،١٩٨٨م.

❖ **البستاني . بطرس .**

- الشعر الجاهلي ، بيروت ، ١٩٨١م .

❖ **بعلبكي . رمزي .**

- الكتابة العربية والسامية ، بيروت ، ١٩٨١م .

❖ **البغدادي . أبو جعفر محمد بن حبيب .**

- كتاب المحبّر ، اعتنت بتصحيحه / إيلزه ليختن شتيتر ، بيروت ،(د . ت).

❖ **البلاذري . أحمد بن يحيى بن جابر .**

– أنساب الأشراف ، تحقيق / محمد حميد الله ، القاهرة ، ١٩٥٩م .

❖ **بني . عدنان .**

– تدمر والتدمريون ، دمشق ، ١٩٧٨م .

❖ **بوروتر . هارفي.**

– موسوعة مختصر التاريخ القديم، ط ١، القاهرة، ١٩٩١م.

❖ **بيغوليفسكيا ، نينا فكتور فنا .**

– العرب على حدود بيزنطة وإيران من القرن الرابع إلى القرن السادس الميلادي ، ترجمة / صلاح الدين عثمان هاشم ، الكويت ، ١٩٨٥م .

❖ **بيوترفسكي . م . ب .**

– ملحمة عن الملك الحميري أسعد الكامل،ترجمة/شاهر جمال أغا،صنعاء،١٩٨٤م.

❖ **جاد المولى بك . محمد أحمد (وآخرون) .**

– أيام العرب في الجاهلية ، دار الفكر ، (د . ت) .

❖ **جليان . عطاء الله .**

- مجتمع قريش السياسي والديني في عام الفيل ، بيروت ، ١٩٨٧م .

❖ **الجمعية الجغرافية السعودية.**

- دليل المواقع الجغرافية بالمملكة العربية السعودية، ط ١، مكتبة العبيكان،الرياض، ١٩٩٨م.

❖ جودة . جودة حسنين .

– شبه الجزيرة العربية :دراسة في الجغرافية الإقليمية ،الاسكندرية ، ١٩٩٥م .

❖ حتي . فيليب .

– تاريخ العرب ، ترجمة/ادوارد جرجي وجبرائيل جبور ، بيروت ، ١٩٧٤م.

❖ أبو الحسن . حسين بن علي .

– قراءة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا ، الرياض ، ١٩٩٧م .

❖ حسن . علي .

– الموجز في علم الآثار ، القاهرة ، ١٩٩٣م .

❖ حمو. عرفان محمد.

– اسواق العرب، دار الشورى، بيروت، (د. ت).

❖ الحموي .شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله .

– معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٥٧م .

❖ خربوطلي . شكران ـــ زكار . سهيل .

– تاريخ الوطن العربي القديم : الجزيرة العربية ، دمشق ، ٢٠٠٣م .

❖ خصباك . شاكر .

– دولة الإمارات العربية المتحدة: دراسة في الجغرافية الاجتماعية ، بغداد ، ١٩٧٧م .

❖ ابن خلدون . عبد الرحمن .

– كتاب العبر ، بيروت ، ١٩٧٧م .

❖ **خليفة . حاجي .**

- كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون ، استانبول ، ١٩٤١م .

❖ **الدينوري . أحمد بن داود .**

- الأخبار الطوال ، تحقيق / عبد المنعم عامر ، مراجعة / جمال الشيال ، القاهرة ، ١٩٦٠م .

❖ **الذهبي. محمد حسين.**

- الإسرائيليات في التفسير والحديث، ط٤، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٩٠م.

❖ **الذييب . سليمان بن عبد الرحمن .**

- نقوش ثمودية جديدة من الجوف، الرياض، ٢٠٠٣م.
- نقوش ثمودية من سكاكا ، الرياض ، ٢٠٠٢م .
- نقوش ثمودية من المملكة العربية السعودية ، الرياض ، ١٩٩٩م .
- نقوش الحجر النبطية ، الرياض ، ١٩٩٨م .

❖ **الرازي. محمد بن ابي بكر.**

- مختار الصحاح، مكتبة المؤيد، الطائف، ١٩٧١م.

❖ **الراوي . فاروق ناصر .**

- الوطن العربي في العصور القديمة : الأرض والناس ، بحث مقدم إلى الندوة الوطنية في سبيل التصدي للدس الشعوبي ، بغداد ، ١٩٨٨م .

❖ روبان . كرستيان .

– انتشار العرب البداة في اليمن من القرن الثاني إلى العاشر الميلادي ، ترجمة / علـــي محمد زيد ، مجلة دراسات يمنية ، العدد ٢٧ ، ١٩٨٧م .

❖ الروسان. محمود محمد.

- القبائل الثمودية والصفوية، الرياض، ١٩٨٧م.

❖ زيدان . جورجي .

– العرب قبل الإسلام ، مراجعة وتعليق / حسين مؤنس ، القاهرة ، (د.ت) .

❖ سحاب . فكتور .

– إيلاف قريش رحلة الشتاء والصيف ، بيروت ــ الدار البيضاء ، ١٩٩٢م .

❖ سفر . فؤاد ــ مصطفى . محمد علي .

– الحضر مدينة الشمس ، بغداد ، ١٩٧٤م .

❖ سلامة . عواطف بنت أديب بن علي .

– أهل مدين دراسة للخصائص والعلاقات ، الرياض ، ٢٠٠١م .

❖ السيوطي والمحلي.

– تفسير الإمامين الجلالين، بيروت، ١٩٨٧م.

❖ الشجاع . عبد الرحمن عبد الواحد .

– اليمن في صدر الإسلام ، دمشق ، ١٩٨٧م .

❖ ابو شهبة.محمد بن محمد.

– الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ط ٥، مكتبة السنة، القاهرة، (د.ت).

❖ **شريف . إبراهيم .**

- الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي ، ج١ ، بغداد ، (د . ت) .

❖ **الشريف . أحمد إبراهيم .**

- مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول ، القاهرة ، ١٩٦٥م .

❖ **الشمس . ماجد عبد الله .**

- الحضر العاصمة العربية ، بغداد ، ١٩٨٨م .

❖ **شهيد . عرفان .**

- حملة امرؤ القيس على نجران : المصادر غير المنشورة ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج١ ، الرياض ، ١٣٩٩هـ .

❖ **الشيبه . عبد الله حسن .**

- دراسات في تاريخ اليمن القديم ، تعز ، ٢٠٠٠م .

- محاضرات في تاريخ العرب القديم ، صنعاء ، ١٩٩٥م .

❖ **الصعيدي . عبد الحكيم عبد اللطيف .**

- حضارات ورد ذكرها في القرآن الكريم والسنة النبوية ، القاهرة ،١٩٩٦م.

❖ **الطبري . محمد بن جرير .**

- تاريخ الأمم والملوك ، بيروت ، ١٩٨٨م .

❖ **عاقل . نبيه .**

- تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، بيروت ، ١٩٨٣م .

❖ **عبد الله . يوسف محمد .**

– أوراق في تاريخ اليمن وآثاره ، بيروت ، ١٩٩٠م .

– ثلاثة نقوش صفوية،مجلة كلية الآداب،جامعة صنعاء ، العدد ٢ ، ١٩٧٩م .

❖ **عبده . طلعت أحمد محمد .**

– الجغرافيا التاريخية لشبه الجزيرة العربية في عصور ما قبل التـاريخ ، الاسـكندرية ، ١٩٨٨م .

❖ **العقيلي . محمد أحمد .**

– سوق عكاظ في التاريخ ، أبها ، ١٩٨٤م .

❖ **أبو العلاء . محمود طه .**

– جغرافية شبه الجزيرة العربية ، ج١ ،ج٥، القاهرة ، ١٩٧٢م .

❖ **علي . جواد .**

– المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت ــ بغداد ، ١٩٧٦م .

❖ **العلي . صالح أحمد .**

– محاضرات في تاريخ العرب ، ج١ ، بغداد ، ١٩٦٤م .

❖ **الغنيم . عبد الله يوسف .**

– جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد البكري، الكويت،١٩٧٧م .

❖ **غويدي . أغناطيوس .**

– محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الإسلام ، ترجمة / إبراهيم السامرائي ، بيروت ، ١٩٨٦م .

❖ **أبو الغيث . عبد الله .**

- علاقة جنوب الجزيرة العربية بشمالها خلال القرنين الثالث والرابع للميلاد ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة صنعاء ، كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ١٩٩٨م .
- العلاقة بين جنوب الجزيرة العربية وشمالها خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة صنعاء ،كلية الآداب ، قسم التاريخ ، ٢٠٠٣م.
- فجر الحضارة العربية القديمة..رؤية تاريخية حول حضارات الأقوام العربية العتيقة (عاد ، ثمود ، مدين)، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد٨٨، ٢٠٠٩م.
- الوحدة اليمنية في التاريخ هل كانت الأصل أم الإستثناء؟، بحث مقدم إلى ندوة الوحدة اليمنية والألفية الثالثة، التي نظمتها جامعة إب ، مايو، ٢٠٠٧م.

❖ **فارسي . زكي محمد علي .**

- الدليل الشامل للملكة العربية السعودية ، السعودية ، (د . ت) .

❖ **فخري . أحمد .**

- اليمن . ماضيها وحاضرها ، مراجعة وتعليق / عبد الحليم نور الدين ، صنعاء - بيروت ، ١٩٨٨م .

❖ **فروخ . عمر .**

- تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، بيروت ، ١٩٧٩م .

❖ **قطب. سيد.**

- في ظلال القرآن، مج ٥، ط ٢٥، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦م.

❖ القلقشندي . أبو العباس أحمد .

- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق / إبراهيم الإبياري ، القاهرة – بيروت ، ١٩٨٠م .

❖ لوندين . أ . ج .

- اليمن في إبان القرن السادس الميلادي ، الحلقة الرابعة ، ترجمة / محمد علي البحر ، مراجعة / محمد أحمد علي ، مجلة الإكليل ،العدد الأول ، ١٩٩٠م.

❖ ابن المجاور .

- صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز،تصحيح وضبط / أوسكار لوفجرن ، ليدن ، ١٩٥٤م.

❖ مجموعة مؤلفين .

- العراق في التاريخ ، بغداد ، ١٩٨٣م .

❖ محمد . عبد القادر محمد .

- الساميون في العصور القديمة ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

❖ المقريزي. تقي الدين.

- الخطط المقريزية، ج ١، القاهرة، (د.ت).

❖ ابن منظور .

- لسان العرب ، بيروت ، ١٩٥٥م .

❖ **مهران . محمد بيومي .**

- دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، ج١ ، بلاد العرب ، الاسكندرية ، ١٩٥٥م .
- دراسات في تاريخ العرب القديم ، الاسكندرية ، ١٩٨٠م .
- مصر والشرق الأدنى القديم ، ج٧ ، الحضارة العربية القديمة ، الاسكندرية (د.ت) .

❖ **نامي . خليل يحيى .**

- العرب قبل الإسلام : لغاتهم ــ آلهتهم ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

❖ **نولدكه . ثيودور .**

- أمراء غسان ، ترجمة / بندلي جوزي وقسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٣م.

❖ **هاردنج . لانكستر .**

- آثار الأردن ، تعريف / سليمان موسى ، عمان ، (د . ت) .

❖ **هبو . أحمد إبراهيم .**

- الأبجدية : نشأة الكتابة وأشكالها عند الشعوب ، اللاذقية ، ١٩٨٤م .
- تاريخ العرب قبل الإسلام ، دمشق ، ١٩٩٠م .
- العرب والساميون ، مجلة كلية الآداب ، جامعة صنعاء،العدد ١٤، ١٩٩٣م.
- المدخل إلى اللغة السريانية وآدابها ، حلب ، ١٩٨٧م .

❖ **ابن هشام . أبو محمد عبد الملك .**

- السيرة النبوية ، تحقيق / محمد شحاته إبراهيم ، القاهرة ، ١٩٩٠م .

❖ الهمداني . أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب .

– صفة جزيرة العرب ، تحقيق / محمد بن علي الأكوع ، صنعاء ، ١٩٩٠م .

– كتاب الاكليل ، ج١ ، تحقيق / محمد بن علي الأكوع ، بيروت ، ١٩٨٦م .

❖ وافي . علي عبد الواحد .

– فقه اللغة ، القاهرة ، ١٩٧٣م .

❖ يحيى . لطفي عبد الوهاب .

– الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية ، مصادر تاريخ الجزيرة العربية ، ج١ ، الرياض ، ١٣٩٩هـ .

– العرب في العصور القديمة ، بيروت ، ١٩٧٩م .

❖ اليعقوبي . أحمد بن أبي يعقوب .

– تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، ١٩٦٠م .

ثانياً : المصادر والمراجع الأجنبية :

❖ **Beeston . A . F . L .**

- Nemara and Faw, In Bulletin of the school of oriental and African studies , 1970 .

❖ **Sprenger . A .**

- Die Alte Geographie Arabiens, Amsterdam, 1865 .

❖ **Procopius .**

- History of the wars, London, 1961 .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات